البُنيـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة
لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق
(١٨٢٥ ـ ١٨٧٥) *

د . عبد الكريم رافق

جامعة دمشق

المقدمـة :

يتناول هذا البحث بالدراسة واحدة من اشهر محلات دمشق خارج السور هي محلة باب المصلى التي شكلت القسم الرئيسي من الميدان التحتاني وعرفت اساسا باسم ميدان الحصا . وكان هذا الميدان واحدا من أربعة ميادين ، تمركزت الثلاثة الاخرى منها الى الشمال والشرق والغرب من القصر الابلق.(تقوم مكانه اليوم التكية السليمانية) ، الذي انشأه الظاهر بيبرس المملوكي(١) . واستخدم الايوبيون وخلفاؤهم المماليك ، بصورة خاصة ، الميادين لتدريب الفرسان ، وانتشرت هذه في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها من مدن السلطنة .

وسيعالج البحث الاهمية التاريخية لمحلة باب المصلى والبعد المكاني لها ، وكذلك البنى الاجتماعية والاقتصادية فيها . وسيولي أهمية خاصة للاندماج والتعايش بين فئات السكان في المحلة بالرغم من اصولهم ومذاهبهم المختلفة .

---

* اعد هذا البحث للمشاركة في الكتاب التكريمي للاستاذ الدكتور قسطنطين زريق رئيس جامعة دمشق سابقا (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢) واستاذ شرف التاريخ العربي في الجامعة الاميركية في بيروت ، بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين .

يتميز ميدان الحصا ، الذي عرف بالميدان ، بموقعه الاستراتيجي وأهميته الاقتصادية والعسكرية والدينية ، لانه ربط دمشق بالمركز الرئيسي لانتاج الحبوب في حوران وكان واسطة التبادل التجاري بين دمشق وبين فلسطين والحجاز ومصر ونقطة المرور للحملات المتجهة من مصر الى دمشق سواء منها النظامية الطائعة للسلطنة المملوكية ام الثائرة عليها . وكان في العهد العثماني معبرا للقوات الثائرة القادمة من مصر التي احتلت دمشق ، مثل حملة علي بك المملوكي في عام ١٧٧١ ، وحملة محمد علي باشا في عام ١٨٣١ .

ولعب الميدان دورا هاما في الحركة الوطنية السورية في القرن العشرين بحكم موقعه الاستراتيجي والاقتصادي . بالاضافة الى ذلك كان للميدان دور هام في تسهيل سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز وتزويدها بالمؤن والجمال . وعرفت نهاية الميدان الجنوبية وما تزال باسم البوابة اختصارا لتعبير بوابة الله ، او باب الله ، لانها تؤدي الى بلاد الله وهي الاماكن المقدسة في الحجاز والقدس . ونظرا لهذه الاهمية فقد استقطب الميدان اعدادا كبيرة من السكان من المناطق المجاورة والبعيدة قدموا اليه للمتاجرة او هربا من الاضطرابات ، ولهذا ازداد امتداده باتجاه الجنوب واندمجت به بالتدريج قرية القبيبات ، وغدا طوله من باب الجابية الذي يربطه بدمشق الى نهايته الجنوبية ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات ،ثم اخذ بالتوسع على الجانبين . ونظرا لهذا الامتداد والتوسع قسم الميدان اصطلاحا الى ثلاثةأقسام :الميدان التحتاني ،الاقرب الى دمشق ، والميدان الوسطاني ، والميدان الفوقاني الذي ينتهي بالبوابة . وتشكل محلة باب المصلى القسم الرئيسي من الميدان التحتاني(٢) .

تشتق تسمية محلة باب المصلى من جامع المصلى فيها . وكانت منطقة الجامع تعرف قديما باسم المصلى ، وقد اختيرت منذ الفتح الاسلامي لهذا الغرض من قبل ابي عبيدة لاتساعها (٣) ، واستخدمت لايواء جماهير المصلين ، رجالا ونساء ، مدنيين وريفيين ، في المناسبات الدينية مثل صلاة الاستسقاء وصلاة العيدين ، ولهذا عرف هذا المصلى اساسا بمصلى العيدين . وقد ذكر صاحب كتاب « منادمة الاطلال ومسامرة الخيال » ان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب قد أنشأ في عام ٦٠٦/١٢٠٩ جامعا عند المصلى وجعله لصلاة العيدين ، وانه ، كما أورد أبو شامة « قد بنى له اربعة جدر مشرفة ، وجعل له ابوابا صونا لمكانه من نزول القوافل ، وجعل له محرابا من حجارة ومنبرا منها ، وعقدت فوقه قبة ، ثم عمل بعد ذلك في قبلته رواقان ومنبر من خشب »(٤) .

وقد شاع استخدام اسم المصلى او مصلى العيدين لهذا الجامع في كتابات الاخباري الدمشقي محمد بن طولون (١٤٧٦ ـ ١٥٤٦) ، من أواخر عهد السلطنة

المملوكية واوائل السلطنة العثمانية . ونسبت المحلة فيما بعد الى جامع باب المصلى وعرفت اختصارا بمحلة باب المصلى .

تعرّف سجلات محكمة الميدان الشرعية محلة باب المصلى انها ظاهر دمشق تابعة للميدان التحتاني الذي شكل واحدا من ثمانية اقسام قسمت اليها دمشق في القرن التاسع عشر « في دفاتر الحكومة »(٥) ، وذلك لتسهيل جباية الضرائب منها(٦). وتستعمل السجلات هذه في غالب الاحيان العبارة التالية : ظاهر دمشق بمحلة باب المصلى بالزقاق (كذا) ، وفي حالات نادرة جدا تذكر : ظاهر دمشق بمحلة الميدان في باب المصلى بالزقاق (كذا) . والواقع ان محلة باب المصلى هي المحلة الوحيدة في الميدان بكامله وما عداها يشار اليه انه بمحلة الميدان بزقاق القرشي مثلا . وتعبير « المحلة » يطلق على منطقة بكاملها ، داخل دمشق وظاهرها ، مثل محلات السويقة والعقيبة والقيمرية ومأذنة الشحم والخراب وباب توما . وتختلف حدود المحلة من وقت الى آخر .

ادى موقع محلة باب المصلى المتميز على المشارف الجنوبية لدمشق الى استقطاب فعاليات بشرية واقتصادية وعسكرية متنوعة ، معظمها من المناطق المجاورة والجنوبية ، وبعضها من المغرب العربي . وتنوع القادمون بتنوع المناطق التي اتوامنها، والاعمال التي مارسوها ، والمذاهب التي اعتنقوها ، فكان بينهم ريفيون من قرى حوران وجبل العرب (الدروز) ، ومهاجرون من وادي التيم ، وفلاحون وتجار حبوب، وبدو وتركمان واكراد ، ومسيحيون ودروز وسنة ، ومغاربة قدموا كجنود ليبيعوا خدماتهم العسكرية أو كعلماء ليجاوروا الاماكن الدينية أو كمهاجرين من عنت الاحتلال الفرنسي والاوربي بعامة . وبالرغم من تنوع السكان هذا فان المميزات ، وبالتالي المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والبشرية لمنطقة الميدان قد جعلت من ساكنيه كتلة متراصة تحدت السلطات المدنية الظالمة عبر العصور. فقد اشار ابن طولون الى مقاومة عوام وزعر (زعران) محلة باب المصلى حكم المماليك ، وكانت نقطة تجمعهم وتعاهدهم على القتال ومقاومتهم للسلطات هي مصلى العيدين . وبالمقابل اتخذ العصاة من المماليك محلة باب المصلى نقطة انطلاق لعصيانهم على الدولة لانها تتحكم بطريق المؤن والامدادات العسكرية القادمة من الجنوب(٧) . وفي العهد العثماني انطلقت أكبر ثورات الانكشارية المحليين على الحكم العثماني ، في عهد اسعد باشا العظم ، عام ١٧٤٦ ، من محلة باب المصلى(٨) . ولعب الميدان دورا رئيسا في الثورات على الفرنسيين ، وبخاصة الثورة السورية الكبرى في ١٩٢٥ ، كما تحدت زعاماته الحكومات الوطنية فيما بعد .

وقد اخترنا الفترة بين عامي ١٨٢٥ ـ ١٨٧٥ لانها شهدت تطورات هامة ، محلية وعربية وعثمانية ، كان لها اثرها الفعال على البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى وغيرها من المحلات بنسب متفاوتة .

فهناك اولا الغاء الانكشارية من قبل السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ ، وكان الميدان المركز الرئيسي للانكشارية اليرلية (المحلية) الذين كانوا بمعظمهم ، قيادات وافرادا ، دمشقيين بملابس عسكرية هدفهم المحافظة على امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية . ثم تلى ذلك احتلال قوات حاكم مصر محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) . واعقب انسحابه عودة العثمانيين ومحاولاتهم فرض سلطتهم وادخال التنظيمات من الاعلى . وكانت اوربا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، تحاول هي الاخرى فرض نفوذها الاستعماري في المنطقة العربية ، على مختلف المستويات .

ونتج عن الازمات الاقتصادية والاجتماعية التي حلت ببلاد الشام بنتيجة هذه العوامل اضطرابات اجتماعية وتخلخل كبير في العلاقات الطائفية شجعته القوى الاستعمارية والعثمانية . واستطاع سكان محلة باب المصلى ، خلافا لما حدث في دمشق ، تحاشي اخطار هذه الاضطرابات بالرغم من كثرة المسيحيين في المحلة. وينتهي البحث في عام ١٨٧٥ ، اي بعد خمس عشرة سنة على احداث عام ١٨٦٠ ، بهدف دراسة آثار تلك الاحداث على الاندماج الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية بين فئات السكان في محلة باب المصلى . وقد ازدادت تلك العلاقات ، في الواقع ، انفتاحا وتراصا لمواجهة التحدي الاوربي الذي هددها جميعا على حد سواء .

وقد اخترنا خمس عينات من سجلات محكمة الميدان الشرعية التي تعنى بقضايا محلة باب المصلى ، تتالف كل عينة من وقائع سنة ونحوها ، موزعة بفاصل عشر سنوات تقريبا ، بحسب توافر السجلات ، بدءا من عام ١٨٢٥ .

وتعني العينة الاولى بالمدة من ٧ رجب ١٢٤٠ الى ٧ رجب ١٢٤١ / ٢٥ شباط ١٨٢٥ الى ١٥ شباط ١٨٢٦ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٧) ، والعينة الثانية بالمدة من ٢٥ رجب ١٢٥٠ الى ٢٥ رجب ١٢٥١/ ٢٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ الى ١٨ تشرين الثاني ١٨٣٥ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٣٣) ، والعينة الثالثة بالمدة من غرة ربيع الاول ١٢٦٢ الى غرة ربيع الاول ٢٧/١٢٦٣ شباط ١٨٤٦ الى ١٧ شباط ١٨٤٧ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٩٢) ، والعينة الرابعة بالمدة من ٢١ محرم ١٢٧٩ الى ١٠ محرم ١٩/١٢٨٠ تموز ١٨٦٢ الى ٢٧ حزيران ١٨٦٣ (سجل محكمة الميدان رقم ٥٤٧) ، والعينة الخامسة بالمدة من ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ الى ١٦ ذي الحجة ١٢٩١

/٤ شباط ١٨٧٤ الى ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٥ (سجلا محكمة الميدان (الكبرى) رقم ٦٥٣ و ٦٥٤) .

البعد المكاني لمحلة باب المصلى :

اكدت الدراسات الحديثة لبعض المدن العربية ومنها دمشق(٩) ان الفعاليات الاقتصادية المتمركزة في الاسواق المتخصصة والتي تعتمد جزئيا على التجارة البعيدة، كالتوابل ، هي التي تشكل نواة المدينة . ويقوي من مركزية هذه الفعاليات وجود الجامع الرئيسي في المركز وما يلعبه من دور ثقافي وما يستدعي وجوده من نشاط اقتصادي . اما مقر الحاكم والقلعة فهما ثانويان في تقرير مركز المدينة بالرغم من انهما يستقطبان بدورهما نشاطا اقتصاديا ولكن من نوع خاص يرتبط بالاحتياجات العسكرية التي يوفرها في دمشق سوق تحت القلعة والسروجية وسوق الخيل ، وكذلك المقاهي حيث يتجمع العساكر . ونظرا لتمركز الفعاليات الاقتصادية الكبرى والنشاطات الدينية في مركز المدينة فان مساكن كبار التجار والعلماء تجاور اماكن الفعاليات هذه ، ثم تتلوها مساكن الحرفيين قرب فعالياتهم الحرفية . وتنتشر بيوت أصحاب الدخل المحدود عند النشاطات الاقل دخلا قرب السور وبوابات المدينة . وتخترق هذه المناطق باتجاه المركز شوارع رئيسية لتسهيل تسويق البضائع ونقلها . اما الضواحي حيث تمتزج النشاطات المدينية والريفية فيتكيف شكلها حسب موقعها ونشاطها التجاري ، وتغيب فيها الاسواق الرئيسية المتخصصة وتقتصر على فعاليات اقتصادية متنوعة معظمها للخدمات . وتعرف هذه الاسواق غير المتخصصة بالسويقة .

ومثلما تقرر الفعاليات الاقتصادية شكل المدينة فانها تقرر ايضا شكل الضواحي. فمحلة باب المصلى مثلا ، شانها شأن بقية اقسام الميدان ، تكيف شكلها بحكم موقعها والنشاطات الاقتصادية التي يقوم بها سكانها ، ولعبت دور الوسيط بين المستهلكين في المدينة والمنتجين في الريف .

ويحد محلة باب المصلى من الشمال جامع المرادية والسويقة المحروقة وحي المغاربة ، حيث خان المغاربة . وذكر احد الباحثين ان بابا من هذه الجهة كان يتحكم في الدخول الى المحلة ، وهو احدثلاثة ابواب يفتح ثانيهما على الشارع السلطاني في المحلة وثالثهما على الجهة الجنوبية الشرقية منها(١٠) . ولم يرد في سجلات محكمة الميدان الشرعية ذكر لهذه الابواب ربما لان اهتمام السجلات منصب على العقارات . وتشمل محلة باب المصلى من الجنوب زقاق المجتهد والنهاية الجنوبية لزقاق التيامنة ومنطقة القبة الحمراء . وفي حالتين من مئات الحالات التي حددت فيها سجلات محكمة

الميدان مواقع العقارات في محلة باب المصلى في فترة دراستنا ذكر موقع دار في محلة باب المصلى في زقاق الموصلي(١١) ، وموقع دار اخرى في محلة باب المصلى تجاه مقام سيدنا صهيب الرومي(١٢) . وكلا الموقعين يقعان في الميدان التحتاني ولكن الى الجنوب المباشر من منطقة القبة الحمراء التي تشكل النهاية الجنوبية من محلة باب المصلى.

وتنتشر محلة باب المصلى على طرفي الشارع الرئيسي المعروف بالسلطاني الذي يخترق الميدان بكامله ، وتتمركز حول جامع باب المصلى الذي يشكل المركز الرئيسي للانشطة الدينية فيه ومحور تجمع الفعاليات الاقتصادية في المحلة . وقد وجدت مراكز دينية اخرى في محلة باب المصلى مثل جامع سيدنا بشارة الى الشرق من الشارع السلطاني(١٣) ، وجامع العمرية بزقاق الاربعين(١٤) ، ومرقد سيدي عسقلان قرب جامع المصلى(١٥) . ولكن هذه المراكز تبقى ثانوية جدا بالمقارنة مع الدور الرئيس الذي لعبه جامع المصلى في حياة المنطقة .

ويشكل الشارع السلطاني الشريان الاقتصادي الرئيسي لمحلة باب المصلى اذ تنتشر على طرفيه البوايك (البوائك) المعدة لبيع الحبوب ، كما توجد الدكاكين التي تقدم الخدمات للريفيين ، مثل الحدادة والنجارة وحلج القطن وغيرها . ويوجد المسلخ في زقاق متفرع عن السلطاني في الجهة الشرقية ، ويؤكد وجوده المتاجرة بالاغنام بين الريفيين والسكان المحليين . والى جانب هذا التجمع الرئيسي للفعاليات الاقتصادية في الشارع السلطاني تقوم دكاكين الافراد او تجمعات منها في الازقة المختلفة وساحاتها لخدمة سكانها .

وتتوزع على جانبي الشارع السلطاني الازقة السكنية ، وتكون كثيفة بالاتجاه الغرب ، بين السلطاني وزقاق المخللاتي الموازي له تقريبا . اما في الشرق فتخف الكثافة الى حد كبير ، وتقل تبعا لذلك الازقة السكنية التي تحد من امتدادها الجنائن(١٦) المحيطة بالمصلى من الشرق وتلك التابعة للشاغور ، وكذلك تربة الباب الصغير(١٧) ، ولهذا تكثر في هذه الجهة البوايك الكبيرة التي تحتاج الى مساحات واسعة .

ولم يكن من الضروري انفتاح الازقة من طرفيها على كل من الشارع السلطاني وزقاق المخللاتي ، فقد تتصل بزقاق اخر ينتهي باحد هذين الطرفين . والقصد من ذلك ، كما يبدو ، سهولة الدفاع عن الازقة . ويقع معظم الازقة بموازاة بعضها البعض ويتفرع عن بعضها ازقة فرعية او دخلات غير نافذة تفيد في الامور الامنية وفي الحفاظ على خصوصية الحياة العائلية . وليس هناك من زقاق واحد يجتاز الشارع السلطاني ويستمر في الجانب الاخر منه .

وتذكر سجلات محكمة الميدان في العينـات التي قمنا بدراستها ثمانية وعشرين زقاقا ، بالاضافة الى الشارع الرئيسي السلطاني في محلة باب المصلى . والازقـة هي: أبو البرغل ، ابو مايلة ، الاربعين ، بادر ، البقارة ، البوشي ،البيطار،التركمان، التيامنة ، الجواني ، الحبالة ، حمد ، الحوارنة ، الزين ، سكر ، السمان ، الشعرية، عزام ، عسقلان ، القبة الحمراء ، القملة ، قولبة ، قويق ، المجتهـد ، المخللاتي ، المزرعـة ، النشار ، والوسطاني .

وبعض هذه الازقةرئيسي وما زال قائما وبعضها فرعي اندمج فيغيره. وتردمعلومات في السجلات توضح اماكن وقوع عدد من الازقة وتسمياتها الاخرى ، فزقاق الاربعين يجاور زقاق التيامنة ، وزقاق بادر يشار اليه احيانا بزقاق المصلى لقربه منه(١٨) ، وزقاق البقارة اشير اليه في عام ١٨٥٩ بزقاق البقارة الكبير(١٩) ، واستخدمت هذه الصفة في المخطط المرفق الموضوع نحو ١٩٣٤ ، مما يدل على توسع زقاق البقارة. ويجاور زقاق البيطار زقاق البقارة . ويتفرع زقاق حمد من زقاق بادر ، ويعرف زقاق الزين بزقاق جوبان(٢٠) نسبة الى بيت جوبان ، ولا تعرف اهمية هـذا الاسم. وينسب زقاق عسقلان الى مرقد سيدي عسقلان ويمتـد الى الشرق مـن الشارع السلطاني . وذكرت بركة سبيل سيدي عسقلان بالجوار(٢١) . واشير الى الزقاق الوسطاني بزقاق المصبنة .

ويلاحظ في الازقة اعلاه ان بعضها يرد ذكره لمرة واحدة في جميع العينات كما في زقاقي النشار وقولبة في العينة الخامسة (١٨٧٤ ــ ١٨٧٥) ، وزقاق قويق في العينة التي تسبقها (١٨٦٢ ــ ١٨٦٣) . وهناك ازقة مثل التركمان والشعرية وعزام والقملة وبعض المواقع في الشارع السلطاني تقع ضمن منطقة القبة الحمراء . وقد اندثرت هذه القبة اليوم ويعرف مكانها بالمخفر . وفي غياب الدراسات الطبوغرافية المتخصصـة تصعب معرفة الازقة التي اندمجت مع غيرها والازقة التي استحدثت .

ومما يلفت النظر تسمية بعض الازقة باسم قوم من الاقوام مثل زقاق التركمان أو باسم المنطقة التي اتى الناس منها مثل زقاق التيامنة المنسوب الى وادي التيم ، وزقاق الحوارنة . وهناك اكثر من زقاق للحوارنة الى دمشق . وتعرف بعض الازقة باسم الاسر مثل زقاق بني سكر وزقاق بني المجتهد حيث تكثر العقارات السكنيـة والتجارية لهاتين الاسرتين وبخاصة اوقافهما الذرية . والمخطط الملحق بهذه الدراسة يبين عددا من الازقة ولكنه لا يشكل حصرا لها ولا يذكر التعديلات التي طرات عليها .

ويبلغ عرض الزقاق الواحد بين ثلاثة وخمسة امتار . وتفصل بين الازقة دور

سكنية بسماكة تتراوح بين دارين وستة دور او اكثر ، كما يبين المخطط الملحق . وطبيعي ان الازقة لم تكن متماثلة من حيث عدد الدور وكثافة السكان فيها .

وتوجد في الزقاق الواحد دخلة او اكثر غير نافذة تعرف به وتفتح عليها ابواب الدور ، مثل الدخلة بزقاق ابو مايلة والدخلة بزقاق المجتهد (دخلة بني المجتهد) ، ودخلة اليابوسي بزقاق التيامنة ، ودخلة المشاعلي بزقاق الوسطاني(٢٢) . وذكرت الزبوقة (الزابوقة)(٢٣) ، وهي زقاق ضيق نافذ في الغالب . ولبعض الازقة ساحة مثل ساحة دورة اللوزة ، او دور اللوز ، بزقاق التيامنة(٢٤) ، والساحة بالقبسة الحمراء(٢٥) ، والساحة بزقاق الوسطاني(٢٦) وساحة الحبالة(٢٧) . ووجدت تلة في بعض الازقة مثل تلة بيت سويم في زقاق المخللاتي نسبة الى بيت ابي سويم في ذلك الزقاق(٢٩) . واشير احيانا الى تلة الزقاق كما في الزقاق الجواني(٣٠) . ويبدو ان للزقاق بابا يؤدي اليه بدليل ما ذكر عن باب الحبالة قرب دخلة زقاق ابو مايلة(٣١). ولم ترد معلومات اخرى عن ابواب الازقة .

وجاء ذكر الحارة ضمن الزقاق كما في العبارة التالية: الدار بزقاق التيامنة بحارة الجوانية(٣٢) ، وهذا يعني ان الحارة تفرع من الزقاق وربما دل ذلك على توسع الزقاق. وورد بالزقاق الجواني ذكر دار شيخ الحارة الى الشمال من دار جرى بيعها فيه(٣٣)، ولا نعلم ما اذا كان شيخ الحارة هنا هو شيخ الزقاق او شيخ الحارة المتفرعة عن هذا الزقاق . كما ذكر لقب شيخ الشباب (٣٤) دون تعريف مكاني ولا ندري اذا كان هذا اللقب يختص بحارة ام بزقاق ام بمحلة باب المصلى بكاملها أم انه مجرد لقب .

البنية الاجتماعية لمحلة باب المصلى :

يمكننا التعرف على الفئات الاجتماعية التي سكنت محلة باب المصلى من خلال عقود بيع وشراء العقارات السكنية فيها . وكانت الوحدة العقارية السكنية الاساسية هي الدار ، يليها مقسم الدار وهو قسم مفروز من الدار قائم بذاته ، ثم المربع وهو غرفة واسعة تشكل جزءا من الدار له استقلاليته السكنية ضمن اطار حين يباع على انفراد ، ونظرا لرخصه كان الراغبون فيه من غير الميسورين . وهناك الفرنكة ، وهي غرفة علوية اشبه بالمشرقة ، بيعت احيانا على انفراد .

وباستعراض الفئات التي اشترت او باعت افراديا العقارات السكنية كليا او جزئيا ، في محلة باب المصلى ، خلال الفترة ١٨٢٥ ـ ١٨٧٥ نتبين اية فئة اجتماعية أسهمت في شراء او بيع القارات اكثر او اقل من غيرها، من فترة الى اخرى. وسنلاحظ ذلك من خلال العينات الخمس التي انتقيناها من سجلات محكمة الميدان الشرعية .

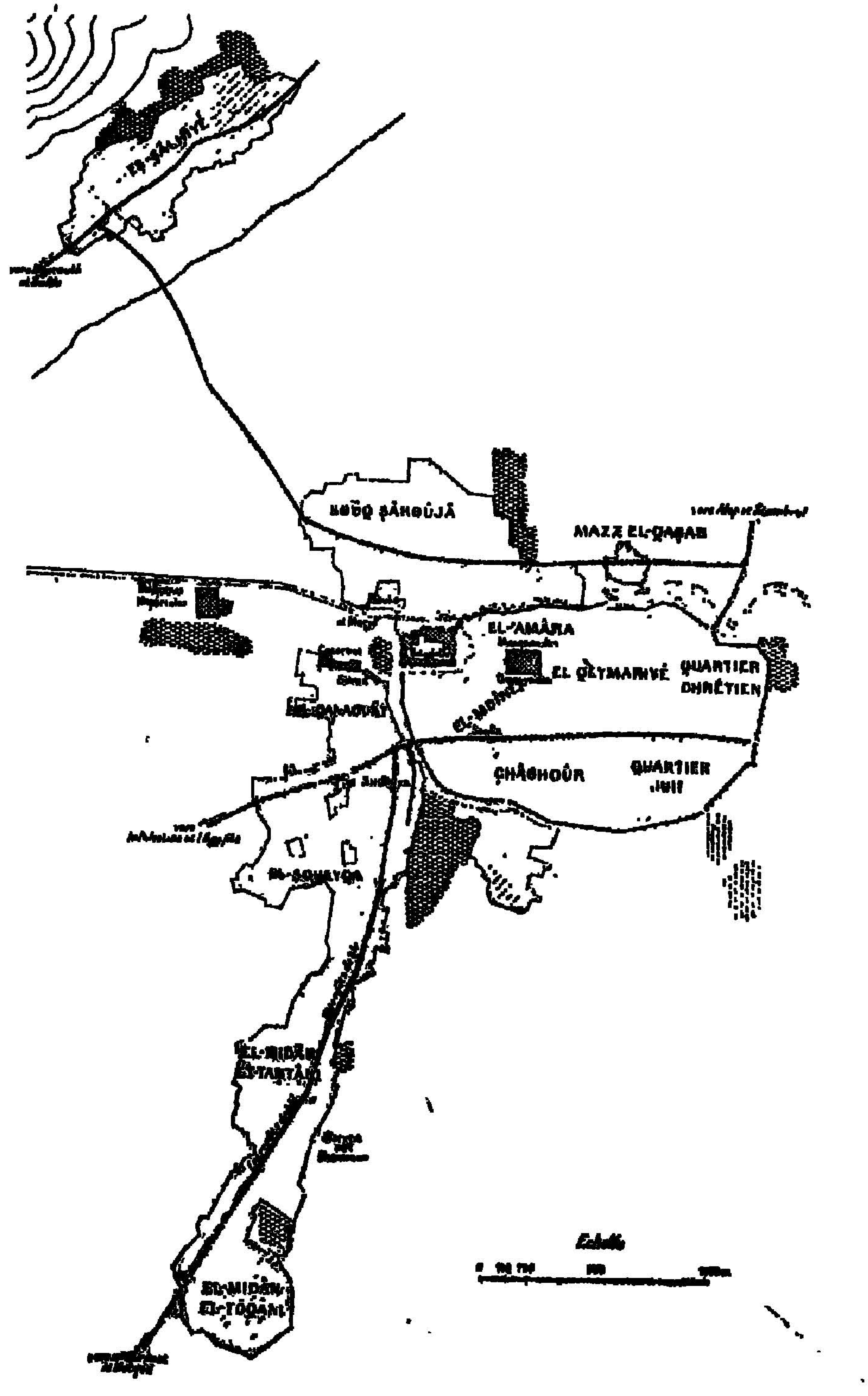

Damas au milieu du XIXe siècle.

J. Sauvaget, 'Esquisse d'une histoire de la ville de Damas', REI, IV (1934).

الفئات الاجتماعية المتداولة افراديا للعقارات
العينـة الاولى : ٧ رجب ١٢٤٠ ـ ٧ رجب

المشترون : ٤٠

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	١	٥٠ر٢٪	٢٤	٢٥ر٣٪	٥٦٥	٧٩ر١٪
حاج	١٥	٥٠ر٣٧	٢٧٣	٩٩ر٣٦	١٠٧٤١	٩٤ر٣٣
سيد (شريف)	٥	٥٠ر١٢	٨٧	٧٩ر١١	٣٩٦٠	٥١ر١٢
عسكري(آغا ،جربجي)	٤	٠٠ر١٠	٦٤	٦٧ر٨	٣٧٨٠	٩٤ر١١
عادي (بلا لقب)	٦	٠٠ر١٥	١١٠	٩١ر١٤	٣١٩٥	١٠ر١٠
نساء(٣منهن مسيحيات)	٧	٥٠ر١٧	١٤٤	٥١ر١٩	٦٤٤٥	٣٧ر٢٠
رجال مسيحيون	٢	٠٠ر٥	٣٦	٨٨ر٤	٢٩٦٠	٣٥ر٩
المجموع	٤٠	٠٠ر١٠٠	٧٣٨	٠٠ر١٠٠	٣١٦٤٦	٠٠ر١٠٠

السكنية ، كليا او جزئيا ، المقدرة بالقراريط
٢٥/١٢٤١ شباط ١٨٢٥ـ١٥ شباط ١٨٢٦

البائعون : ٤٠

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
—	—	—	—	—	—
١٣	٥٠ر٣٢٪	٢٤٢	٥٢ر٣٣٪	١١٠٠٩	٢١ر٣٣٪
٣	٥٠ر٧	٤٨	٦٥ر٦	٢٣٦٠	٢١ر٧
٣	٥٠ر٧	٥٢	٢٠ر٧	٢٧٢٠	٢١ر٨
٦	٠٠ر١٥	٩٥	١٦ر١٣	٢٩٤٠	٨٧ر٨
١١ (منهن مسيحية)	٥٠ر٢٧	٢١٣	٥٠ر٢٩	٨٦٣٦	٠٦ر٢٦
٤	٠٠ر١٠	٧٢	٩٧ر٩	٥٤٨٠	٥٣ر١٦
٤٠	٠٠ر١٠٠	٧٢٢	٠٠ر١٠٠	٣٣١٤٥	٠٠ر١٠٠

العينة الثانية : ٢٥ رجب ١٢٥٠ ـ ٢٥ رجب ١٢٥١

المشترون : ٧

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
حاج	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	٥٠٠	٩ر٠٠
عسكري	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	١٣٠٠	٢٣ر٤٢
عادي	١	١٤ر٢٨	١٢	٨ر٣٣	٣٠٠	٥ر٤١
نساء (منهن مسيحية)	٣	٤٢ر٨٨	٦٠	٤١ر٦٦	٢٨٥٠	٥١ر٣٥
رجال مسيحيون	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	٦٠٠	١٠ر٨٢
المجموع	٧	١٠٠ر٠٠	١٤٤	١٠٠ر٠٠	٥٥٥٠	١٠٠ر٠٠

/٢٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ ــ ١٨ تشرين الثاني ١٨٣٥

البائعون : ١٠

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
١	١٠ر٠٠	٢٤	١٣ر١٩	١٢٠٠	١٥ر٠٩
٧ (منهن مسيحية)	٧٠ر٠٠	١٢٨	٧٠ر٣٣	٥٢٥٠	٦٦ر٠٤
٢	٢٠ر٠٠	٣٠	١٦ر٤٨	١٥٠٠	١٨ر٨٧
١٠	١٠٠ر٠٠	١٨٢	١٠٠ر٠٠	٧٩٥٠	١٠٠ر٠٠

العينة الثالثة : غرة ربيع الاول ١٢٦٢ ــ غرة ربيع

المشترون : ٩

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	السنة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
حاج	٢	٢٢ر٢٢	٣٤	١٦ر٢٦	١٣٥٠	٨٨ر٢٢
عادي	٥	٥٦ر٥٥	٤٨	٩٢ر٣٦	٢٤٥٠	٥٣ر٤١
نساء	١	١١ر١١	٢٤	٤٦ر١٨	١٢٠٠	٤٣ر٢٠
رجال مسيحيون	١	١١ر١١	٢٤	٤٦ر١٨	٩٠٠	٢٥ر١٥
المجموع	٩	٠٠ر١٠٠	١٣٠	٠٠ر١٠٠	٥٩٠٠	٠٠ر١٠٠

الاول ١٢٦٣/٢٧ شباط ١٨٤٦ ـ ١٧ شباط ١٨٤٧

البائعون : ٦

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
١	٦٧ر١٦	٣	٠٣ر٣٪	٦٠٠	٩١ر١٧
—	—	—	—	—	—
٢	٣٣ر٣٣	٣٦	٣٦ر٣٦	١٤٥٠	٢٨ر٤٣
٣	٠٠ر٥٠	٦٠	٦١ر٦٠	١٣٠٠	٨١ر٣٨
—	—	—	—	—	—
٦	٠٠ر١٠٠	٩٩	٠٠ر١٠٠	٣٣٥٠	٠٠ر١٠٠

العينة الرابعة : ٢١ محرم ١٢٧٩ ــ ١٠ محرم

المشترون : ٢٢

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	٢	٩٫٠٩	٣٣	٧٫٧٨	٤٢٥٠	٣٫٦٧
حاج	٤	١٨٫١٨	٨٠	١٨٫٨٧	٢٥٥١٢	٢٢٫٠٥
سيد	٢	٩٫٠٩	٤٨	١١٫٣٢	٤٥٥٠٠	٣٩٫٣٢
عسكري	١	٤٫٥٥	٢٤	٥٫٦٦	١٢٠٠	١٫٠٤
عادي	٤	١٨٫١٨	٧٨	١٨٫٤٠	٦٧٥٠	٥٫٨٣
نساء	٢	٩٫٠٩	٢٨	٦٫٦٠	٣٣٠٠	٢٫٨٥
رجال مسيحيون	٧	٣١٫٨٢	١٣٣	٣١٫٣٧	٢٩٢٠٠	٢٥٫٢٤
المجموع	٢٢	١٠٠٫٠٠	٤٢٤	١٠٠٫٠٠	١١٥٧١٢	١٠٠٫٠٠

١٢٨٠/ ١٩ تموز ١٨٦٢ ـ ٢٧ حزيران ١٨٦٣

البائعـون : ٢٢

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
٢	٩ر٠٩	٤٨	١٠ر٨١	١٤٥٧٠	١٢ر٩١
١	٤ر٥٥	٨	١ر٨٠	٢٠٠٠	١ر٧٧
١	٤ر٥٥	٢٤	٥ر٤١	٣٧٥٠٠	٢٣ر٢٢
ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
٧	٣١ر٨١	١٥٠	٣٣ر٧٨	٢١٧٠٠	١٩ر٢٣
٩ (منهن مسيحية)	٤٠ر٩١	١٧٨	٨ر١١	٣١٦٠٠	٢٨ر٠٠
٢	٩ر٠٩	٣٦	٨ر١١	٥٥٠٠	٤ر٨٧
٢٢	١٠٠ر٠٠	٤٤٤	١٠٠ر٠٠	١١٢٨٧٠	١٠٠ر٠٠

العينة الخامسة : ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ ــ ١٦ ذي الحجة

المشترون : ١٦

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	٢	٥٠ر١٢	٢٥	٤٠ر١٠	٢٤٠٠(٣٥)	٩٠ر٥
حاج	٧	٧٥ر٤٣	٩٤	١٧ر٣٩	١٨٠٣١	٣٣ر٤٤
سيد	٢	٥٠ر١٢	٤١	٠٨ر١٧	١١٣٤٢	٨٩ر٢٧
عادي	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ
نساء(منهن مسيحية)	٥	٢٥ر٣١	٨٠	٣٣ر٣٣	٨٩٠٠	٨٨ر٢١
المجموع	١٦	٠٠ر١٠٠	٢٤٠	٠٠ر١٠٠	٤٠٦٧٣	٠٠ر١٠٠

١٢٩١ / ٤ شبـاط ١٨٧٤ ــ ٢٤ كانـون الثاني ١٨٧٥

البائعـون : ١٢

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
٢	١٦ر٦٧	٢٠	١٤ر٨١	٤٧٧٠	٢٨ر٠١
—	—	—	—	—	—
١	٨ر٣٣	٢٤	١٨ر٧٨	٣١٨٠	١٨ر٦٧
٤	٣ر٣٣	٢٢	١٦ر٣٠	٣٣٠٨	١٩ر٤٣
٥	٤١ر٦٧	٦٩	٥١ر١١	٥٧٧٠	٣٣ر٨٩
١٠٠ر٠٠	١٧٠٢٨	١٠٠ر٠٠	١٢	١٠٠ر٠٠	١٣٥

اعتمدنا في العينات التي اخترناها العقارات التي اشتراها او باعها افراد واهملنا العقارات التي شارك في شرائها او بيعها مجموعة من الشركاء ينتمي معظمهم الى اسرة واحدة كبيرة لان هذه العقارات ارثية بمعظمها . اما العقارات التي اشتراها افراد فهي اكثر دلالة على الفئات الاجتماعية التي كان بمقدورها ان تشتري او التي اضطرت الى البيع لعوامل مادية .

ويلاحظ ان اعداد المشترين والبائعين بلغت الحد الاقصى في العينة الاولى (١٨٢٥ ـ ١٨٢٦) ، وكانت متعادلة ، بواقع ٤٠ عقدا لكل فئة ، مما يدل على استقرار في السوق العقارية بين المشترين والبائعين وعلى عدم وجود محاولة لتجميع الثروة العقارية في ايد قليلة ، وهذا يعني ايضا ان نسبة الملكية المشاعة الى الملكية الفردية كانت متوازنة . وتضاءلت اعداد عقود الافراد في العينات التالية وبلغت ادنى مستوى لها في عينتي ١٨٣٤ ـ ٣٥و ١٨٤٦ ـ ٤٧ . ويبدو ان فرض الحكم المصري التجنيد الاجباري وقيام الثورات ضده منذ عام ١٨٣٤ ـ ٣٥ قد اوجدا حالة من الخوف وعدم الاستقرار جعلت الناس يحجمون عن توظيف راسمالهم .

كما ان التجنيد من شانه ان يحد من هجرة الريفيين الى المدينة لانهم يصبحون عندئذ تحت سلطة الدولة . وكانت دمشق منذ عام ١٨٤٤ تتعرض لمحاولات الجيش العثماني (النظام) احكام قبضته عليها في وجه مقاومة الاغوات من العسكريين المحليين وبخاصة اولئك في حي الميدان . وهذا ربما يفسر غياب الاغوات عن السوق العقارية خلافا لمساهمتهم فيه في العينة الاولى .

وتعود نسبة المشترين والبائعين من الافراد الى الارتفاع وبشكل متساو في العينة الرابعة (١٨٦٢ ـ ١٨٦٣) ، ابان فترة الهدوء التي اعقبت الاضطرابات الاجتماعية والطائفية في عام ١٨٦٠ . ويذكر القساطلي بهذا الخصوص « ففي سنة ١٨٦١ و ١٨٦٢ و ١٨٦٣ كانت الاعمال بها (دمشق) رائجة والمصنوعات جيدة والذهب كثير في ايدي الناس » (٢٦). ولكن نسبة المشترين والبائعين تتضاءل مجددا في العينة الخامسة (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥) ، ولعل احد اسباب ذلك الضيق الاقتصادي الذي لحق بدمشق بنتيجة الغلاء وهبوط اسعار الحرير وانحباس الامطار . ويعلق القساطلي الذي عاصر تلك الاحداث بقوله « واشتد الغلاء (١٨٧٣) .. وكان البعض ياكلون بقول الارض لفقرهم . وسنة ١٨٧٥ عاودها الهواء الاصفر واستقام شهرين فمات به تسعة الاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى »(٢٧) .

واذا كانت مشاركة الاغوات والجربجية العسكريين في السوق العقارية ، او

عدم مشاركتهم تتحكم بهما الاوضاع العسكرية وموقف الدولة العثمانية منهم ، فانهم تبعا لذلك يشكلون اقل الفئات الاجتماعية تعاملا في هذه السوق في العينات الخمس. اذ بلغ مجموع المشترين منهم ستة والبائعين ثلاثة ، وتليهم في ذلك فئة الشيوخ التي بلغ مجموع المشترين منها خمسة والبائعين خمسة . ويمكن تفسير ضآلة المتعاملين من الشيوخ في محلة باب المصلى بسوق العقارات بقلة من يحمل هذا اللقب في المحلة لانه لم توجد فيها مراكز دينية هامة ومتعددة ، وربما لم يكن رجال الدين من الشيوخ في محلة باب المصلى على قدر كبير من اليسر . ونلاحظ ان الشيوخ المذكورين في العينة الخامسة كانوا حصرا من المغاربة . وتلي فئة الشيوخ فئة السادة الاشراف الذين بلغ مجموع المشترين من بينهم تسعة والبائعين خمسة ، وربما تفسر قلة مشاركة هذه الفئة في السوق العقارية بطبيعة التركيب السكاني لمحلة باب المصلى التي ضمت تركمانا وريفيين وبدوا ومغاربة ممن لم يتوافر فيهم شرف النسب .ومع ذلكفان زيادة اعداد المشترين على البائعين بين الاشراف يدل على اتجاه نحو استقرار الاشراف في المحلة .

وتفوق فئة الحجاج الفئات الدينية والعسكرية الاخرى في مدى مساهمتها في السوق العقارية ، وتأتي في المرتبة الثانية بعد النساء في ذلك . وقد بلغ مجموع اعداد الحجاج المشترين للعقارات ٢٢ وهي اعلى نسبة ، كما ان مجموع البائعين من بينهم بلغ ١٤ مما يدل على توظيفهم المال في العقارات وعلى اتجاههم نحو التملك والاستقرار في محلة باب المصلى . ويفسر ذلك بعدة عوامل منها وقوع المحلة على طريق الحج ، وكون عدد من الساكنين في الميدان من اصول حورانية يزودون هم انفسهم ، او معارفهم في الريف ، قافلة الحج الشامي والقوات المرافقة لها بالجمال والمؤن ويرافقونها ايضا . وثمة عامل اخر وهو حمل كثير من المغاربة المقيمين في محلة باب المصلى لقب حاج .

ويشكل عامة الناس من غير ذوي الالقاب فئة معادلة لفئة الحجاج من حيث اعداد المتعاملين منهم في السوق العقارية مع بعض الفوارق الهامة ، فقد بلغ عدد المشترين منهم ١٦ والبائعين ٢٠ . وبالرغم من ان مجموع هذين العددين يساوي مجموع اعداد فئة الحجاج الا ان الاتجاه في الفئة الاخيرة كان نحو الشراء بنسبةبلغت ٦١٪ في حين ان نسبة المشترين في فئة العامة كانت ٤٤٪ ، اي انهم يبيعون باكثر مما يشترون ، وربما يفسر ذلك الاوضاع الاقتصادية المضطربة التي مرت بها دمشق انذاك . ومما يؤكد ذلك رخص اثمان العقارات السكنية التي اشتراها العاديون بالمقارنة مع الفئات الاخرى .

وكانت النساء من انشط الفئات الاجتماعية على الاطلاق في سوق العقارات السكنية ، فقد بلغ مجموع اعداد المشتريات منهن ١٨ والبائعات ٣٥ . وتفوق نسبة

البائعات منهن والبالغة ٦٦٪ نسبة أي فئة اجتماعية اخرى بين البائعين ، ويدل هذا على ان النساء كن يوظفن أموالهن في العقارات السكنية باكثر من العقارات الزراعية التي يصعب عليهن استغلالها . ويدل تعامل النساء في السوق العقارية بهذه النسب المرتفعة على أكثر من مجرد تصفية لحقوق ارثية لانهن في العينات اعلاه يبرزن كمالكات بمفردهن للعقارات التي اشترينها او بعنها . ويؤكد هذا ان النساء تمتعن بثروة ليست بقليلة مصدرها ارث أو عمل بيتي او مهر او نفقة او مجوهرات ، ويشير هذا الى استقلال النساء المالي ، وربما كانت تلك الصفات قد ورثتها الريفيات منهن من حياة الريف .

ويبرز المسيحيون ، رجالا ونساء ، في سوق التعامل العقاري السكني في المحلة ويشكلون الفئة الرابعة في هذا المجال بعد فئات النساء والحجاج وعامة الناس . وقد بلغ مجموع المشترين منهم ١٦ والبائعين ١١ ، ويدل هذا على اتجاه بينهم نحو الاستقرار في محلة باب المصلى .

ومما تجدر ملاحظته في العينات حجم العقارات السكنية المتداولة ، من حيث مجموع القراريط والاثمان ، بالنسبة لمختلف الفئات. فالنساء يبقين في الطليعة بالنسبة لمجموع القراريط التي تداولنها شراء وبيعا اذ بلغ ٩٨٤ قيراطا . وتليهم فئة الحجاج (٧٥٥ قيراطا) ، وعامة الناس (٥٧٥ قيراطا) ، والمسيحيين (٤٧٢ قيراطا) ، والسادة الاشراف (٢٧٢ قيراطا) والشيوخ (١٨٠ قيراطا) ، ثم العسكريين (١٦٤ قيراطا). ويتفق ترتيب هذه الفئات بالنسبة لحجم العقارات السكنية التي تداولتها مع ترتيبها بالنسبة لاعداد عقود الشراء والبيع التي سبق ذكرها .

ولكن الترتيب يختلف بالنسبة لاثمان العقارات المتداولة ، فاعلى المبالغ دفعها السادة الاشراف ومجموعها ١٠٣٨٤٢ قرشا ، أي ان سعر القيراط لديهم بلغ حوالي ٣٨١ قرشا مما يدل على ان نوعية العقارات السكنية التي امتلكها الاشراف ومواقعها كانتا متميزتين . ويلي الاشراف من حيث اثمان العقارات النساء اذ بلغ مجموع ما دفعنه ٧٥٢٥١ قرشا . ولكن سعر القيراط في هذه العقارات لم يتجاوز ٧٦ر٤٧ قرشا ، اي ان العقارات التي امتلكتها النساء كانت متواضعة موقعا وحجما ومحتوى . وتأتي في المرتبة الثالثة اثمان عقارات الحجاج والبالغة ٦٩٧٤٣ قرشا بواقع ٩٢ر٣٨ قرشا للقيراط . ويلي هؤلاء المسيحيون اذ بلغت اثمان عقاراتهم ٥٤٢٥٠ قرشا ، بما يعادل ١١٤ر٦٩ قرشا للقيراط الواحد . وبالرغم من ان عقارات عامة الناس بلغ مجموع اثمانها ٤٣٢٩٣ قرشا الا ان سعر القيراط منها البالغ ٧٥ر٢٩ قرشا يشكل ثاني ادنى نسبة في المجموعة ويقترب في ذلك من سعر قيراط عقارات الحجاج . وتتميز عقارات

الشيوخ عن العقارات الاخرى ، باستثناء عقارات الاشراف ، بان مجموع اثمانها البالغ ٢٧١٥٥ قرشا يجعل سعر القيراط منها ١٥٠ر٨٦ قرشا ، وهذا سعر متميز . وتأتي في ادنى السلم من حيث ثمن القيراط عقارات العسكريين اذ بلغ مجموع اثمانها ٩٠٠٠ قرش وسعر القيراط منها ٥٤ر٨٨ قرشا . ويدل هذا على فقدان هؤلاء العسكريين اهميتهم العسكرية في الدولة العثمانية التي كانت تدخل التحديث والاصلاح في الادارة .

البنية الاقتصادية لمحلة باب المصلى :

تتميز محلة باب المصلى بنوعين رئيسيين من الاعمال : التسويق والخدمات . اما الانتاج فيأتي في مرتبة ادنى وعلى نطاق ضيق كما يستدل من سجلات محكمة الميدان الشرعية . وطبيعي ان موقع الميدان والتركيب الاجتماعي لسكانه قد كيف الى حد كبير نمط الانشطة الاقتصادية فيه .

ويأتي في المرتبة الاولى من النشاط الاقتصادي تسويق الحبوب ، ويتم ذلك بمعظمه في البوايك التي تكثر في الشارع السلطاني ، وبخاصة على جانبي جامع المصلى وبقربه حيث تتسع الارض . ولكنها توجد ايضا بحجم اصغر في بعض الازقة . وتختلف احجام البوايك بحسب عدد الاقواس الحجرية التي توجد فيها والتي يستند السقف عليها ، فالبايكة الصغيرة تشتمل على اربعة جدر وسقف ومنافع ، والمعتدلة الحجم تتألف من اربعة جدر وسقف راكب على قوس حجر وباب ومنافع ، والكبيرة تمثلها البايكة المشتملة على خمسة اقواس حجر وسقف ومخزنين ومنافع ، وكانت تملكها الحرمة رقية بنت المرحوم خالد آغا قصاب باشي(٣٨) . ووصفت بايكة اخرى كبيرة واقعة تجاه زقاق المزرعة بانها معدة لبيع الحنطة ، وتشتمل على جدر وسقف راكب على فواصل حجرية وقواطع بايكية ومنافع(٣٩) . وقد تبنى على سطح (ظهر) البايكة طبقة علوية تضم غرفة يشار اليها باسم فرنكة تتألف من اربعة جدر وسقف وباب وشبابيك ، وهي ملحقة عادة بعقار مجاور قد يكون دارا او بايكة يصعد اليها منه بسلم (٤٠) .

وبالرغم من ان البايكة قد تحتوي على اكثر من نوع من الحبوب بدليل البايكة التي وصفت بأنها « معدة لبيع الاغلال »(٤١) فان بعضها تخصص ببيع سلعة معينة مثل البايكة المعدة لبيع الحنطة . وذكرت بايكة اخرى معدة لوضع القش وتشتمل على جدر وسقف وباب ومنافع(٤٢) . ويعرف صاحب البايكة بالبوايكي واشتهر باحتكاره الحبوب وبيعها بأضعاف ثمنها في غير مواسمها مما جعله ثريا ، كما انه يسلف الفلاح المال ويأخذ منه حصة كبيرة من الغلال ، ويحتال ايضا في وزن الغلال وكيلها(٤٣) .

وتستخدم بعض البوايك لا لتسويق الحبوب فحسب بل لا يواء الفلاحين وربط الدواب ، وقدوصفت أحداها ، وكانت وفقا اهليا لآل سكر وتقع تجاه جامع المصلى بانها « تشتمل على مقاليب ومخزنين وحوش معد لربط الدواب وحقوق ومنافع »(٤٤) . وطبيعي ان البايكة التي تضم مجمعا من الابنية كهذه لا ينتظمها سقف واحد لانها تشمل ارضا مكشوفة ، ومثال ذلك استئجار « جميع بياض وقرار ارض القطعة الارض الخالية من البناء والغراس الكائنة داخل البايكة » ، الجارية في وقف آل سكر في محلة باب المصلى بالقرب من الدار المعروفة بدار بني سكر(٤٥) . ويلفت النظر في هذه البايكة ابعاد قطعة الارض المستأجرة اذ بلغ طولها ٣٧ ذراعا وعرضها ٣٠ ذراعا بالذراع المتعارف عليه ، ولعله الاسلانبولي(٤٦) ، الذي كان طوله آنذاك ٦٨ر٥ سم(٤٧) . وتضم بعض البوايك ساحة سماوية كما هو الحال في بايكة الطوير بالشارع السلطاني بالقبسة البيضاء بالقرب من الفواص(٤٨) وبعضها يضم قسما مكشوفا واخر مسقوفا كالبايكة في محلة باب المصلى بزقاق الحبالة « المشتملة على ساحة بعضها مسقفة وبعضها سماوية واربعة جدر وسقف وباب ومنافع »(٤٩) .

ومن البوايك الاخرى التي اشارت السجلات الى اسماء اصحابها ومواقعها بايكة السيد خليل التقي التي اشير اليها اختصارا ببايكة التقي ، وتقع في الشارع السلطاني(٥٠)، وبايكة محمود آغا تلو ، وبايكة مصطفى تلو الواقعتين بالصف الشرقي من الشارع السلطاني(٥١) . وهناك بايكة بزقاق الاربعين ، واخرى بزقاق بادر ، وبايكة غربي القهوة خانة تجاه جامع المصلى وتعرف ببايكة الزريق(٥٢) . ويستدل من اسماء مالكي البوايك هؤلاء ان معظمهم من الاغوات العسكريين الذين احتكروا تقريبا تجارة الحبوب في محلة باب المصلى مستفيدين من سلطتهم العسكرية . وبعض التجار اصبح عسكريا ليحمي مصالحه الاقتصادية .

واذا كانت البايكة قد استخدمت اساسا لتخزين الحبوب وتسويقها فان انواعا اخرى من الابنية ، مثل المخزن والحوش والخان ، استخدمت لربط الدواب واحيانا لسكن اصحابها . فالمخزن وصف باستمرار بانه معد لربط الدواب وانه مؤلف من اربعة جدر وسقف وباب ومنافع . وفي مثال استخرج مخزن من دار بزقاق الاربعين قبل ان اوقفها صاحبها(٥٣) ، وفي مثال اخر حوّل مطبخ واوده (غرفة) في دار موقوفة بالشارع السلطاني الى مخزنين لربط الدواب(٥٤) . وذكرت مخازن اخرى احدها في القبة الحمراء ، واثنان في زقاق بادر (مخزن بيت قره ومخزن جامع المصلى)(٥٥) . ويستدل من ذلك ان المخازن معتدلة الحجم وموزعة على عدة جهات .

أما الحوش فيبدو أن تعديلات طرأت على استخدامه في فترة نصف القرن التي

نعالجها . فالحوش ، على نقيض المخزن ، لم يقتطع من دار وانما كان عقارا قائما بذاته في الغالب ، تجاوره ، كما في المخزن ، دور سكنية . وقد يشكل الحوش جزءا من البايكة . ويشتمل الحوش اساسا «على ساحة سماوية واربعة جدر وباب ومنافع» (٥٦)، واستخدم بصورة عامة لربط الدواب . وذكرت عدة احواش في فترة دراستنا في ازقة المخللاتي ، والوسطاني ، والقبة الحمراء ، والمجتهد . وعرف الحوش باسم صاحبه او اسرته مثل حوش عبد الحق ، وحوش الكحيل ، وحوش بني المجتهد وحوش بني سكر (٥٧) . ويلاحظ تبدل في استعمال الحوش من ربط الدواب فيه اساسا ، كما في الامثلة السابقة ، الى اقامة السكان في بعض الاحواش بعد بناء غرف فيها . وتكثر الامثلة على هذا التبدل في الاستعمال بعد احداث عام ١٨٦٠ حين لجأ عدد من المسيحيين من جبل لبنان وحتى من داخل دمشق الى الميدان ، بما في ذلك محلة باب المصلى ، حيث وجدوا المأوى والامن نظرا لسلامة هذه الاماكن من الفتنة . ففي قضية تتعلق بأوقاف آل سكر عرضت على محكمة الميدان في ٢٣ جمادى الثانية ١٢٧٦ / ١٧ كانون الثاني ١٨٦٣ ، وصف حوش في وقف آل سكر بزقاق البقارة بانه « المشتمل على ثلاث مربعات سكن النصارى» (٥٨) ، كما أن حوش الكحيل بالقبة الحمراء ضم دارا تشتمل على ساحة سماوية ومربعين ومطبخ ومرتفق ومنافع كان يملكها مسلمون، ولم تذكر هوية سكانها (٥٩) .

وعلى نقيض البوايك والمخازن والاحواش التي كثرت اعدادها في محلة باب المصلى، كانت الخانات اقل عددا ولكن اكثر ارتباطا بتجارة الحبوب وما يتعلق بها منها بتجارة الاقمشة او التوابل مثلا ، كما هو الحال في عدد من الخانات داخل دمشق . وقد ذكر خان ابو خليل الدقاق في الشارع السلطاني لصيق قهوة الاوظن ، وخان ابو جوف بجوار بايكة ابن التقي في الشارع السلطاني ، وخان يملكه فارس آغا تلو في الصف الشرقي من الشارع السلطاني . كما ذكر خان الفاخورة في الزقاق الجواني (٦٠) وخان بني المجتهد (٦١) . وكان اكثر الخانات ذكرا خان داود الدوماني المعروف ايضا بخان الحدادين ، ويقع في زقاق التيامنة وقد وصف بأنه « المعد لربط الدواب المشتمل كامله على ساحة سماوية بها بركة ماء ناهدة وبايكتين وثلاثة اود وسلم حجر يصعد منه الى مشرقة بها ثلاث اود ومنافع » (٦٢) .

وعرف مكان بيع الخشب ، وهو الاخر ضروري للفلاحين ، بالحاصل . وذكر حاصل الشيخ عمر افندي المجتهد بالسلطاني في عام ١٨٢٥ ، وبعد حوالي خمسين سنة ، في ١٨٧٣ ، باع الشيخ محمد سعيد افندي المجتهد ابن عمر افندي لشخص اخر في الاسرة ١٣ قيراطا وثلي قيراط من « جميع الحاصل المعد لبيع الخشب والايتون داخله » بسعر ٥٠,٠٠٠ قرش (٦٣) . ومما يلفت النظر تداول اسرة المجتهد لهذا

الحاصل لمدة طويلة ودفع هذا الثمن الباهظ الذي يساوي آنذاك ثمن عدة دور متوسطة الحجم لشراء اقل من ثلثي الحاصل ، مما يدل على ان تجارة الخشب كانت تدر ارباحا كبيرة على اسرة المجتهد التي بلغ من نفوذها الاسروي والديني(٦٤) والمالي ان عرف احد الازقة في محلة باب المصلى بزقاق المجتهد .. ويؤكد قاموس الصناعات الشامية(٦٥) ان حرفة الحواصلي تثرى كثيرا . وكانت اسرة المجتهد صاحبة اوقاف اهلية كثيرة .

ويلفت النظر احتواء حاصل آل المجتهد على ايتون (اتون اي تنور) لصناعة الكلس بحرق «احجار مخصوصة»، وينسجم هذا معمايقوله القاسمي من ان الحواصلي، صاحب الحاصل ، قد يقيم اتونا في حاصله . وذكر اتون اخر بزقاق بادر يملكه الحاج انيس اغا سكر وهو من كبار تجار الحبوب واصحاب الاوقاف الاهلية ، وقد اشتراه منه ، في ١٣ نيسان ١٨٦٣ ، الخواجة الياس ابن الخواجة ابراهيم الصارجي بثمن مقداره ٤٥٠٠ قرش ، ووصف هذا الاتون بمناسبة بيعه بانه يشتمل على «جورة وتنور لطبخ الكلس ومتبن وساحة سماوية ومنافع »(٦٦) .

ومن مراكز الخدمات التي توزعت في انحاء محلة باب المصلى الافران التي ذكرت السجلات منها ثلاثة : واحد بزقاق الوسطاني ، واخر بزقاق التيامنة ، وثالث بزقاق بادر . وذكر حمام واحد هو حمام سنقر بالشارع السلطاني بالصف الغربي ، وربما استعمل السكان حمامات مجاورة في السويقة والميدان التحتاني . كما ذكرت ثلاثة مقاهي (قهوة خانة) واحد تجاه مصلى العيدين بالصف الغربي ولعله قهوة الاظن ، واخر عرف بقهوة المجتهد في الشارع السلطاني بالصف الشرقي ، وثالث عرف بقهوة الوسطانية ، ولعله بزقاق التيامنة ، وقد وصف بانه يشتمل على اربعة جدر ومساطب مستديرة واوجاق معد لطبخ القهوة ومصيف براني وسقف وباب ومنافع(٦٧) . كما ذكرت طاحون الارامل في محلة باب المصلى « ويشمل كاملها على اربعة جدر وسقف وباب وحجر واحد مطبق معد لكسر الفلال ومخازن منها لوقف الحرمين »(٦٨) .

ووجدت في محلة باب المصلى دكاكين متفرقة في الازقة لتصنيع المنسوجات مثل الالاجة وهي قماش مقلم مصنوع من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى ، ولهذا كان سعره مرتفعا لغلبة نسبة الحرير فيه . وذكرت احدى دكاكين صناعة الالاجة في زقاق المخللاتي وضمت ستة انوال ، وقد باعها اصحابها المسيحيون الى احد الاغوات المسلمين في عام ١٨٢٦ ، وذكرت دكان اخرى لصناعة الالاجة بزقاق التيامنة اشتراها في عام ١٨٥٩ الخواجة جريس ابن الخواجة يوسف العيسي والخواجة عبد الله ابن الخواجة ميخائيل برصة سوية بينهما من الحاج مصطفى ابن الحاج خليل الزريق ،

واشتملت على اربعة انوال ومطاوى ورفوف وارواس ومنافع(٦٩) . واشترى شخص بمفرده جميع عمارة وبناء الدكان بزقاق الجواني المعدة لنسيج العبي المشتملة على اربعة جدر وسقف وباب وشبابيك وخمسة انوال مع عددهم(٧٠) .

ويلاحظ في هذه الامثلة توزع المشاغل النسيجية في الازقة ، وملكيتها من قبل شخص واحد في الغالب مما يدل على الفردية في العمل . واذا كان المالك اكثر من شخص فتلك حالة ارثية في الغالب . وانتقلت ملكية هذه المشاغل بين السكان المحليين بقطع النظر عن مذاهبهم ، أي ان النسيج لم يكن مختصا بطائفة دون اخرى . والمثال الاخير الذي نص فيه على شراء عمارة وبناء الدكاكين يوحي ان عقد الشراء لم يشمل عدة الدكان ، أي انوال نسيج العبي وملحقاتها ، المعبر عنها بالكدك ، ولا حق استعمال الانوال في الدكان نفسها المعبر عنه بالخلو . ويمكن شراء كدك وخلو الدكان معا او منفردين دون عمارة وبناء الدكان(٧١) . واذا كانت ارض الدكان وقفا لاتباع ويمكن بيع العمارة والبناء وكذلك الكدك والخلو مجتمعين او منفردين . وتنص العقود بدقة عادة على ما يشترى . وحين يذكر شراء جميع الدكان فذلك يعني الارض والعمارة دون العدة وحق استعمالها اللذين يجب ان ينص عليهما(٧٢) .

وتدل كثرة عرض دكاكين النسيج ، بما في ذلك كدكها وخلوها ، للبيع وانتقال ملكيتها بين الناس خلال فترات قصيرة على الازمة التي لحقت بصناعة النسيج الشامية خلال القرن التاسع عشر ، وبخاصة صناعة الالاجة المتميزة ، بفعل منافسة البضائع الاوربية لها ، في السعر والجودة وتقليد النماذج المحلية(٧٣) . وبلغ من سيطرة الرأسمالية الاجنبية ان معظم العقارات في محلة باب المصلى في العينة الخامسة (١٨٧٤ — ١٨٧٥) بيع بالليرات الذهبية الفرنساوية العين (أي غير المثقوبة)(٧٤) ، مما يدل على انهيار قيمة الوحدة النقدية المحلية وهي القرش وعدم الثقة بها .

ويقع اكبر تكتل للدكاكين متنوعة الاختصاص في محلة باب المصلى على جانبي الشارع السلطاني ، في الصفين الشرقي والغربي منه ، فهناك دكاكين لصنع الجلالات (ما يوضع على ظهر الدواب) والشعارة (ضفر الشريط ووضعه في اطار على الابواب) والسمكرية (صنع ادوات التنك ولحمها) ، والحياكة ، والخضرية ، والبندقجية (تصليح البنادق) وغيرها . ومما يلفت النظر ان عددا من الدكاكين كان وقفا خيريا مرصدا على جامع المصلى او على الحرمين الشريفين .

وباستعراض انواع الحرف التي لحقت باسماء الاشخاص الساكنين في محلة

باب المصلى ، سواء مارسوها بأنفسهم ام ورثوها عن ابائهم ، نتبين طبيعة الاعمال التي كانت تمارس في المحلة على مستوى الانتاج والتسويق والخدمات ، والتي ارتبطت بمعظمها بتسويق الحبوب ، وانتاج مستلزمات الريفيين ، وتقديم الخدمات . فهناك من تلقب بالجمال والخاناتي والقباني والمغربل وابو البرغل والطحان والخولي (له خبرة بالفلاحة والانتاج) ، ويعني هؤلاء بالحبوب ، ومن تلقب بالجليلاتي والبرادعي (صانع الغطاء لظهر الدابة) والبيطار ، والزرابيلي (صانع الزربول وهو مداس سميك للفلاحين)، والصرماياتي والبسطاطي ، ويهتم هؤلاء باحتياجات السكان المحليين والريفيين . كما وجد حرفيون اخرون لخدمة السكان المحليين والريفيين على حد سواء مثل العكام (الذي يقود الجمال وبخاصة الى الحج) والمشاعلي (الذي يحمل المشعل لمرافقة الحجاج) والشعال (الذي يشعل قناديل المحلة) والبواريدي والبندقجي والمسالخي والقصاب باشي والدباغ . ووجدت القاب تدل على صناعة النسيج مثل الحريراتي والصباغ والملقي (الذي يهيء الحرير للحايك) والالاجاتي والفرا (الذي يبيع الفرو ويصنع منه الفروات) . وهناك تسميات اخرى مثل النحاس والمبيض والحجار والدكاك (يبني الحائط من الدك اي التراب المضغوط) والدهان والقزاز والقضماني والمحمص والنشواتي واللحام والخباز والزبال(٧٥) .

وباستعراض اسماء الاشخاص الذين لحقت بهم هذه الالقاب الحرفية واسماء الازقة التي سكنوها لا نجد ان زقاقا ما اقتصر على ساكنين من حرفة واحدة او من حرف متقاربة ، اي انه لم يكن هناك فرز للازقة على اساس حرف اصحابها ، بل ضم الزقاق خليطا من السكان من كل حرفة . ونظرا لكون دخول هذه الحرف تتفاوت، كثرة او قلة ، حسب نوع الحرفة فهذا يعني ان ساكني الزقاق كانوا من مستويات مادية مختلفة يتعايشون معا في اندماج اجتماعي متسامح .

وعلى صعيد اخر لعبت السوق العقارية دورا نشطا في الحياة الاقتصادية لمحلة باب المصلى ، ووظفت فيها مبالغ كبيرة من المال اذا ما قيس ذلك باسعار الاراضي الزراعية في منطقة دمشق انذاك ، واسعار السلع المختلفة واسعار الحيوانات التي توردها سجلات المحاكم الشرعية وكتابات الاخباريين وتقارير القناصل الاجانب وغيرها. ونلاحظ في العينات الخمس شراء عدد من العقارات السكنية من قبل الاشخاص انفسهم ، ثم بيعهم لبعضها في اوقات مختلفة . وبرزت النساء بشكل ملحوظ في شراء العقارات الكاملة والجزئية لان في ذلك توظيفا مضمونا للمال فيها . ويمكننا رصد مجموع المبالغ الموظفة في السوق العقارية في كل عينة ، ووسطي سعر القيراط ، والتبدلات التي طرات عليها ، على ضوء الوضع الاقتصادي العام ، من خلال الجدول التالي :

عقود بيع وشراء العقارات السكنية عموما بمحلة باب المصلى

العينة	عدد العقود	مجموع القراريط	مجموع الاثمان	وسطي سعر القيراط (بالقروش)
١٨٢٥ ـ ٢٦	٥٠	٩٣٦	٤٣٦١٨	٦٠ر٤٦
١٨٣٤ ـ ٣٥	١٣	٢٥٤	١١٣٥٠	٦٩ر٤٤
١٨٤٦ ـ ٤٧	١١	١٧٨	١٠٣٣٥	٠٦ر٥٨
١٨٦٢ ـ ٦٣	٢٤	٤٩٠	١٢٤٩١٢	٤٠ر٢٥٤
١٨٧٤ ـ ٧٥	١٧	٢٨٣	٥٥٤٤٢	٩١ر١٩٥
المجموع	١١٥	٢١٤١	٢٤٥٦٥٧	٦٩ر١١٤ الوسطي العام

ويلاحظ في وسطي سعر القيراط تراجعا ضئيلا في العينة الثانية ، ابان الحكم المصري، ثم ارتفاعا بحوالي الثلث في العينة الثالثة ، وربما نجم عن انخفاض سعر القرش واضطراب الوضع الاقتصادي بتأثير منافسة البضائع الاوربية. وتبلغ الزيادة في وسطي سعر القيراط أعلى مستوى لها في عينة ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ ، ومرد ذلك انخفاض سعر القرش بالنسبة للنقد الذهبي وبخاصة العملات الاوربية الذهبية التي سيطرت على السوق النقدية المحلية (٧٦) ، وكذلك ارتفاع اجور البنائين ومواد البناء انـذاك(٧٧) ، بالاضافة الى كثرة الطلب على شراء العقارات في المحلة ، وبخاصة من قبل المسيحيين في أعقاب احداث عام ١٨٦٠ . ثم يعود وسطي سعر القيراط في العقارات السكنية الى الانخفاض في العينة الخامسة بسبب الموسم السيء وغلاء أسعار الحبوب والاوضاع الاقتصادية السيئة بصورة عامة بشهادة القساطلي صاحب « الروضة الغناء » الذي عاصر تلك الاحداث(٧٨) .

وبالاستناد الى تفاصيل العقود التي بني عليها الجدول السابق تبرز ثلاثة ازقة في محلة باب المصلى استقطبت حوالي نصف عقود بيع وشراء العقارات السكنية في العينات الخمس كما يبين ذلك الجدول التالي :

الازقة الرئيسية في سوق التعامل بالعقارات السكنية

الزقاق	عدد العقود	النسبة للمجموع العام	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
القبة الحمراء	٢٢	١٣ر١٩٪	٤١٦	٤٢ر١٩٪	٢٣٠٣١	٣٧ر٩٪
الوسطاني	١٩	٥٢ر١٦	٣٣٧	٧٣ر١٥	٢٩٦١٠	٠٥ر١٢
التيامنة	١٦	٩١ر١٣	٢٦٥	٣٧ر١٢	٤٣٤٧٨	٧٠ر١٧
المجموع	٥٧	٥٦ر٤٩	١٠١٨	٥٢ر٤٧	٩٦١١٩	١٢ر٣٩

يلاحظ في الجدول اعلاه ان منطقة القبة الحمراء التي اشتملت على ازقةالتركمان والشعرية وعزام وبعض العقارات في الشارع السلطاني ضمت اكبر نسبة من عقود البيع وتقدر بـ ١٣ر١٩٪ ولكنها بالمقارنة مع الزقاق الوسطاني وزقاق التيامنة اللذين يلياها في عقود البيع والشراء تشكل اثمان العقارات فيها اقل نسبة في الازقة الثلاثة في حين ان التيامنة تشكل فيها الاثمان اعلى نسبة بالرغم من النسبة المتدنية لعدد عقود البيع والشراء فيها . ويدل هذا على اختلاف سعر القيراط السكني من منطقة الى اخرى ، وسندرس دلالة ذلك بالنسبة لنوعية الساكنين ومستوياتهم في الازقة عموما في فترة الاندماج بين فئات السكان .

وكان للوقف بانواعه دور هام في الحياة الاقتصادية لمحلة باب المصلى . وكان عدد كبير من العقارات التجارية والزراعية والسكنية ، كالبوايك والدكاكين والجناين وقطع الاراضي والدور اما وقفا خيريا مرصدا بمعظمه على جامع باب المصلى او على الحرمين، أو وقفا أهليا « ذريا » تستفيد منه بخاصة بعض الاسر الكبرى ، مثل آل سكر وآل المجتهد . ويصعب احصاء نسب الاوقاف الخيرية الى الاوقاف الاهلية في العيناتالتي قمنا بدراستها بغية معرفة تبدل النسب بين نوعي الاوقاف هذين على مر الزمن . والمعروف في تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني ان القرن السادس عشر الذي شهد اهم واكثر المنجزات العثمانية الخيرية كالجوامع التي بناها ولاة عثمانيون مشهورون شهد كذلك ايقاف أهم نسبة من الاوقاف الخيرية لفائدة هذه الابنية . ثم انعكس الامر بدءا من القرن الثامن عشر حين ازدادت نسبة الاوقاف الاهلية بتحويل كثير من الولاة والاغنياء املاكهم الى اوقاف اهلية لتحاشي مصادرة الدولة لها . كما يصعب معرفة

نوعية الوقف في عدد من العقارات ، وبخاصة الدور السكنية ، في محلة باب المصلى لان سجلات محكمة الميدان الشرعية اكتفت بالقول احيانا ان العقار الفلاني وقف دون ان تعين هوية هذا الوقف او الجهة الموقوف عليها . وهناك ايضا تخصيص جزء من اجرة ارض موقوفة شيد عليها بناء ملك ، لصالح وقف خيري . وبالرغم من هذا الغموض في قضايا الوقف يمكن معرفة نسبة العقارات الموقوفة اطلاقا الى غير الموقوفة في كل عينة وذلك بدراسة اعداد العقارات على اختلاف انواعها ، المبيعة كليا او جزئيا ، والمؤجرة ، وتلك التي عرض امرها على المحكمة لاي سبب كان ، او التي ذكرت كحدود لهذه العقارات من جهاتها المختلفة .

نسبة عقارات الملك الى الوقف في محلة باب المصلى

العينة	العقارات السكنية		العقارات التجارية		العقارات الزراعية	
	ملك	وقف	ملك	وقف	ملك	وقف
١٨٢٥ – ٢٦	١٨٢	٥	١٣	٤	٢	–
١٨٣٤ – ٣٥	٧٦	–	٦	–	٢	١
١٨٤٦ – ٤٧	٤٠	٣	١٣	٩	–	١
١٨٦٢ – ٦٣	٩٧	٧	٢٧	١٦	٢	٤
١٨٧٤ – ٧٥	١٠١	٨	٢٠	٢	٥	١
المجموع	٤٩٦	٢٣	٧٩	٣١	١١	٧

يتبين من الاحصاء اعلاه ان عقارات الملك ، على أنواعها ، بلغت ٥٨٦ عقارا ، وعقارات الوقف ، بنوعيه الخيري والاهلي ، بلغت ٦١ عقارا ، أي ان نسبة عقارات الوقف الى مجموع العقارات هي ٩٫٤٣٪ في حين ان نسبة عقارات الملك تبلغ ٩٠٫٥٧٪ ولا يمكننا الحكم بقلة او كثرة هذه النسب الا بعد اجراء دراسات مماثلة لمحلات اخرى في دمشق في الفترة ذاتها . ومع ذلك نستدل من هذه النسبة الكبيرة لعقارات الملك انه بالرغم من حداثة عدد كبير من الاسر في محلة باب المصلى ، وهجرة السكان المستمرة اليها من مختلف الانحاء وتشكلهم من عناصر بشرية متنوعة ، وربما ضآلة دخلهم ، فان الاتجاه هو نحو التملك والاستقرار في المحلة . كما أن قلة الابنية الدينية في المحلة

وعدم اهميتها بالمقارنة مع مثيلاتها داخل دمشق وفي اماكن اخرى ظاهرها ، باستثناء جامع المصلى ، يفسر بدوره قلة الاوقاف الخيرية في المحلة . والملاحظ ان العثمانيين لم يبنوا اية جوامع في محلة باب المصلى، على غرار جامعي الدرويشية والسنانية وحتى جامع المرادية الذي هو على مشارف محلة باب المصلى ، ولم يبنوا كذلك اية ابنية هامة فيها ذات نفع عام او خاص ، وبالتالي لم تكن هناك من حاجة لايقاف الاوقاف من قبلهم بأي مقدار لصالح المحلة .

ولم تكن اكثرية العقارات الموقوفة في محلة باب المصلى والبالغة ٦١ عقارا وقفا خيريا فقد كان معظمها وقفا اهليا تستفيد منه بضع اسر كبرى في طليعتها آل سكر وآل المجتهد ، كما ضم اوقافا لصالح الحرمين ، ويبين الجدول التالي نسب هذه الاوقاف :

نسب الاوقاف في محلة باب المصلى

انواع العقارات	اوقاف خيرية	اوقاف ذرية
سكنية	١٢	١١
تجاريــة	١٣	١٨
زراعيــة	٤	٣
المجموع	٢٩ (النسبة ٥٤ر٤٧٪)	٣٢ (النسبة ٤٦ر٥٢٪)

ويمكن تقسيم الاوقاف الخيرية الـ ٢٩ هذه الى ثلاث فئات من حيث الجهات المستفيدة منها كما يبين ذلك الجدول التالي :

الجهات المستفيدة من الاوقات الخيرية بانواعها في محلة باب المصلى

انواع العقارات	جامع المصلى	الحرمين الشريفين	غير معروف
سكنية	٤	٢	٦
تجارية	٥	٣	٥
زراعية	٣	—	١
المجمــوع	١٢	٥	١٢=٢٩

بالنسبة للاوقاف التي لا تعرف الجهة التي اوقفت عليها لا يعرف كذلك فيما اذا كانت تلك الجهة او الجهات واقعة بمحلة باب المصلى ام خارجها . وهناك امثلة عن حكر وقفي لم ندرجه في الجدول مثل حكر بعض الدور السكنية التي كانت ارضها وقفا وعمارتها ملكا ، وخصص حكر ارضها لجهة خيرية معينة . مثال ذلك الدار بزقاق الجواني التي كان على ارضها من الحكر كل سنة خمسة مصاري (أي ثمن قرش) لجهة وقف مدرسة الشامية البرانيةبدمشق (٧٩) ، ودار اخرى في الزقاق ذاته كان على ارضها كل سنة عشرون مصرية بطريق الحكر لجهة المدرسة ذاتها(٨٠) . ومثال اخر عن دار في زقاق الوسطاني كان على ارضها من الحكر كل سنة خمس عشرة مصرية لجهة المدرسة نفسها(٨١) . ولم يرد تخصيص حكر لاية جهة اخرى سوى هذه المدرسة . والمعروف ان مدرسة الشامية البرانيةفي دمشق هي من مدارس الشافعية، ولا نعلم المذهب السائد في محلة باب المصلى آنذاك ، علما ان المغاربة الموجودين في المحلة بكثرة هم مالكية .

وبالنسبة لاوقاف جامع المصلى فقد ذكر الشيخ عبد القادر بدران (المتوفي سنة ١٣٤٦ هـ) وهو المعروف بتتبعه لقضايا الاوقاف ، ان جامع المصلى لم يتهيأ له وقف(٨٢) ، وربما قصد وقت انشائه في عام ٦٠٦ /١٢٠٩ . ويدل وجود أوقاف لهذا الجامع في فترة دراستنا على انه اكتسبها بالتدريج ، او ربما لم يعثر الشيخ بدران في زمنه على اوقاف له . ومما يلفت النظر ان احدى الدور الواقعةفي الشارع السلطاني وصفت في سجل محكمة الميدان بتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠/٤ شباط ١٨٧٤ بانها جارية بوقف جامع المصلى قديما والان سكن الشيخ النجار(٨٣) . وربما دل هذا على ان جامع المصلى خسر هذا الوقف بطريق الاستبدال او الاستيلاء(٨٤) . ونظرا لسوء التصرف بالاوقاف آنذاك نظمت الدولة العثمانية ، في فترة التنظيمات ، أمور الاوقاف في دمشق . وذكر في عام ١٨٦٢ ان مدير اوقاف الشام آنذاك شهد بالتصديق على بيع كدك وخلو عائدين لدكان وقف في محلة باب المصلى(٨٥) .

وكان الناظر على وقف جامع المصلى في عام ١٨٣٤ السيد محمد البغدادي القادري، والمتولي هو السيد ابراهيم القباني ، ويبدو ان الوقف آنذاك كان فيه دخل فائض شري منه للوقف بايكة وجنينة في زقاق المصلى (زقاق بادر)(٨٦) . وبعد حوالي ربع قرن منذلك ذكر ان متولي وقف جامع المصلى هو محمد آغا ابن ابراهيم آغا القباني بموجب براءة سلطانية(٨٧) .

أما اوقاف الحرمين في محلة باب المصلى فكان المسؤول الاعلى عنها محمد امين افندي ابن المرحوم احمد افندي الاسلانبولي المتولي على اوقاف الحرمين بعامة ، وكان

وكيله في محلة باب المصلى في عام ١٨٤٦ حسين آغا ابن علي آغا القرحصار . وذكر وكيل اخر لهفي العام التالي هو محمود آغا ابن السيد احمد جلبي شيخ الارض(٨٨).

واشتهر من الاوقاف الاهلية من الناحية الاقتصادية اوقاف آل سكر وآل المجتهد . وكانت هذه الاوقاف في اساس ثروة هاتين الاسرتين . وكانت اسرة سكر تركمانية الاصل عسكرية المنشأ برزت من خلال طائفة الانكشارية اليرلية ، وتنتسب الى جدها الامير حسن آغا التركماني الذي اشتهر بين انكشارية دمشق في الربع الاول من القرن السابع عشر(٨٩) . وبقي افراد اسرة سكر يحملون القاب آغا وجربجي العسكرية بالرغم من انهم تحولوا الى تجار للحبوب في الميدان واطلق على عدد منهم لقب عمدة التجار الى جانب لقب آغا . وكان على افراد اسرة سكر ، في فترة دراستنا، النظر والتكلم على اربعة اوقاف اهلية كبرى : وقف جدهم الامير حسن آغا التركماني ، وجدهم محمد آغا شوباصي(٨٢) ، وجدهم الخواجة ابراهيم البيطار ، وجدتهم صالحة قادن بنت المرحوم حسين بشه الارنوط (أي الارناؤوط)(٩٠). واشتملت هذه الاوقاف على بوايك ومقاه وأراضي ودكاكين ودور .

وبرزت اسرة المجتهد بالنسبة لحجم الاوقاف الاهلية التي استغلتها . وبالرغم من صفات العلم والمشيخة والاجتهاد التي تمتعت بها فقد افادت ، على غرار اسرة سكر، من النفوذ العسكري . وكان الشيخ محمد جربجي المجتهد ناظرا على وقف جده الاعلى مصطفى الحوراني(٩١) . ونظرا للمنافسة الاقتصادية والسياسية بين اسرتي سكر والمجتهد وتشابك المصالح بينهما عن طريق تأجير العقارات والعمل كوكلاء لمتداعين من اسرة ضد اخرى حفلت سجلات محكمة الميدان بالدعاوي بين الطرفين(٩٢). وذكرت اسر اخرى افادت على نطاق ضيق من الاوقاف الاهلية مثل آل الخراط وآل الفرا النظار علىوقفجدهم قره اصلان، وآل البارودي النظار على وقف جدهم سليمان الخوام .

وكان استئجار الاوقاف الاهلية من قبل المستفيدين منها او غيرهم يتم لسنوات طويلة وباجرة زهيدة تقتطع منها نفقات ترميم العقار .

وبتاجير الوقف لمدة طويلة بأجرة مقررة سلفا يفيد المستاجر من الربح الاضافي الناتج عن تدني قيمة العملة وبخاصة في القرن التاسع عشر ، ولهذا عمد الناظر الى زيادة الاجرة احيانا حتى قبل انتهاء مدة الايجار . ومهما يكن ، فان مستاجر الوقف، وهو عادة من الاسر المستفيدة منه ، تمتع بمعظم عائداته واستخدم ذلك لتوطيد نفوذه الاقتصادي والسياسي في محلة باب المصلى وخارجها على حساب اقربائه المستفيدين نظريا من الوقف .

الاندماج بين فئات السكان :

تعددت الفئات الاجتماعية في محلة باب المصلى بسبب موقعها والخدمات التي تقدمها ، واشتهرت فيها طائفة الانكشارية ذات الاصول التركمانية والكردية التي تحولت بالتدريج الى طائفة محلية (برلية) يتعاطى افرادها التجارة، وبخاصة الحبوب. وسكنها كذلك المغاربة الذين باعوا خدماتهم كقوة عسكرية ، وكانوا بمعظمهم من قبيلة زواوة من جبال القبائل بالجزائر ، ومنهم اناس من تونس وطرابلس الغرب ، وازدادت اعدادهم في القرن التاسع عشر اثر احتلال فرانسا للجزائر . واستقبل الميدان ،ومحلة باب المصلى بخاصة ، اعدادا من مسيحيي حوران والمناطق المجاورة الذين استفادوا من التسامح الديني ابان الحكم المصري في بلاد الشام مما دعا بطريرك الكاثوليك مكسيموس الثاني مظلوم الى انشاء كنيستين في حي الميدان بين عامي ١٨٣٤ – ١٨٣٦، واحدة في محلة باب المصلى والاخرى في زقاق القرشي ، وذلك الى جانب سماح ابراهيم باشا المصري له في عام ١٨٣٢ ببناء كاتدرائية في حارة الزيتون بدمشق . وأدى تزايد المسيحيين الأرثوذكس في الميدان قادمين اليه من حوران ومن راشيا ، وبخاصة بعد احداث ١٨٦٠ ، الى بناء كنيسة لهم في القرشي في اواخر عام ١٨٦٢(٩٢) .

ونظرا لتنوع الفئات الاجتماعية التي سكنت المحلة عبر السنين ، واختلاف اصولها واعمالها ومستوياتها الاقتصادية والاجتماعية ، وتعدد الاسباب التي دفعت بها الى الهجرة والسكن فيها ، تطرح قضية تعايش هذه الفئات واندماجها مع بعضها. ويتجلى هذا اكثر ما يتجلى في تداخل اماكن سكنها ، واستيعاب المحلة للاعداد المهاجرة اليها ، واستمرار التعايش بين مختلف السكان بالرغم من الازمات التي عصفت بدمشق وبالمنطقة . وتزودنا العينات الخمس في سجلات محكمة الميدان الشرعية بمعلومات دقيقة عن تنوع هذه الفئات ومدى اندماجها ببعضها على اساس تجاور عقاراتها .

وسنستعرض في الجداول التالية هويه البائعين والمشترين للعقارات على اختلاف انواعها ، وكذلك هوية اصحاب العقارات المجاورة للعقارات المباعة التي حرصت سجلات المحكمة ان تحددها في اطار التعريف بالعقار المبيع . وبالرغم من التفاوت في اعداد العقارات المدروسة في العينات الخمس فان نسب فئات السكان في كل منها تشكل صورة واقعية للسوق العقارية ولهوية السكان الذين يقومون بعمليات البيع والشراء.

هوية البائعين والمشترين والجوار عموما لكافة العقارات في محلة باب المصلى (١٨٢٥ - ١٨٧٥)

العينة الاولى ١٨٢٥ - ١٨٢٦

الهوية	البائعون	المشترون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٨	٢	٣	١٣	٤٠ر٤٪
اكراد وتركمان	٣	-	١	٤	٣٦ر١
مصريون	-	١	١	٢	٦٨ر٠
عسكريون	٧	٥	٤	١٦	٤٢ر٥
من بلاد الشام	٤	٧	-	١١	٧٣ر٣
مسيحيون	١٢	١٤	١٦	٤٢	٢٣ر١٤
غير محددة(محليون)	٥٥	٤٣	١٠٩	٢٠٧	١٧ر٧٠
المجموع	٨٩	٧٢	١٣٤	٢٩٥	٠٠ر١٠٠

العينة الثانية ١٨٣٤ - ١٨٣٥

الهوية	البائعون	المشترون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٢	٣	-	٥	٦٧ر٤
اكراد وتركمان	١	-	١	٢	٨٧ر١
مصريون	-	-	-	-	-
عسكريون	٣	٢	٣	٨	٤٨ر٧
من بلاد الشام	٢	١	-	٣	٨٠ر٢
مسيحيون	٢	٨	٢	١٢	٢٢ر١١
غير محددة	٢٠	١٨	٣٩	٧٧	٩٦ر٧١
المجموع	٣٠	٣٢	٤٥	١٠٧	٠٠ر١٠٠

العينة الثالثة ١٨٤٦ ــ ١٨٤٧

الهويـــة	البائعون	المشترون	الجــوار	المجموع	النسبة
مغاربة	—	—	—	—	—
اكراد وتركمان	٦	—	—	٦	٠٠ر٨
مصريون	—	—	—	—	—
عسكريون	—	—	٢	٢	٦٧ر٢
من بلاد الشام	١	٣	—	٤	٣٣ر٥
مسيحيون	٦	١	٣	١٠	٣٣ر١٣
غير محددة	١٥	١٤	٢٤	٥٣	٦٧ر٧٠
المجمــوع	٢٨	١٨	٢٩	٧٥	٠٠ر١٠٠

العينة الرابعة ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣

الهويـــة	البائعون	المشترون	الجــوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٢	٤	٣	٩	٢٥ر٦
اكراد وتركمان	—	—	—	—	—
مصريــون	—	١	٣	٤	٧٨ر٢
عسكريون	٤	١	٤	٩	٢٥ر٦
من بلاد الشام	—	١	—	١	٦٩ر٠
مسيحيون	٣	١٧	٩	٢٩	١٤ر٢٠
غير محددة	٣٤	١٥	٤٣	٩٢	٨٩ر٦٣
المجموع	٤٣	٣٩	٦٢	١٤٤	٠٠ر١٠٠

العينة الخامسة ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥

الهوية	البائعون	المشترون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	١	٦	٢	٩	١٥ر٤
اكراد وتركمان	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
مصريون	١	ـ	ـ	١	٤٦ر٠
عسكريون	ـ	٢	٤	٦	٧٧ر٢
من بلاد الشام	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
مسيحيون	١٢	٨	٩	٢٩	٣٦ر١٣
غير محددة	٧٠	٣٠	٧٢	١٧٢	٢٦ر٧٩
المجموع	٨٤	٤٦	٨٧	٢١٧	٠٠ر١٠٠

يلاحظ في هذه الجداول ، اولا ، ان مجموع اعداد البائعين في العينات الخمس البالغ ٢٧٤ يفوق مجموع اعداد المشترين البالغ ٢٠٧ ، مما يدل على ان الملكية تميل نحو التجمع لدى مالكين اقل عددا . وتظهر اربع فئات دائمة الحضور في سوق العقارات في المحلة هي المغاربة ، والاكراد والتركمان ، والعسكريون ، والمسيحيون، اما المصريون فبالرغم من حكم محمد علي باشا لبلاد الشام مدة تسع سنوات لم يستمر الوجود السكاني المصري على نطاق كبير في دمشق وبخاصة في محلة باب المصلى ، بعد انسحاب الجيش المصري . ومن الطبيعي كذلك ان يسكن في المحلة ، كما في محلات دمشق الاخرى ، عدد من سكان مدن بلاد الشام الاخرى لان ذلك في طبيعة تنقل السكان المحليين وان كان على نطاق ضيق .

ويشكل المغاربة عنصرا دائما في سوف العقارات وفي الوجود السكني في محلة باب المصلى ويبلغ حوالي ٥٪ في الجداول مما يدل على استمرار تدفق المغاربة الى دمشق . ومن المعروف ان اعدادا كبيرة منهم كانت تسكن في حي المغاربة الى الجنوب من محلة باب المصلى وفي محلة العمارة معقل الامير عبد القادر الجزائري واتباعه . وكذلك في انحاء اخرى من الميدان ، وتبلغ اعداد المشترين منهم في العينات الخمس ١٥ مقابل ١٣ بائعا مما يدل على تعاملهم في السوق العقارية باكثر من الاكراد والتركمان الذين لم يرفدوا باستمرار بعناصر اضافية كالمغاربة . ويلفت النظر في عينتي عام

١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ وعام ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ ان عددا من المغاربة البائعين والمشترين للعقارات السكنية، وبخاصة في منطقة القبة الحمراء ، يحمل لقب الزواوي، كما في اسم علي ابن سعيد المغربي الزواوي(٩٤) . اما العسكريون من آغاوات وجربجية فكانت نسبة مشاركتهم في السوق العقارية والبالغة حوالي ٦٪ اكثر من نسبة مشاركة المغاربة نظرا للثروة التي تمتع بها هؤلاء العسكريون .

ويشكل المسيحيون الفئة الثانية التي تلي الاكثرية المحلية من المسلمين (حوالي ٧١٪) في التعامل في السوق العقارية في محلة باب المصلى . ويبلغ وسطي نسبة المسيحيين المتعاملين في هذه السوق حوالي ١٤٫٥٠٪ . وطبيعي ان المسيحيين القادمين من حوران ومن منطقة وادي التيم والمناطق الجنوبية الاخرى يصلون الى الميدان اولا حيث تستقر اعداد منهم فيه ثم ينتقل البعض ، بعد مدة ، الى دمشق . ويكثر الوجود السكني المسيحي في عدد من ازقة الميدان ، خارج محلة باب المصلى ، وبخاصة زقاق القرشي وازقة الميدان الفوقاني(٩٥) .

ويلاحظ في العينات زيادة اعداد المسيحيين مشتري العقارات البالغة ٤٨ على اعداد البائعين منهم البالغة ٣٥ . ومما يلفت النظر ازدياد نسبة شراء المسيحيين للعقارات في محلة باب المصلى في عينة ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ ويفسر ذلك من ناحية ، بعدم تعرض المسيحيين في الميدان عموما لاذى الاضطرابات الاجتماعية والطائفية التي حلت بدمشق وبجبل لبنان عام ١٨٦٠ ، مما شجع اعدادا من المسيحيين من خارج المحلة على شراء العقارات فيها بدلالة وجود ١٧ مشتريا مسيحيا مقابل ٣ بائعين في محلة باب المصلى في عام ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ . وحدث هذا الاقبال على شراء العقارات في ذلك العام بالرغم من ارتفاع وسطي سعر القيراط العقاري آنذاك في محلة باب المصلى ــ كما سبق القول ــ الى اعلى مستوى له بالمقارنة مع العينات السابقة واللاحقة اذ بلغ ٢٥٤٫٤٠ قرشا . ويفسر هذا الاقبال بعدة عوامل منها الرخاء الذي عم دمشق آنذاك(٩٦) ، وحصول المنكوبين من المسيحيين في احداث ١٨٦٠ على التعويضات من الدولة العثمانية عن « مسلوباتهم ومحروقاتهم »(٩٧) ، وتفضيل عدد من الذين لجأوا منهم الى لبنان العودة الى دمشق ، وكذلك تحسين الدولة العثمانية معاملتها لهم(٩٨) .

ولم يقتصر الوجود المسيحي في محلة باب المصلى على زقاق معين اذ انتشر المسيحيون في عدد من الازقة ، ومن الطبيعي أن يكثروا في زقاق دون آخر بحكم تعلق ابناء المنطقة الواحدة من المهاجرين منهم ببعضهم ، واستقطب زقاق التيامنة عددا من المسيحيين بحكم موقعه في بداية المحلة بالنسبة للقادمين من الجنوب . وتزايدت فيما بعد اعداد المسيحيين في محلة باب المصلى ، وبخاصة في زقاق التيامنة ، الى الحد

الذي جعل باحثا فرنسيا يكتب في عام ١٩٣١ عن الحي المسيحي في باب المصلى(٩٩)، علما ان سجلات محكمة الميدان الشرعية في فترة دراستنا لم تذكر زقاقا او حيا معينا للمسيحيين في المحلة ، بل اشارت الى زقاق النصارى بالميدان ، ولكن خارج محلة باب المصلى ، بالقاعة بمناسبة بيع عقار فيه في ٨ شوال ٢٩/١٢٧٩ اذار ١٨٦٣ . وكان بائع العقار ومشتريه مسلمين(١٠٠) مما يدل على ان تسمية الزقاق لا تنطبق تماما على هوية سكانه وانما تدل على تكاثر المسيحيين فيه ربما في مرحلة سابقة من تاريخه .

وهكذا لم تعرف محلة باب المصلى التقوقع الطائفي في فترة دراستنا ، فقد اندمج السكان ، على اختلاف مذاهبهم ، مع بعضهم بدلالة مواقع عقاراتهم المختلطة التي تبينها حدود العقارات المبيعة . ويوضح ذلك مثال شراء المسيحي يوسف شاهين من السيد عباس جفال نصف الدار بزقاق الوسطاني ، يحدها قبلة الطريق وفيه الباب وشرقا بيت الحاج خليفة المفربل وشمالا بيت الحاج ضاهر وغربا بيت مراد الدوكزلي(١٠١) . واشترك المسلمون والمسيحيون حتى في ملكية عقار واحد وربما في السكن فيه معا ، كما في مثال شراء الخواجة الياس القاروط من الاخوين محمد والحرمة عايشة ولدي صالح بن حسن العسلي جميع عمارة وبناء المربع داخل دار البائعين بمحلة الميدان التحتاني بزقاق الموصلي ، ويحد الدار قبلة دار خليل الرباط وشرقا الطريق وفيه الباب وشمالا دار المشتري وغربا دار ورثة عبد الله شامية(١٠٢) .

وحدث الاندماج ايضا على مستوى السكان ذوي الاصول الجغرافية المتباينة ، فالمغاربة سكنوا في اكثر من زقاق في محلة باب المصلى ولم يشكلوا زقاقا خاصا بهم فيها ، كما ان زقاق التركمان اندمج بمنطقة القبة الحمراء . وورد ذكر زقاق الحوارنة مرة واحدة في العينة الاولى ولم يذكر ثانية في العينات التالية مما يوحي انه اندمج بدوره في منطقة اخرى .

ويلاحظ الاندماج كذلك على مستوى الفئات الاجتماعية والاقتصادية بدلالة تنوع اسعار البيوت وحجومها في الزقاق الواحد . فلم تكن هناك ازقة للارستقراطية واخرى للفقراء . وان تسمية زقاقين احدهما باسم اسرة سكر وثانيهما باسم اسرة المجتهد لا تعني ان كلا من هذين الزقاقين اقتصر حصرا على اسر سكر او المجتهد ، كما لا تعني ان جميع اسر سكر او المجتهد من الاثرياء ولا تضم فقراء بالرغم من ثروة عدد منهم . ومن الطبيعي أن توجد ازقة اسعار العقارات فيها عموما اكثر ارتفاعا منها في ازقة اخرى حسب نوعية اعمال سكانها ومواقعها .

ويمكن ملاحظة الاندماج بين مختلف الفئات الاجتماعية والاقتصادية في الزقاق الواحد بتصنيف العقارات المبيعة بكاملها وبانصافها بعد مضاعفتها ، في عدد من الازقة

الرئيسية التي تتكرر فيها عقود البيع والشراء وذلك بحسب مستويات اسعارها ، كما في الجداول التالية :

عدد العقارات السكنية المبيعة في محلة باب المصلى (كامل العقار او نصفه بعد مضاعفته) مصنفة حسب الازقة وفئات الاسعار والعينات

العينة الاولى ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١ـ١٠٠٠	١٠٠١ـ٢٠٠٠	٢٠٠١ـ٣٠٠٠	٣٠٠١ـ٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة		٢					٢
التيامنة	٢	١	١				٤
الجواني			١	٢			٣
السلطاني		٢	١				٣
القبة الحمراء	٣	٢	٢				٧
المخللاتي	١	٣	١				٥
الوسطاني	١		٤	١	١		٧
المجموع	٧	١٠	١٠	٣	١		٣١

العينة الثانية ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١ـ١٠٠٠	١٠٠١ـ٢٠٠٠	٢٠٠١ـ٣٠٠٠	٣٠٠١ـ٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة	١	١	١				٣
القبة الحمراء	٢	٢					٤
الوسطاني	١	٢	١				٤
المجموع	٤	٥	٢				١١

العينة الثالثة ١٨٤٦ ـ ١٨٤٧

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١ـ١٠٠٠	١٠٠١ـ٢٠٠٠	٢٠٠١ـ٣٠٠٠	٣٠٠١ـ٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
الجواني	١						١
السلطاني		١					١
القبة الحمراء	١	١					٢
المجموع	٢	٢					٤

العينة الرابعة ١٨٦٢ – ١٨٦٣

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١–١٠٠٠	١٠٠١–٢٠٠٠	٢٠٠١–٣٠٠٠	٣٠٠١–٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة			١			١	٢
التيامنة			١		١	٣	٥
الجواني			١				١
القبة الحمراء			٢	٢	١		٥
الوسطاني			١			١	٢
المجموع			٦	٢	٢	٥	١٥

العينة الخامسة ١٨٧٤ – ١٨٧٥

البقارة					٣		٣
التيامنة					٣		٣
السلطاني					١		١
القبة الحمراء				١			١
الوسطاني			١			١	٢
المجموع				١	٧		٨

نلاحظ في العينات الثلاث الاولى ، بين عامي ١٨٢٥ – ١٨٤٧ ، ان ٤٢ عقارا من مجموع ٤٦ عقارا (أي بنسبة ٩١٫٣٠٪) تقع في فئات الاسعار الثلاث الاولى ، اي حتى ٢٠٠٠ قرش . وضمن هذا التوزيع نجد أن ١٣ عقارا تقع في فئة الاسعار المتدنية ، و ١٧ عقارا في الفئة التالية ، و ١٢ عقارا في الفئة الثالثة . ونستنتج من هذا ان مستويات الاسعار متوازنة ومتتالية وليس هناك من فجوات تفصل بين عقارات متدنية الاسعار واخرى مرتفعتها ، ويترجم ذلك بوجود مستويات اجتماعية واقتصادية متقاربة ومتوازنة بين سكان هذه الازقة . ويدل هذا ايضا على ان القوة الشرائية للنقد لم تتعرض الى هزات كبيرة . وينسجم ذلك مع ما سبق ولاحظناه من تقارب في وسطي سعر القيراط في العقارات السكنية في العينات الثلاث الاولى .

ويختلف الامر في العينتين الثالثة والرابعة حيث نجد ١٧ عقارا من مجموع ٢٢ (أي بنسبة ٧٣٫٩١٪) تقع في فئات الاسعار فوق ٢٠٠٠ قرش ، فيما تقع العقارات

الست الباقية في الفئة التي تسبق هذه الفئات مباشرة . وليس مرد ذلك قلةالبيوت المتواضعة الاسعار وازدياد البيوت المرتفعة الاسعار ، وانما السبب يكمن اساسا في التضخم المالي بسبب تدني قيمة القرش الفضي بالنسبة للعملة الذهبية ، العثمانية والاوربية ، وبخاصة الليرة الفرنساوية التي بدأت اسعار البيوت تدفع بموجبها ، كما تظهر سجلات المحاكم الشرعية . وقد سبقت الاشارة الى ارتفاع وسطي سعر القيراط العقاري في العينة الرابعة بحوالي اربعة اضعاف ونصف عما كان عليه في العينةالثالثة. ثم هبط سعره في العينة الخامسة بحوالي ٢٣٪ من سعره في العينة الرابعة . ويفسر ذلك ايضا باضطراب الوضع الاقتصادي المحلي في الفترة بين ١٨٦٠ و ١٨٧٥ بنتيجة الدمار الذي سببته احداث عام ١٨٦٠ وبسبب عدم استقرار الاقتصاد المحلي وبخاصة ارتباطه بعجلة الاقتصاد الراسمالي الاوربي وتبعيته له ، واستفادت من ذلك طبقة من التجار الوسطاء واصحاب رؤوس الاموال من مختلف المذاهب . وقد عبر هؤلاء عن ثرائهم ببناء البيوت الباذخة في دمشق آنذاك(١٠٢) .

...

بالرغم من ارتفاع اسعار العقارات السكنية في الفئتين الرابعة والخامسة بقي التوازن قائما بين فئات الاسعار المرتفعة ولم تتخللها ثغرات بين اسعار دنيا واخرى عليا مما يدل ،كما هو الحال بالنسبة لتدرج الاسعار في العينات الثلاث الاولى ، على تقارب في اسعار العقارات وبالتالي في المستويات الاجتماعية والاقتصادية لاصحابها . وهذا ما يؤكد انه لم يكن هناك تباين كبير بين فقراء واغنياء في الزقاق الواحد .

..

ويندرج في اطار الاندماج الاجتماعي مشاركة المراة في محلة باب المصلى في بعض مظاهر الحياة العامة ، وبخاصة سوق العقارات ، على قدم المساواة مع الرجل وبدرجة فاقت مشاركة مثيلتها داخل دمشق . وربما يعزى هذا الى الاصول الريفية لعدد كبير من سكان المحلة والى انتقال دور المراة الفعال في الريف اليها ، فقد برزت المراة في محلة باب المصلى في شراء العقارات الكاملة ، وهذا امر له دلالته بأكثر من شراء المراة حصة في عقار او اكثر لان هذا يكون في الغالب ناتجا عن ارث او عن تصفية حقوق مع الاقرباء . واشتملت العقارات الكاملة التي تعاطت النساء شراءها او بيعها على العقارات السكنية والتجارية داخل المحلة . وشاركت النساء كذلك في شراء وبيع الكدك والخلو بالنسبة للدكاكين . ونظرا لتملك المراة العقارات الكاملة عرفت هذه العقارات باسمها ، وذكر ذلك حين تحديد جهات عقار ما كأن يقال « يحده قبلة بيت رحمة بنت ادريس وغربا قسيمه بيد الحرمة فاطمة بنت ابو الحسن الهواري » . ويلفت الانتباه في شراء النساء العقارات الكاملة او بيعهم لها ان معظمهن كن من اصول غير محلية ، كما يظهر ذلك مثلا في اسم الحرمة عاتكة بنت حسين الفلاح التي اشترت جميع الدكان بالقرب من جامع المصلى ، واسم الحرمة فاطمة بنت احمد اغا الترك

التي اشترت بمالها جميع كدك وخلو الدكان بالشارع السلطاني ، واسم الحرمة زينب بنت عمر النحوي المغربي التي اشترت لنفسها جميع الدار بزقاق المخللاتي ، واسم المراة عبدة بنت محمد الطرابلسية التي اشترت جميع الدار بالقبة الحمراء(١٠٤) وتدل هذه الامثلة على فعالية المراة في سوق العقارات في محلة باب المصلى ، وعلى رغبة النسوة المهاجرات اليها بالتملك والاستقرار فيها ، لان ذلك يشكل المجال الاكثر ضمانة لتوظيف ما تمتلكنه من مال ، الى جانب عقد الديون .

وعلى غرار الرجل ظهرت المراة بنفسها في محكمة الميدان الشرعية ، بدون وكيل يمثلها ، في قضايا البيع والشراء التي ساهمت فيها . وزيادة على ذلك قامت المراةبدور الوكيل عن الرجل في شراء العقارات وبيعها ، ليس بصفتها وصية على قاصر بل كوكيلة معتمدة رسميا(١٠٥) .

ونلمح في دور المراة هذا في محلة باب المصلى تراثا ريفيا عريقا لعبت فيه المراة دورا مستقلا معتمدة على نفسها في العمل والمعيشة والدفاع عن حقوقها ، في حين ان المراة في المدينة كانت اكثر انزواء واقل ظهورا وممارسة لحقوقها بنفسها .

ويمكن القول ختاما ان البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى في الفترة التي درسناها لابد وان تتضح مدلولاتها بشكل اكبر باجراء بحوث مشابهة لمحلاتاخرى داخل دمشق وظاهرها . وتفيد مثل هذه الدراسات في توضيح الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لمختلف فئات السكان وفي تفهم مواقفهم السياسية والدينية واتجاهاتهم الثقافيــة .

ملحـق

اسماء بعض الاسر التي سكنت في محلة باب المصلى

(١٨٢٥ – ١٨٧٥)

يبين هذا الملحق اسماء الاسر ، على اختلاف مذاهبها ، التي وردت اسماؤها كبائعة او مشترية او ساكنة او مجاورة للعقارات المبيعة في ازقة محلة باب المصلى في العينات الخمس المنتقاة في الفترة بين عامي ١٨٢٥–١٨٧٥ . وسنبقي على تكرار اسماء الاسر في العينات هذه لان ذلك يؤكد استمرارية سكنها او علاقتها العقارية في الزقاق ذاته او الازقة ذاتها على مدى سنوات عديدة . وهناك اسر تحمل نسبة واحدة ، مثل الدوركزلي (الدركزنلي) وقروشان ، تسكن اكثر من اسرة منها في زقاق واحد فاكتفينا بذكرها مرة واحدة في الزقاق الواحد .

ونظرا لان اسماء الاسر مستقاة من القضايا المعروضة على محكمة الميدان في تلك الفترة فانها لا تشكل باي حال مسحا شاملا للاسر التي سكنت تلك الازقة . كما ان عدم ورود الاسم في عينة ما لا يعني انعدامه وانما عدم وجود قضية في العينة يرد فيها. وتجدر الاشارة الى ان تشابه القاب او انساب بعض الاسر لا يعني دائما انها ترتبط بصلة القربى او انها موزعة على عدة ازقة ، او انها نقلت اماكن سكنها من زقاق الى اخر ، لان معظم الالقاب او الانساب ذو طابع حرفي او يدل على اصول جغرافية او جنسية . ومع ذلك فان هذه الالقاب والاسماء الجغرافية ذاتها تدلنا على حرف الساكنين في الازقة واصولهم الجغرافية . وسنذكر فيما يلي اسماء الازقة ثم الاسر التي سكنت فيها مرتبة هجائيا حسب كل عينة .

عينة عام ١٢٤٠ – ١٢٤١ / ١٨٢٥ – ١٨٢٦

اسم الزقاق	اسماء الاسر
ابو البرغل	: اوده باشي ، المغربل ، المكاوي.
ابو مايلة	: البين ، الحبال ، الحريراتي ،الطوير ، قصاب باشي ،الهواري.
الاربعين	: ابو سيف ، توما ، الحجار ، خاصورة ، الخباز ، الصوص ، عساف ، القزح ، معروني ، النشار ، هواري باشي.

بسادو : ادريس ، الدندشلية ، الدهان ، المعلاوي ، المغربي ، الهواري .

البقارة : ابو صالح ، ابو عزام ، ابو قورة ، تركمان ، الجوقدار ، الحلبي ، الخواجة ، الدركة ، طاش ، الطرابلسي ، القرياني ، المبيض ، المدني ، المصري ، منصور .

البوشي : البوطالب إلزبال ، الضاهرلي ، لحلوح .

التركمان : ابو سالم ، البوظلي ، الخولي ، الكردي .

التيامنة : الدركزلي ، الناهم .

الجواني : البرادعي ، البوطالب الزبال ، جبر ، جهلان ، شحادة ، عطه ، المعراوي .

الحوارنة : الجليلاتي ، ديب ، المغربل .

السلطاني : التقي ، الحجار ، سعودي ، الطحان ، قره‌باش ، المجتهد ، معتوق ، هواري باشي .

عزام : البلخي ، عطفة ، لولو .

القبة الحمراء : ابو عرفة ، بخيت العبد ، البيطار ، التونجي ، الجفال ، الجمال ، الجوقدار ، الحجار ، دنون ، السلطجي ، سليمان ، السمان ، السيد ، شرير ، صفير ، الطحان ، عبيد ، عكام‌باشي ، الفرا ، الفلاحة ، الكنفاني ، المجتهد ، المحمص ، معتوق ، المنجد ، الميتوني ، النابلسي ، ويس .

المجتهد : بازوباشي ، شحيبر ، عكام باشي ، فارة ، المجتهد .

المخللاتي : ابو خاصورة ، ابو داوود ، ابو سويم ، التواتي المغربي ، حموية ، حميم ، الدباغ ، الزبعور ، السواح ، شريف ، شيخ المحيا ، الصواري ، اللحام ، المحمص ، المخللاتي ، المعروني ، النحوي المغربي .

الوسطاني : ابو راس ، جفال ، الحليي ، الدباغ ، الدركزلي (الدركزنلي) ، الدغستاني ، الدينار ، رشيد ، شاهين ، الطويل ، فرح ، الفلاحة ، القباني ، القدسي ، القطان ، الكنفاني ، الكوركرلي ، اللبان ، معتوق ، المغربي .

عينة ١٢٥٠ – ١٢٥١ / ١٨٣٤–١٨٣٥

الاربعين	: ابو زيد آغا ، الدقوقي ، الدياك ، الزرابيلي ، السناوي ، الصرصر ، القضماني ، المدكوكي ، المغربي ، المكناسي المغربي .
بـادر	: البلشة ، الخاناتي ، سري مري ، السناوي ، المعلاوي .
البقـارة	: ابو جوب ، الإجاتي ، الاشرم ، البيرملي ، البيطار ، التونجي ، الحجار ، الحلبي ، الدباغ ، الدقاق ، الزايد ، الفلاحة ، قدح ، قروشان ، القسيس ، المبيض ، المروش ، المصري ، ممتوق .
التيامنة	: بدوه ، الزهـر .
السلطاني	: ابو السعود ، الحافي .
الشعريـة	: الجراح ، الدكاك ، دنون ، الملقي .
القبة الحمراء	: البسطاطي ، الجلاد ، الحلبي ، الخباز ، الدركزنلي ، الشاملي ، الفقير .
المجتهد	: ابو النصر ، دبوس ، المعاريني .
الوسطاني	: بدر ، البرصلي ، التركماني ، الحلواني ، الحموي ، الدركزلي ، الدوماني ، الزنبركجي ، الزيات ، شاهين ، الشرقاوي ، العبجي ، الفرا ، القاروط ، الكردي ، الكتفاني ، لطفي ، المدني ، مرتضى ، المعروني ، النحاس .

عينة ١٢٦٢ – ١٢٦٣ / ١٨٤٦ – ١٨٤٧

ابو مايلة	: الادلبي ، البين ، الحبال ، الحليواني ، السكافي .
بـادر	: البغدادي ، رمضان ، السمان ، القضماني .
التيامنـة	: ابو عين ، التركماني ، داود ، الدركزلي ، السمـن ، فـرح ، الكفريـا .
الجوانـي	: جبر ، الشوا ، الصباغ .
الزيـن	: الحصري ، سيالة ، الشعال .

السلطاني	: البارودي ، شحيبر ، القدسي .
عـزام	: امين ، الجناني ، الحلبي ، ناظرة .
المجتهد	: البرطفش ، السرماياتي (الصرماياتي)، سيالة ، فارة ،العطار،
الوسطاني	: الداراني ، قاروط ، قصير الذيل ، الكسواني ..

عينة ١٢٧٩ - ١٢٨٠ / ١٨٦٢ - ١٨٦٣

بـادر	: الحلبي الشوى ، سكر .
البقارة	: البغدادي ، جراح باشي ، الحبال ، الحداد ، زنبركجي ، سكر، السمان ، صادقة ، العطار ، القهوجي ، مقصود ، الهواري.
التيامنـة	: الادلبي ، بربارة ، البطش ، جبر ، الحاصباني (الشهير بابي داود) ، حصوة ، الحمصي ، الدالي ، السيرجي ، شاهـين ، الصباغ ، قروشان ، القسي ، الكنفاني ، المصري ، المعراوي، المغربي ، نونه ، الهوامي .
الجواني	: الاشقر ، جبر ، خير ، فرح ، القسي .
الزيـن	: أبو جوف ، حباب ، الخباز ، فارة .
سكر	: تلـو ، سكر .
عسقلان	: كناكرية ، النعسان ، الهواري .
القبة الحمـراء	: أبو غرة ، ابو ناعس ، الازن(الاظن)، حباب ، الدقاق ، الدوماني، الطرابلسي ، العسلي ، الفرستقي ، فضول ، الكاتب ، المجتهد، المصري، المغربي ، المغربي الزواوي (احيانا :الزواوي المغربي)، هزوم ، اليبرودي .
قويـق	: جوهر ، الحلبوني ، اللحام .
المجتهـد	: البرطفش ، حباب ، الدركزلي ، سيالة ، المجتهد ، المعمولي ، المنقاري ، النجار .
الوسطاني	: البلدي ، التراس ، الحمصي ، الدركزلي ، الدرقي ،الرنكوسي، قروشان ، قنباز ، المسماري ، المعراوي.

عينة ١٢٩٠ – ١٢٩١ / ١٨٧٤ – ١٨٧٥

ابو مايلة	: الادلبي ، البيرقدار ، الحواصلي ، خرمة ، الرباط ، اللحام .
الاربعين	: الخرقوقي ، المكاوي ، الكبيش .
بادر	: الازهري ، البيرقدار ، الطنطاوي ، الموازنلي .
البقارة	: الادلبي ، التركماني ، الجلفي ، حجازي ، الحمصي ، الدنون ، ديب الحاصباني ، الطرابلسي ، القهوجي ، المغربي ، الورع .
التيامنة	: الاشقر ، البطش ، التتنجي ، التونجي ، جبر ، الجسروادي ، الجوخدار ، الحجار ، الدرعطاني، الدوماني ، سعده ، شامية ، شرف ، شيخ الحارة ، الصباغ ، عفيف ، قروشان ، النجار ، الهواري ، واكد .
الجواني	: داود ، السيرجي ، قروشان ، قطان .
الحبالة	: اودهباشي ، الحبال ، الحلبي ، دنون ، زمرد ، السروجي ، الشاغوري ، الشمعة ، طهماز ، القطان ، اللحام ، الهواري .
الزين	: تلو ، سيالة ، الصيداوي ، الطرابلسي ، النجار .
السلطاني	: رمضان ، الشرقاوي ، المغربي ، المغربي التواتي ، النجار .
القبة الحمراء	: الرنكوسي ، المغربي الزواوي .
القملة	: الانطكلي ، البياض ، جهاني ، الحبوباتية ، السيدة ،الفاعور .
قولبة	: الارفلي ، الحلاق ، الحلبي ، الفهد ، القباز ، الملا عيسى .
النشار	: الحلاق ، الحموي ، الدركزلي ، علما ، الميداني .
الوسطاني	: جمعة ، شامية .

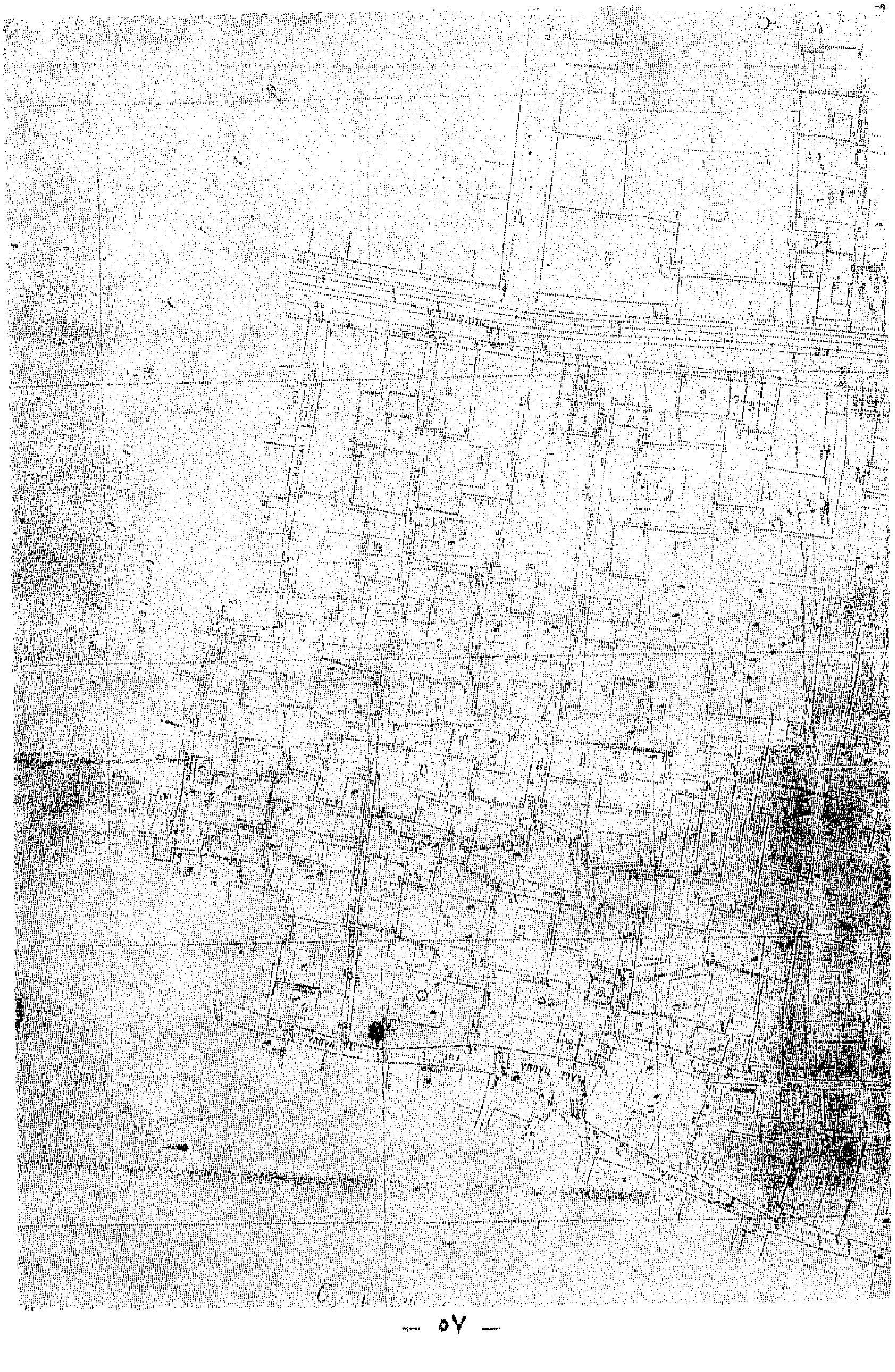

(١) انظر تعليق الشيخ محمد احمد دهمان في تحقيقه كتاب : اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، محمد بن طولون ، دمشق ١٩٦٤ص ٦- ١٠٧هـ-٥٢ .

(٢) انظر :
J. Sauvaget, « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », **REI**, IV (1934), pp. 460, 469; R. Thoumin, «Deux Quartiers de Damas : le Quartier Chrétien de Bab Musalla et le Quartier Kurde' »,**BEO**,(1931), pp. 99 - 135 .

(٣) نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٦، ص ١٠٧.

(٤) الشيخ عبد القادر بدران ، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، دمشق ١٣٧٩ هـ ، ص ٣٨٩ .

(٥) القساطلي ، ص ١١١ .

(٦) انظر : سجل دمشق ، مجلس الولاية ، ١٢٦٠ - ١٢٦١ هـ ص ٣٥٥ - ٣٥٨ .

(٧) انظر كامثلة : محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، قسمان ، تحقيق محمدمصطفى، القاهرة ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ، قسم ١ ، ص ١٩١ -٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ ، اعلام الورى ، ص ١٤٣، ١٤٤ .

(٨) أنظر كتابنا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, Pb. 1970, pp. 161-169.

(٩) انظر كامثلة الكتب التالية :
André Raymond,**Grandes villes arabes à L'époque ottomane,** Paris, 1985, **The Great Arab Cities in the 16th - 18 th Centuries, an Introduction,** New York University Press, 1984; Antoine Abdel Nour, **Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVIe - XVIIIe siècle)** , Beyrouth, 1982; D. Chevallier(ed.) **L'Espace social de la ville arabe,** Paris, 1979;A. Bouhdiba et D. Chevallier, (eds.) **La ville arabe dans L'Islam,** Tunis, 1982.

(١٠) انظر : Thaumin, pp. 101-102.

(١١) سجل محكمة الميدان الشرعية ، رقم ٥٤٧ ، ص ١٧٢ .

(١٢) سجل رقم ٣٩٢، ص ١٦ .

(١٣) سجل رقم ٤٧ ٥، ص ٢٧٢ ، رقم ٦٥٣ ، ص ٥٠ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ .

(١٤) سجل رقم٦٥٤، ص ٥٤ .

(١٥) سجل رقم ٦٥٣ ، ص٥٤ رقم ٦٥٤ ، ص ٩٧ .

(١٦) عرفت الجنينة (سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٨٦) بانها تشمل غراس اشجار ليمون حلو وحامض وكباد ونارنج ومشمش ودراقن وياسمين وغيره .

(١٧) سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٨٦ .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٧٥.

(٢٠) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٢٠ .

(٢١) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٥٤ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٥٧ .

(٢٢) انظر حول هذه الدخلات : سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٩٢ ، رقم ٣٩٢ ، ص ٢٤٧، رقم ٥٤٧، ص ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٩٥ .

(٢٣) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٢٠ .

(٢٤) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٢٩ ، ٢٥٠ .

(٢٥) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٧٦ .

(٢٦) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٦٥ .

(٢٧) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١٤٥ .

(٢٨) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ١٤٢ .

(٢٩) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٩٤.

(٣٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٩٧ .

(٣١) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٤٧.

(٣٢) سجل رقم ٤٧٧ ، ص ٥١ ، رقم ٥١٠ ، ص ٥٨ .

(٣٣) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٣٣٢ .

(٣٤) سجل رقم ٣٣ ، ص ٣٣٠ .

(٣٥) دفعت اثمان ستة عقود شراء وخمسة عقود بيع في هذه العينة بالليرات الفرنسية . ودفع ثمن عقد واحد بالليرة المجيدية الذهب ، كما دفع ثمن عقد شراء وعقد بيع بريال فنس ، ونظرا لاختلاف اسعار هذه العملات ، حسب السوق العالمية والعثمانية والمحلية ، فقد اخذنا بقائمة الاسعار المعتمدة في المحكمة الشرعية بدمشق بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٩٦/١٨ شباط ١٨٧٩ (سجل دمشق ، رقم ٧٠ ، ص١٤٧-١٤٨) على اساس ان الليرة الفرنساوية تساوي ١٠٦ قروش والمجيدية ١٢٢ قرشا ، وريال فنس ٢٠ قرشا .

(٣٦) ص ٩٣ .

(٣٧) ص ٩٣.

(٣٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٨٠ .

(٣٩) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٥١ .

(٤٠) انظر مثلا سجل رقم ٦٥٣ ، ص ١١٢ ، رقم ٦٥٤ ، ص١٦٥.

(٤١) انظر مثلا سجل رقم ٥٤٧ ، ص ١٩٦ ، رقم ٦٥٤ ، ص٢٠٨.

(٤٢) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٢٨ .

(٤٣) انظر تفاصيل اخرى عن البوايكي في كتاب : قاموس الصناعات الشامية ، الجزء الاول تأليف محمد سعيد القاسمي ، والجزء الثاني تأليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، وتحقيق ظافر القاسمي ، باريس – لاهاي ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ٥٥.

(٤٤) انظر كاملة : سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٣٢٩ ، رقم ٥٠١ ، ص ١١ ، رقم ٤٧ ،٥ ص ١٧١.

(٤٥) سجل رقم ٤٨٥ ، ص ٧٨ ، وايضا رقم ٥٤٧ ، ص ١٧٣ .

(٤٦) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٦ .

(٤٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، المنشور في كتابنا : بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، دمشق ١٩٨٥ ،ص٧٩.

(٤٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٧٦ .

(٤٩) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١٩٥ .

(٥٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٣٣ .

(٥١) سجل رقم ٦٥٣ ، ص٩٦ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٢٠٨ .

(٥٢) سجل رقم ٤٨١ ص ١٦٦ ، رقم ٤٧ ،٥ ص ١٩٦.

(٥٣) سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٣١٦ .

(٥٤) سجل رقم ١٠ ،٥ ص ٦٥.

(٥٥) سجل رقم٣٠٧ ،ص ١٦١ ، رقم ٥٤٧ ، ص ١ ، ص ٨٩.

(٥٦) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٥٦ .

(٥٧) انظر ، سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٩٨ ، رقم ٣٣٣ ، ص ٢٤٩ ، ٤٠٠ ، رقم ٦٥٣ ،ص ١٥٨ .

(٥٨) سجل رقم ٤٧ ،٥ ص ١٥٤ ، ١٨٢ .

(٥٩) سجل رقم ٣٣ ،٢ ص٣٤٩ .

(٦٠) ذكر ان معملا للفخار في زقاق الاربعين قد حلت مكانه دار سكنية في زمن غير معروف ، سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٤١١.

(٦١) انظر حول هذه الخانات : سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٣١٢ ، رقم ٥٤٧ ،ص ٢٦٤ ، رقم ٦٥٤ ،ص٢٠٨.

(٦٢) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١١٠ .

(٦٣) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ ، وكذلك رقم ٦٥٣ ، ص ٥٠ .

(٦٤) انظر مثلا : عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ١٩٦١ – ١٩٦٣ ، ج٢ ، ص ١١٣١ .

(٦٥) الجزء الاول ، ص ١١٦ .

(٦٦) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٥٨ ، وانظر ايضا ص ٨٩.

(٦٧) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٨٠ ، انظر ايضا رقم ٤٨١ ، ص ١٦٦ ، رقم ٥٤٧ ،ص ١٧١ ، ١٩٦ ، ٢٣٢ ،رقم٦٥٤ ،ص ٩٤ .

(٦٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٨٢ .

(٦٩) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٠١ .

(٧٠) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٥٥ .

(٧١) انظر كمثال : سجل رقم ٥٠١ ، ص ١١٨ .

(٧٢) انظر كمثال : سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٦.

(٧٣) انظر تفاصيل ذلك في بحثنا : « الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر » مجلة دراسات تاريخية ، العددان ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ، ص ١١٥-١٥٩ ، وقد اعيد نشره في كتابنا بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، ص٢٤١-٢٨٥ .

(٧٤) انظر كامثلة : سجل رقم ٦٥٣ ،ص ٥٢ ،٥٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥١، ١٥٨ ، رقم٦٥٤، ص١٧، ٥٤ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٥،١٤٩،٢٢٠ .

(٧٥) استعنت بقاموس الصناعات الشامية لتفسير بعض الحرف .

(٧٦) انظر بحثنا « الاقتصاد الدمشقي » ، ٢٥٥-٢٥٧ .

(٧٧) القساطلي ، ص ٩٢.

(٧٨) ص ٩٣.

(٧٩) سجل رقم ٣٠٧ ، ص٩٧ .

(٨٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٣٠١ .

(٨١) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٧، رقم ٣٣٣ ، ص ٢٧٣.

(٨٢) انظر كتابه : منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، ص ٣٨٩.

(٨٣) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٥٤ .

(٨٤) انظر حول الاستيلاء على الاوقاف الخيرية من قبل اصحاب النفوذ ، بدران ، ص ٥٣.

(٨٥) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ١٠٦ .

(٨٦) سجل رقم ٣٣٣، ص ٨٦.

(٨٧) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٦٥.

(٨٨) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ١٦٠ ، ٢٥٥ .

(٨٩) انظر : محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، اربعة اجزاء ، بولاق، ١٣٠١ ، ج ٢ ، ص٦٢ .

(٩٠) انظر حول استفادة ال سكر من هذه الاوقاف : سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٤١،١٦١ ، رقم٣٩٢ ، ص ٣٢٩ ، رقم ٥٠١ ، ص ٢٦٤ ، رقم ٥٤٧ ، ص٧١ ، ٧٥ ، ١٥٤ ، ١٩٦ ، ٢١٣ .

(٩١) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٦٨ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٤٥ ، ٢٥٢ .

(٩٢) سجل رقم٥٤٧ ، ص ٤٥ ، ٧١ ، ٢١٣ .

(٩٣) انظر القساطلي ، ص ١٠٢-١٠٣ وكذلك : Thoumin, pp. 113-115

(٩٤) سجل رقم ٤٧ ،٥ ص ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، رقم ٥٣ ،٦ ص ١٤٢ ، ١٥٨ .

(٩٥) انظر كامثلة على شراء المسيحيين الدور في ازقة القرشي والموصلي والعسكري ، سجل رقم ٨٥ ،٤ ص ٢٤ ، ٢٦٦.

(٩٦) القساطلي ، ص ٩٣.

(٩٧) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٩٨) ينعكس تحسين الدولة العثمانية معاملتها للمسيحيين في فترة التنظيمات في سجلات المحاكم الشرعية بدمشق . ويشير سجل محكمة الميدان ، رقم ٥٠١ ، لعام ١٢٧٥ – ١٢٧٦ الى المسيحي انه ابن فلان عوضا عن ولد التي كانت مستعملة باستمرار سابقا (ص ١٣ ،١٤ ،١٠١) . واستمر استعمال « ابن » في السجلات اللاحقة ، ولم تعد السجلات تستعمل الفاظ نصراني او ذمي او عيساوي واستعيض عنها بكلمة خرستياني (وهي تشويه للكلمة الاجنبية) كما يظهر ذلك في سجل محكمة الميدان لعام ١٢٧٩ – ١٢٨٠ /١٨٦٢ – ١٨٦٤ ، رقم ٥٤٧ ، ص٢٠٨ ، ٢٢٤ ،٣٠٩ . وبدا يستعمل للمسيحيين في السجلات لقب خواجة ، والكلمة فارسية الاصل تعني التاجر او الرئيس او المعلم ، ومنها كلمة خجا (خوجة) التركية وتعني المعلم . ثم اصبح يشار للمسيحيين(انظر سجل محكمة الميدان رقم ٦٥٣ تاريخ ١٢٩٠ – ١٢٩١ /١٨٧٣–١٨٧٦) بانهم من رعايا الدولة العثمانية كما في المثال التالي « الخواجة الياس ابن الخواجا يوسف القاروط من رعاية الدولة العثمانية قد اصدرت امرا في عام ١٢٧٥/١٨٥٩ نقله والي القدس الى قاضي غزة يقضي بالتفحص الميدان الشرعية) ، انظر سجل رقم ٦٥٣ ،ص٢٨ ، وكذلك ص ٩٦ ، ١١٧ . وكانت الدولة العثمانية قد اصدرت امرا في عام ١٢٧٥/١٨٥٩ نقله والي القدس الى قاضي غزة يقضي بالتفحص من هوية المشترين للعقارات وفيما اذا كانوا من رعايا الدولة العثمانية . وجاء في الامر ان ذلك يعرف بالنسبة للمسيحيين من رؤسائهم الدينيين (انظر بحثنا : غزة ، ص٤١)،والهدف من ذلك الحد من شراء الاجانب للعقارات .

(٩٩) أنظر :
R. Thoumin, « Deux Quartiers de Damas: Le Quartier Chrétien de Bab Musalla et le Quartier Kurde » BEO, (1931) pp. 99-135 .

(١٠٠) سجل رقم ٥٤٧ ، ص٢٤١ .

(١٠١) سجل رقم ٣٠٧ ص ١٦٥.

(١٠٢) سجل رقم ٦٥٣ ص ٢٨ .

(١٠٣) انظر القساطلي ، ص ٩٦-٩٧. وقد بلغ اغلى سعر لدار في محلة باب المصلى في العينات الخمس، مقدار ٣٧٥٠٠ قرش اشتراها به الشيخ محمد سعيد افندي المجتهد بالوكالة عن السيد محمد صالح قصاب من السيد عبد الله حباب ، وكانت الدار بزقاق المجتهد ، وتم بيعها في ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٩/ ١٣ تموز ١٨٦٢ (سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٩٥) . وبلغ السعر التالي لدار سكنية في زقاق البقارة وقد بيعت بعد ثلاثة ايام من الاولى بمبلغ ١١١٠٠ قرش (سجل ٥٤٧ ،ص٢٩٩).

(١٠٤) انظر مثلا سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٥٢ ، ٢٥٧ ، ٣١٤ ، رقم ٣٢٣ ص ٣٦٩ ، رقم ٣٩٢ ، ص٢٤٨، ٣٥٥ ، رقم ٥٠١ ، ص٤٤ ، رقم ٥٤٧ ، ص٢٥٤.

(١٠٥) انظر مثلا :سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢١.

الإدارة في الأنـدلس
في عهد عبد الرّحمن الدّاخل

د. نجدة خمّاش

جامعة دمشق

ان نظرة على الاحداث التي جرت في الاندلس خلال عصر الولاة ، تكفي للدلالـة على انه كان عصراً مضطربا غير مستقر ، وان سيطرة الخلافة الاموية على هذه البلاد لم تكن اكثر من اسمية محضـة ، وانه ، بينمـا كانت الدولـة الاموية في الشـرق تتهاوى تحت ضربات العباسيين ، كانت الاندلس تخضع صوريا ليوسـف الفهري وفعليا للصميل ، وكلاهما ينتميان الى قيس وقبائلها التي تعتبر اقلية في الاندلـس بالنسبة للقحطانية التي تؤلف قبائلها اكثرية العرب النازلين في هذه البلاد . وقـد اضطرمت نيران الحرب الاهلية بين قيس ويمن وكل فريق يبذل كل ما لديه من قوى لكي يحرز النصر فيها .

ولكن تطور الاحداث لم يجعل السيطرة على الاندلس من نصيب اي فريق مـن المتنازعين عليها ، وانما نالها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي نجـا باعجوبة من سيوف جلادي بني العباس وحظي بالسلامة في شمال افريقية ، ثم احرز المجد في الاندلس ، حينما اسس لاسرته امارة مستقلة عن الخلافة في المشرق . ولما كان نجاحه في تأسيس الامارة مرتبطا الى حد بعيد بالتنظيمات التي طبقها ، فانه يحـق لنا ان نتكلم عن مآثره في هذا المضمار ، وبالرغم من ان المعلومـات المتعلقـة بالنواحي

اعد هذا البحث لندوة ((من الشام الى الاندلس)) دمشق ، المديرية العامة للاثار والمتاحف ، ٤/٢٨ - ١٩٨٦/٥/١ .

الادارية شحيحة ، والمصادر التي بين ايدينا متاخرة لا تعكس الاوضاع في الاندلس بشكل دقيق ، الا انه يمكننا ان نعطي صورة عن مقدرة عبد الرحمن الادارية ، هذه المقدرة التي تظهر اكثر جلاء ووضوحا عند مقارنة ما تم في عهده ، مع ما كانت عليه الاندلس من اوضاع ادارية مترديةمن قبل .

تشيد الروايات بعظمة دولة بني أمية التي قامت في الاندلس بفضل عبد الرحمن، هذه الدولة التي دامت نحوا من ٣٠٠ عام ؛ « والتي لم يك في دول الدنيا انبل منها ولا أكثر نصرا على الشرك واجمعها لخلال الخير »(١) . كما تشير الروايات الى أن عبد الرحمن جدد ما طمس لبني أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها (٢) ، وانه بالرغم من دخوله بلدا اعجميا منفردا بنفسه ، فقد مصر الامصار ، وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، بالاضافة الى اتخاذه الولاة والحجاب والوزراء والكتاب والقضاة ، وان عدد جنوده بلغ حسب قول المقري ١٠٠ الف فارس(٢) .

هذه الروايات والاقوال ، على الرغم مما قد تحمل في طياتها من المبالغات تشير الى بدء ظهور ملامح تنظيم حكومي واسع في ايام عبد الرحمن الداخل لم يكن موجودا في عصر الولاة . وليس هذا بغريب ، فعبد الرحمن كان حاملا من جهة لتقاليد الاسرة الاموية في الحكم والتنظيم ، وهي تقاليد اكتسبتها خلال حكمها لدولة مترامية الاطراف متباينة الاجناس مدة تقرب من القرن ، كما انه كان محاطا بجماعات ومساعدين من الموالي والانصار كان بعضهم ذا تجربة في ميدان التنظيم الاداري ، وبعضهم كان بالاندلس يعرف اوضاعها ونواحي ضعف الحكم فيها ووسائل الاصلاح، امثال موالي الامويين وارطباس الذمي ابن الاسرة القوطية الحاكمة ، الا انه يستحيل تحديد دور كل واحد من هؤلاء في العمل التنظيمي ، ولذا فان العمل كله يعزى الى عبد الرحمن ، لا على انه مبتكره وحده، وانما على اساس ان كل ماجرى انما جرى باسمه وتحت اشرافه .

يعد تغيير عبد الرحمن لمفهوم الحكم الجانب الاعظم من اعماله ، اذ ان السلطة قبل عبد الرحمن كانت قبلية ، فعلى الرغم من وجود وال في قرطبة فاننا لا نسمع ولومرة واحدة عن عمال لكور الاندلس في هذه الفترة ، وانما نسمع بوجود رئاسات . والنصوص التي بين ايدينا تشير الى ان معظم ارض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبلين اليها من العرب والبربر ، وان حقوق العرب على النواحي التي نزلوا فيها كانت حقوقا جماعية ، أي ان الاقطاعات كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على افرادها ، وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين ان « الثغر

كان لليمن » او ان ابا الصباح وحيوة بن ملامس كانا سيدي الغرب (٤) ، بل لا يمكننا تفسير نزول اجناد الشام بالكور ، كل جند بكورة ويكون لهم ثلث اموالها ،الا على هذا الاساس(٥) ، أي ان الجند باسره كان ينزل الكورة ويكون رئيسه صاحب الامر فيها، وهذا يفسر لنا قدرة عرب الاندلس وبربرها الاولين على القتال واستمرارهم فيه،مع النصارى الاسبان في الشمال ومع نصارى غالة في اول الامر ، ثم فيما بينهم وبين انفسهم بعد ذلك ، لانهم كانوا جميعا جنودا لا عمل لهم الا القتال ، ولو كانوا توزعوا الارض قطعا صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لاصبح من الصعب اقتلاعهم منها وارسالهم للحرب كما حدث لكثير من عرب مصر ، اما عرب الاندلس فلم يكن احد منهم يملك ارضا لنفسه وانما الارض ملك للقبيلة كلها ، فكان رئيس القبيلة او شيخ مجموع القبائل او صاحب لواء الجند يجمع الاموال بمعاونة رؤسائها من اهل الذمة ويقتطع ثلثها ويؤدي ثلثيها لبيت المال ان كان رئيس جند نازل ، او عشرها ان كانت الارض اقطاعا ، وعليه مقابل ذلك ان يكون مستعدا برجال قبيلته للخروج الى الحرب، أي ان كل ما كان يربط القبيلة بالحكومة المركزية هو اداء ما ينبغي عليها من المال والاشتراك في الحرب مقابل الرزق والعطاء ، وهذا ما ادى الى فقر الادارة المركزية وعجزها عن ادارة البلاد كلها ادارة موحدة ، وهبوط امر ولاة الاندلس واجتراء اجناد العرب في النواحي عليهم ، فاذا اهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، واذا استنجد رئيس عدد من القبائل ببني عمومته خفت قبائل باسرها لعونه ، فعندما غدر يوسف الفهري (١٢٩ ـ ١٣٨ هـ) بابن حريث الجذامي وعزله عن كورة رية بعد ان جعلها طعمة له ، غضب يحيى بن حريث وتضامن مع ابي الخطار على الصميل ويوسف الفهري واصفقت يمن الاندلس كلها حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها على تقديم يحيى بن حريث والتفت مضر وربيعة حول يوسف والصميل (٦) . .

وبما ان السلطة كانت قبلية ، فقد تجلى المفهوم القبلي للسلطة واضحا عند تنازع القبائل على امارة الاندلس ، اذ ان القبيلة المنتصرة كانت تقوم بالتنكيل بخصومها ولا تكتفي بنيل الامارة ، وهذا ما كان يشكل خطرا على قضية العرب والاسلام في ارض شبه الجزيرة الايبرية ، لا سيما وان الدويلة المسيحية الاسبانية نشأت وترعرعت واصبحت لها كل مقومات الدولة في فترة عصر الولاة(٧) .

لذلك عمل عبد الرحمن جاهدا على احلال سلطة الدولة ، ممثلة بالامير ، محل سلطة القبيلة ، وحاول تطبيق هذا المفهوم مباشرة اثر انتصاره ودخوله دار الامارة في قرطبة ، وتجلى ذلك في موقفه من القيسية ، اذ انه لم ينكل بهم وانما اخضعهم لسلطانه ومنع اتباعه من اليمانية من السلب والنهب(٨) ، كما منعهم من قتل اعدائهم واستئصال شأفتهم قائلا : « لا تستأصلوا شأفة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لمن هم اشد عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين(٩) .

اما موقفه من اليمانية الذين دعموه ، فانه بعد ان وصل الى الحكم اعتبرهم اتباعا له عليهم ان يأتمروا بأمره ، في حين انه لم يكن بالنسبة لهم اكثر من اداة لتحقيق ثأرهم من القيسية ، وكان هذا التباين في النظرة من العوامل التي أدت الى ثورتهم على عبد الرحمن ، بالرغم من انه حاول بعد دخوله قرطبة ان يتألف رؤساء القبائل ، فعمد لاستحضار الوفود الى قرطبة ، فانثالوا عليه ، كما يقول المقري ، ووالى عبد الرحمن القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم(١٠) .

كان من نتيجة الثورات التي اندلعت لا سيما ثورة اليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح اليحصبي (قتل سنة ١٤٩ هـ) ان استوحش من العرب قاطبة وانحرف عنهم كما يقول المقري : الى اتخاذ المماليك ، فوضع يده في الابتياع ، « فابتاع موالي الناس بكل ناحية واعتضد أيضا البربر وشجعهم على التوجه اليه من العدوة فأحسن لمن وفد عليه احسانا رغب من خلفه في المتابعة » . وينقل المقري كذلك عن ابن حيان « انه استكثر منهم ومن العبيد فاتخذ اربعين الف رجل صار بهم غالبا على أهل الاندلس »(١١) . ويشير صاحب الاخبار المجموعة الى ان الامير عبد الرحمن أوجد ما يسمى بعرافة السود ، وانه وضع الشراء في المماليك واللحق فثاب الناس اليه وسارعوا نحوه حتى صار في ديوانه جماعة .

بالاضافة الى هذه القوة التي بلغت أربعين الفا (وهو رقم فيه ما يدعو الى الشك) والتي جعلها عبد الرحمن تحت سيطرته المباشرة ، كان هناك الجيش المؤلف من الجند العرب . ومن نص يورده ابن الخطيب نستنتج ان الجيش انقسم في عهد الامارة الى فئتين رئيسيتين هما الشاميون والبلديون ، وانه كان لكل منهما نظام دقيق في العطاء لا نعلم تاريخ وصوله الى هذه الدقة وان كانت ملامحه الاولى قد ظهرت منذ عهد عبد الرحمن الذي قطع البعوث على الاجناد وجعلها بينهم دولا في كل ستة اشهر ، عندما ارسل مولاه بدرا وتمام بن علقمة الى طليطلة لمحاصرة هشام بن عروة(١٢) سنة ١٤٥ هـ ، ويبدو أن الشاميين كانت لهم الصدارة ، فكانوا عماد الجيوش واصحاب الديوان والكتبة فيه(١٤) . وكانوا أحرارا من العشر معدين للغزو ، ولهم لواءان ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الاهبة ، واللواء الغازي لا يقيم في الغزو الا ثلاثة اشهر ثم يعود ويخرج الثاني ، أما مدة عقد اللواء الغازي من البلديين فستة اشهر ، وكان اصحاب المعاقد من الشاميين يعطون مائتي دينار ، للواحد ، في حين يعطى الغازي بعقد من البلديين عند انقضاء الغزو مائة دينار ، ولا يعطى غير المعقود لهم شيئا . وكان الشاميون من غير بيوتات العقد يرزق الواحد منهم خمسة دنانير ، ويرزق اقرباء اصحاب المعاقد، مثل اخوته او بنيه او بني عمه ، عشرة دنانير عند انقضاء الغزو . وكان المعقود له

يقوم بتقديم اسماء من غزوا معه تحت لوائه ممن يستحقون العطاء فيعطونهم على قوله تكرمة له (١٥) .

اما تنظيم فرق الجيش فظل في عهد عبد الرحمن بسيطا كما كان قبلا منقسما الى فرقتين ، فرسان ورجالة ، ولكل منهما قائد يعرف بصاحب الخيل وصاحب الرجالة(١٦) . وكانت قيادة الجيش في الفترة السابقة للولاة ، اذ كانوا كما يقول المراكشي ولاة الحروب فيها(١٧) ، ولا نكاد نسمع بوجود قائد أعلى الا في عهد يوسف الفهري الذي جعل الصميل قائده الاعلى، فكان ليوسف الاسم وللصميل الرسم ، فاخذ يقرب من يشاء ويدفع من يشاء الى ان تمكن بالدولة (١٨) . فلما نجح عبد الرحمن في الدخول الى قرطبة نجده يقود الجيوش بنفسه أحيانا ، او يجعل قيادتها لبعض اقربائه ومواليه لاسيما مولاه بدر الذي ارسله مع تمام بن علقمة في جيش كثيف الى طليطلة لاخضاع هشام بن عروة ، كما ارسله الى الثغر حيث تقدم الى البة(١٩) فحاربها فأذعنت وأدت اليه الجزية(٢٠) ، وأرسله كذلك للقضاء على ثورة البربر بقيادة بحره ابن البرانس(٢١) . وعندما نقض يوسف الفهري العهد وخرج سنة احدى واربعين ومائة ولحق بطليطلة قدم الامير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني ، وكان قد نزل عليه في تلك السنة نفسها ، فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور ، فانتصر عبد الملك . كما ارسل جيشا بقيادة عبد الملك عندما زحف اهل غرب الاندلس نحو قرطبة لحربه انتقاما لقتل رئيسهم ابي الصباح ، وهكذا جعل القيادات اما للموالي وعلى رأسهم مولاه بدر ، او لافراد من البيت المرواني على راسهم عبد الملك بن عمر المرواني الذي اظهر اخلاصا وتفانيا في خدمة عبد الرحمن(٢٢) .

التقسيمات الادارية واهم الموظفين الاداريين

عمد عبد الرحمن اثر استتباب الامر له الى تعيين الولاة على الكور المختلفة . ولا تشير الروايات الى تقسيمات ادارية جديدة في عهده ، كما ان النصوص التاريخية التي بين ايدينا ليس فيها اشارة واحدة الى ان احدا من الولاة او الامراء او الخلفاء قام بتكوير الاندلس او تقسيمه الى اقسام ادارية ، حتى احمد بن محمد الرازي صاحب اول وأوفى تاريخ للاندلس لم يشر الى ذلك ، ونجد الاندلس في كلامه مقسما تقسيما اداريا ثابتا منذ زمن طويل ، فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار انها اشياء معروفة ، اما في جغرافيته (صفة الاندلس ، ٨٩٠ م) فيعطينا بيانا كاملا ليس فيه اشارة واحدة الى تغيير اوتعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك ، هو ان احدا من المسلمين لم يضع هذا النظام ، وانما وجدوا تقسيما قائما فساروا عليه مع تعديلات شكلية(٢٣) اقتضتها الاحوال الجديدة، واستبدلوا بما وجدوا من التسميات والمصطلحات ما حملوه معهم من المشرق .

فمصطلح الكورة مثلا لم يظهر الا بعد سنوات ، واول ما نسمع به في ١٢٠ هـ / ٧٤٣ م في خبر تفريق ابي الخطار الحسام بن ابي ضرار الكلبي للشامين على كور مذكورة باسمائها ، البيرة ، ورية ، وشذونة واشبيلية وجيان وباجة ، وتذكر ايضا تدمير ، ولكنها لم تكن اذ ذاك كورة ولم تصبح كورة الا في عهد عبد الرحمن الداخل(٢٤) . ويبدو ان نظام الكور ، فيما يتصل بنواحي الجنوب ، عم من ايام عبد الرحمن ، اما نواحي الثغور فقد ظلت مدنا ذات احواز حتى نهاية الخلافة ، وبهذا يكون العرب قد اخذوا فيما يتعلق بالتقسيم الاداري النظام الروماني القوطي الذي وجدوه ثم عدلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحي الحدود والثغور كما هي مدنا عسكرية ذات احواز . ولكن اذا كانت المدينة تابعة للكورة في المشرق فان الكورة هي التي تتبع المدينة في الاندلس لان العرب في الاندلس اخذوا الاساس الروماني وهو المدينة . وعرف الاندلس الاسلامي نظام الاجناد أو الكور المجندة ، ولم يعرف نظام الاجناد ، الا في الشام ، هذا النظام ، الذي كان من اوكد اسباب قوة الدولة الاموية ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس على ايام ابي الخطار بن الحسام ٧٤٣/١٢٥ ، مع اختلاف واحد هو ان الجند في الشام كان يضم كورا كثيرة ، اما في الاندلس فكان يقابل كورة واحدة . وقد ظلت هذه الاجناد عصبا من اعصاب القوة العسكرية حتى عهد الحاجب المنصور ، ولدينا من عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن (٢٣١ ــ ٢٧٣ هـ) بيان باعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفرسان الى جيش الدولة ، فاذا نظرنا الى هذا البيان لوجدنا ان اربعا من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان اضعاف ما تقدمه عشركور غير مجندة ، وذلك يعطينا فكرة عن الاهمية العسكرية لنظام الاجناد (٢٥) .

نلاحظ من تتبع الاحداث ان عبد الرحمن اعتمد في باديء الأمر على الزعماء القبليين فجعلهم ولاة في مناطق سيادتهم ، كأبي الصباح الذي عينه واليا على اشبيلية(٢٦) وسليمان بن يقظان عامل برشلونة ، وجابر بن العلاء بن شهاب عامل كورة رية ، وكان من القيسيين الذين دعموه(٢٧) . ولكن ثورة العصبيات جعلته يخلع الزعماء القبليين الذين اظهروا رفضا للانصياع الى سلطة الامير العليا ، ويضع بدلا منهم امراء من الامويين او الموالي ، كما فعل في طليطلة التي عين عليها حبيب بن عبد الملك(٢٨) ، واشبيلية التي جعل ولايتها لعبد الملك بن عمر بن مروان ، ويبرز من بين الموالي الذين اعتمدهم عبد الرحمن ، عبد السلام بن بسيل ، وبسيل مولى هشام بن عبد الملك ، اذ استعمله على شذونة وموزور ، والجزيرة ، واستعمله على كورة ماردة وغيرها من الكور . واعتمد عبد السلام بدوره على ابنه عبد الواحد في ادارة هذه العمالات . واذا كانت الروايات تقدم لنا اسماء بعض الولاة ، فانها لا تشير الى مدى صلاحياتهم وسلطاتهم ، ولكنها تظهر بوضوح ان عبد الرحمن كان يطلب من ولاته

الالتزام بالطاعة له وتدبير شؤون كورهم بما يتفق ومصلحة الدولة . ويتضح موقفه هذا من كتاب وجهه الى سليمان بن يقظان الاعرابي عندما وجد انـه سلك معه سبيل الخداع : « اما بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتمدنَّ يدا الى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، او لازوين بنانها عن رصف المعصية تكالا بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد » (٢٩) .

اما شؤون المعاهدين او العجم فقد تركهم المسلمون احرارا ينظمون امورهم على النحو الذي ارادوه ، ماداموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الامـوال ، فظلوا يفصلون في اقضيتهم وفقا للقانون القوطي القديم المعروف باسم Forum Judicum وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . واقام العرب على اهل الذمة والنصارى رئيسا منهم ولقبوه بقومس ، وجعلوه مسؤولا امامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، ونفهم من النص الذي يورده الراهب الـذي كتب مدونة البلدة Chronicon Albeldense ان العرب تركوا لاهل البلاد النصارى حـق اختيار حكامهم ومنظمي امورهم ، وانه كان هناك اكثر من قومس(٣٠) اي انه كان على راس النصارى في كل ناحيـة قومس من أولي الحنكـة والدهاء والمداراة والمعرفـة بالجباية اللازمة ، كما يقول لسان الدين ابن الخطيب(٣١) . وقد عين عبد الرحمـن لاول مرة في الاندلس رئيسـا عاما لهم عرف بقومس الاندلس(٣٢) يقيم الى جواره في قرطبة ويستشيره كأحد علية القوم(٣٣) ، وتسلم هذا المنصب ارطباس الذي يذكره ابن القوطية على انه ابن لغيطشة ، وكان قد انضم الى العرب المسلمين وساعدهم في فتح الاندلس . ولكن قومس الاندلس لم يكن له حق تعيين قمامسـة النواحي لان ذلك كان يعطيه سلطانا واسعا خطرا ، لا سيما وان النصرانيةكانت لا تزال واسعةالانتشار . ويذهب سيمونت Simonet الى ان سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المـدن التي ينتخبهم اهلها بل يمتد الى كل الناحية الداخلة في زمامها ويقول « ولا شك انـه كان يعاون القمامسـة موظفون آخرون ، اصغر منهم ، يعملون تحت ادارتهم ويخضعون لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلة في زمـام ناحيتهم ، ويتولـون الاعمال المختلفة من ادارية ومالية وقضائية »(٣٤) .

الى جانب الولاة ورؤسـاء اهل الذمة الذين ساعدوا عبد الرحمن في ادارة الدولة نجد المصادر تشير ، ولاول مرة ، الى وجود حجاب وكتاب ووزراء بالاضافة الـى القضاة ، في حين تهمل ذكر هؤلاء في الفترة السابقة .

وتكاد المصادر تجمع على ان عبد الرحمن كان لا يكل الامور الى غيره ، ولكنـه ايضا لا ينفرد في ابرامها برأيه ، ولذلك نجد انه جمع حوله عددا مـن المستشارين

اطلق عليهم البعض اسم الوزراء . ولكن المقرى يعلق ان الداخل لم يكن له من يطلق عليه سمة وزير ، ولكنه عين أشياخا للمشاورة والمؤازرة ، وكان بعض هؤلاء من الموالي وبعضهم الآخر من العرب ، أولهم ابو عثمان القائم بأمر دولته وعبد الله بن خالد ، وكذلك شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البربر وقيل انه رومي ، وعبدالسلام بن بسيل الرومي ، وقد اصبح لولده فيما بعد نباهة عظيمة في الوزارة وغيرها . أما من العرب فنجد ذكرا لثعلبة بن عبيد بن نظام الجذمي صاحب سر قسطة لعبد الرحمن، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته(٣٥). لا ننسى انه اعتمد ايضا على الامراء الامويين ، وعلى رأسهم حبيب بن عبد الملك الذي كان من بين من يشاورهم في رايه وادارته ويضمه الى خاصته من نقباء دولته وسائر اصحابه(٣٦) . اما كتابه فكانوا كلهم من الموالي ، فاذا تتبعنا اسماءهم ، وجدنا ان بعض مستشاريه كانوا في الوقت نفسه كتابا له ، وعلى رأسهم كبير نقبائه ابو عثمان ، وصاحبه عبد الله بن خالد ،وبالرغم من ان امية بن يزيد مولى معاوية بن مروان كان يكتب قبله ليوسف الفهري ، فانه اتخذه كاتبا له وكان ايضا في عداد من يشاوره ويفضل امره وآراءه(٣٧) . واتخذ عبد الرحمن لنفسه حجابا كلهم من الموالي الا منصور الخصي الذي كان اول خصي استحجبه بنو مروان بالاندلس ، ولم يزل حاجبه الى ان توفي الداخل(٣٨) .

نظم الداخل ايضا شؤون الامن ، فنجد لاول مرة ذكرا لوال على الشرطة .وكان اول صاحب شرطة هو الحصين بن الدجن بن عبد الله العقيلي ؛ فارس أهل الشام ، حضر يوم المصارة مع عبد الرحمن فأحسن البلاء ، فلما استوسق الامر لعبد الرحمن عرف لصالح بلائه فاختصه وولاه الشرطة(٣٩) . كما ضم عبد الرحمن مواليه فجعلهم احراسه (٤٠) .

نستنتج مما تقدم ان عبد الرحمن اتخذ لنفسه عصبية خاصة من اقربائه ومواليه اعتمد عليها منذ ان بدت في الافق ملامح تمرد انصاره من اليمانية عليه ، فاقطعهم الاقطاعات وميزهم بالرتب والمناصب العالية(٤١) . ولم يلبث الامويون ان كونوا في المجتمع الاندلسي طبقة خاصة من نبلاء الدم عرفت بطبقة القرشيين ، كانت تحيط بالامير في بلاطه ولها حق التقدم على غيرها في الاحتفالات الرسمية ، كما كانت تتمتع بامتيازات كثيرة بالاضافة الى المرتبات الضخمة التي كان بعض افرادها يتناولونها ، ويظهر ان ديوانا انشيء لهذه الغاية عرف بديوان قريش . ونظمت هذه الطبقة فيما بعد ليصبح لها نقيب خاص على شاكلة نقيب الهاشميين في المشرق(٤٢)، كما ان الموالي الذين اختصهم عبد الرحمن بالاقطاعات والوظائف لم يلبثوا خلال عصر

الامارة ان اشتهر منهم موظفون كبار في البلاط ، فكونوا نواة تلك الطبقة النبيلة التي قامت نبالتها على الوظيفة ولعبت دورا بارزا في الاحداث خلال عصر الخلافة(٤٣) .

بالرغم من كل ما قدمه عبد الرحمن لاقربائه ومواليه ، وما فعلوه هم من اجل الدفاع عنه ، فانه كان ينظر اليهم كاتباع لا كشركاء في هذه الدولة التي شادهابنفسه، وكان يصرح ان لا منة لاحد عليه في انشائها بعد الله عز وجل ، وان ما فعله بالنسبة لاقربائه شيء عظيم اذ اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ولذا فحقه عليهم اعظم من حق المنعم على المولى (٤٤) .

ان نظرة عبد الرحمن هذه ، جلبت عليه نقمة بعض هؤلاء ، الذين حاولوا فيمابعد الاطاحة بحكمه وحياته ، فكانت ردود فعله بالتالي قاسية شديدة القسوة ، لا سيما على اقاربه ، فقد قتل في ١٦٣ هـ عبد السلام بن يزيد وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن ابان بن معاوية ، وهو ابن اخيه ، لتآمرهما عليه ، ويقال ان ابا عثمان كبير الدولة قد ساعدهما على ما هما فيه من الخلاف ، ومع ذلك فلم ينله ما نالهما(٤٥) . ولما قيل لعبد الرحمن ان ابا عثمان كان معه وهو الذي ضمن له تمام الامر قال : هو ابو سلمة هذه الدولة فلايتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شان ابي سلمة ، ولكن سأعتبه عتبا اشد من القتل(٤٦) .

القضاء : ان اقدم تاريخ لقضاة الاندلس هو كتاب « تاريخ قضاة الاندلس » لمحمد بن الحارث بن اسد الخشني ، وهو مغربي من تونس اورد أسماء ثلاثة رجال ذكر انهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشي ، وذكر انهم كانوا قضاة ايام الولاة ، قبل قيام الدولة الاموية (٤٧) ، وذكرهم ايضا ابو الحسن النباهي في كتابه « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر في حوليات الاندلس ولم يشر اليهم احد من اصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضي ، وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة . ومعظم أخبارهم عند الخشني منسوبة الى احمد بن فرح بن منتيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الاندلسي ، فقد ذكر ابن الفرضي انه كان ينسب الى اعتقاد مذهب ابن مسرة ، وكان المسريون يعتبرون في عداد الزنادقة عند فقهاء الاندلس ، فأخبار ابن سنتيل ، لهذا ، مشكوك فيها لا يوثق بصحتها(٤٨) .

ومهما كان نصيب اخبار اولئك القضاة الثلاثة من الصحة فمن الثابت وجود قاض عندما دخل عبد الرحمن الاندلس ، وهو يحيى بن يزيد التجيبي ، الذي كان يطلق عليه اسم قاضي الجند(٤٩) . ويشير الخشني الى ان هناك شبه اجماع على ان

يحيى بن يزيد انما استقضي على الاندلس بالمشرق فقدمها قاضيا . ولكن الروايات اختلفت فيمن ولاه ، فبعضها عن ابن وضاح تقول انه عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) وبعضها تذكر انه لما قدم بلج بن بشر الاندلس واضطربت الاوضاع اتصل الخبر بحنظلة بن صفوان الكلبي ، فوجه الى الاندلس ابا الخطار حسام بن ضرار الكلبي عاملا عليها ووجه معه يحيى بن يزيد التجيبي قاضيا ، وكان من عرب الشام الساكنين في افريقية ، اي انه دخلها في خلافة هشام بن عبد الملك(٥٠) . ويؤكد هذه الرواية ابن القوطية الذي يشير الى ان قاضي هشام بن عبد الملك في الاندلس كان يحيى بن يزيد التجيبي ، اما صاحب الاخبار المجموعة ، فيذكر انه كان مستقضى من الشرق فلم يعرض له يوسف لرضا اهل الاندلس به (٥١) .

وعندما دخل عبد الرحمن قرطبة وقام بالامامة كان القاضي يحيى بن يزيد فاثبته على القضاء ولم يعزله ولقبه بقاضي الجماعة ، اي انه استحدث هذا المنصب الذي ظل طوال تاريخ الاندلس تقريبا لقبا لقاضي الحضرة او العاصمة ولكبير قضاة الدولة الاندلسية ، وهو ما يعادل قاضي القضاة في المشرق(٥٢) .

ونظرا لاضطرار قاضي الجماعة الى الاستقرار في العاصمة ، فقد مست الحاجة الى اقامة قاض خاص بالعسكر يخرج مع الجيش ويعود معه . ونلاحظ في الاندلس مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضيا للجند ثم صار قاضيا للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الامير في الغزوات(٥٣) . ثم اختص قاضي الجماعة بالحاضرة ، واناب عنه قاضيا اخر للعسكر . وكان أول قاض للعسكر جدران ابن عمرو المذحجي من اهل مالقة ومن الذين دعموا عبد الرحمن(٥٤) .

واذا درسنا سيرة قضاة عبد الرحمن وجدناهم من الوافدين الى الاندلس ومن أهل الحديث ، ولعل أشهرهم ، بعد وفاة يحيى ، معاوية بن صالح الحضرمي ، الذي كان من اهل الشام (من حمص)(٥٥) قدم الى مصر ثم الاندلس(٥٦) ، وكان من جلة اهل العلم ورواة الحديث وشارك مالك بن انس في بعض رجاله(٥٧) ، وكان أول من دخل الاندلس بالحديث ، لا سيما حديث اهل الشام ، وكان منفردا به في زمانه ، والدليل على رئاسته وانفراده ان زيد بن الحباب العكلي ، وهو من رجال ابي بكر بن ابي شيبة المشهور في اهل الحديث ، رحل الى الاندلس من العراق واخذ عنه كثيرا من الحديث ولكن اهل الاندلس لم يجمعوا حديث معاوية لانه قدم ، كما قال الخشني عن محمد ابن وضاح ، بلدا لم يكن أهله يومئذ اهل علم(٥٨) . وقد وجه عبد الرحمن معاوية بن صالح الى الشام وحج في سفرته تلك ، وكتب عنه أهل العراق كثيرا من الحديث ، فلما عاد ولاه الامير عبد الرحمن القضاء والصلاة ، ويتضح مما يذكره ابن الفرضي ان

قضاة قرطبة كانوا كلهم من العرب وان الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ) كان اول من استقضى بقرطبة من الموالي .

بالاضافة الى القضاة وجد ابتداء منذ عهد عبد الرحمن ، مشايخ للافتاء ، مثل عيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى ، وسعد بن حسان . الا ان اشهرهم كان ابو موسى الهواري الذي يعتبر عالم الاندلس ، رحل الى المشرق من الاندلس بعد دخول عبد الرحمن ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، فكان اذا دخل الى قرطبة لم يفت احد من مشايخ قرطبة حتى يرحل عنهم .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل دخل كذلك الغازي بن قيس الاندلس بالموطا عن مالك بن انس ، وقراءة نافع بن ابي نعيم(٥٩) . وكذلك نجد ان مصعب بن عمران الذي اصبح قاضيا للامير هشام دخل الاندلس وهو شاب في ايام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان راوية عن الاوزاعي وغيره من الشاميين ، اي اننا نلاحظ نشاطا في اقتباس الاندلس من الثقافة المشرقية وهو امر يكاد يكون مفقودا في الفترة السابقة ، اذ كان الولاة حتى عهد عبد الرحمن الغافقي (ت ١١٤ هـ) يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد ثم انشغلوا بعد ذلك بالمشاكل الداخلية كثورة البربر والخلاف بين البلديين والشاميين ، وما تبع ذلك من عصبية بلغت اوجها في معركة شقندة ، يضاف الى ذلك ان عرب الاندلس غادروا المشرق في اواخر القرن الاول ومطلع القرن الثاني، قبل ان تتطور الثقافة العربية الاسلامية فيه ، كما ان غالبيتهم كانت في مستوى لا يؤهلها لحمل العلم ونقل الثقافة، اذ كانت من الجند المحاربين ، ولنا في الصميل بن حاتم الامي احد زعمائهم مثلا واضحا على مستواهم الفكري . ولهذا اقتصر اقتباس الاندلسيين في هذه الفترة من عهد الامارة على ما هو ضروري لتسيير امور الحياة وفق احكام الدين الاسلامي فسار الاندلسيون على راي الامام الاوزاعي في بادىء الامر ، ثم انتشر المذهب المالكي وساد اعتبارا من ايام هشام الرضا (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ) .

التنظيم المالي : على الرغم من سكوت المصادر عن التنظيم المالي في الاندلس في فترة الداخل فلا شك انه كان استمرارا للتنظيم الذي طبق في عهد الفتوح وعصر الولاة ، ولذلك لابد من الاشارة اليه والى التدابير التي ربما اتخذها عبد الرحمن الداخل والتي يمكن التوصل اليها عن طريق الاستنتاج .

سقطت اراضي الاندلس في ايدي المسلمين باشكال مختلفة ، فبعض الاراضي سقطت عنوة وبعضها الاخر وجده المسلمون خاليا فاحتلوه ، وبعضها نزله اهله على الصلح فاحتفظوا باراضيهم وجرى التعامل بينهم وبين الفاتحين بموجب شروط

معاهدات معقودة بين الطرفين . وهذه الشروط مع بعض الاختلافات الجزئية فيما بينها احتوت بصورة جوهرية على امرين : ان يدفع هؤلاء جزية عن رؤوسهم وخراجا عن اراضيهم كان على الاغلب جزءا من غلة ارض يعادل الثلث حينا والربع حينا(٦٠) . أما ارض العنوة فعوملت كلها معاملة الغنيمة ولم تعتبر كما حدث في ارض السواد والشام ومصر ارض فيء ، حيث ابقى عمر بن الخطاب ارض العنوة بيد اصحابها على ان يدفعوا الجزية والخراج . ومعنى هذا ان ارض العنوة قسمت على المقاتلة بعد اخراج الخمس منها ، وجرى هذا التقسيم حسب بعض الروايات بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير(٦١) . وتشير بعض الروايات الى انه لم يبق بالاندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم إلا وقسم موسى بن نصير بينهم اراضيها . في حين تشير روايات اخرى الى ان الوقت لم يسمح له بتخميس كل اراضي العنوة ، وانه قسم وخمس بعض البلاد واعجلته حركته منها ، اي انه لم يستطع ان يقوم بهذا العمل كله ، ولذلك ارسل الخليفة عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني من دمشق وامره ان يخمس ارضها ويخرج منها ما كان خمسا لله من ارضها وعقارها(٦٢) ، وعندما اراد السمح تطبيق ذلك اظهر العرب رغبتهم في العودة الى المشرق ، كما اظهروا خوفهم من ان يشاركهم القادمون الجدد الذين قدموا مع السمح بن مالك في اراضيهم . ولذلك اضطر عمر بن عبد العزيز ان يقرهم على ما بايديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير ، وامر واليه ان يقر القرى بأيدي اربابها ، وان يقطع الجنود المرافقين له من اراضي الاخماس(٦٣) .

وعندما فرّق أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥ – رجب ١٢٧هـ) الشاميين في الكور جعل لهم ثلث اموال أهل الذمة من العجم طعمة(٦٤) ، أي ان الدولة لم تكن تحصل الا علي الثلثين من اموال أهل الذمة في هذه الكور المجندة ، وربما أقل في حالات الفوضى والاضطراب .

ومهما كان المال الذي يصل الى الولاة في قرطبة ، فلا بد ان نتساءل عما كانوا يفعلون به ، وهل كانوا ينفقونه في الوجوه التي تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشؤونها واداء الرواتب لاصحابها ، ثم ارسال الباقي الى دمشق ...؟ هنا نجد انفسنا امام حالة فريدة في بابها في اخبار تلك الايام ، اذ ليس لدينا نص صريح واحد يدل على ان شيئا من مال الاندلس كان يرسل الى المغرب او المشرق ، وليس لدينا من اخبار التعمير الا ماتذكره المصادر عن اعادة بناء قنطرة قرطبة وانشاء جبانة المسلمين في عهد السمح بن مالك ، بل ليس لدينا ما يشير الى مطالبة الخلفاء بأموال الاندلس ، كما كان الحال في مصر او افريقية. ولايمكن تعليل هذا الصمت الا بأن ولاة الاندلس لم يكونوا يرسلون الى افريقية او الى المشرق شيئا من المال ، وان الخلافة كانت يائسة

من امر الاندلس لا تنتظر منها مالا ،والراجح ان معظم ما كان يصل الى عمال الاندلس كان يضيع بين ارزاق الجند واعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرت ؛ واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها ؛ ثم في الصراعات الداخلية في الاندلس . كما ان الاندلس لم يل امورها خلال هذه الفترة ، فترة عصر الولاة كلها ، الا خمسة ولاة من الطراز الذي يرجى منه ان يقرر شؤون الاندلس المالية على وجه الاحكام والضبط ؛ وهم موسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى (قتل سنة ٩٧ هـ) والسمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ــ ١٠٢هـ) وعبد الرحمن الغافقي (١٠٢ ــ ١٠٣ ــ ١١٢ ــ ١١٤ هـ) وعقبة بن الحجاج السلولي (١١٩ ــ ١٢٣ هـ) . ومن الغريب ان هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم من ان يقوموا بشيء ايجابي في هذه الناحية . أما الباقون فكانت اشخاصهم من الضعف او البعد عن التنظيم والميل الى الفوضى بحيث نستبعد ان يكونوا قد استطاعوا او اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديوانا ماليا منظما(٦٥) ، واكبر الظن ان تنظيم الادارة المالية قد بدات بوادره في عهد عبد الرحمن الداخل ، لاننا نجد في فترة الاستقرار والازدهار من عصر الامارة (٢٠٦ هـ الى ما بعد أواسط القرن الثالث الهجري) ذكرا لمراتب اهل الخدمة في قسم الادارة المالية . وايجاد مثل هذه المراتب من مديرين وأمناء ومفتشين ، ثم تصنيف المقامات حتى ضمن المرتبة الواحدة يحتاج الى فترة زمنية اطول من تلك التي انقضت بين وفاة الداخل سنة ١٧٢هـ وعهد عبد الرحمن الاوسط . كما ان تأسيس الدولة واصطناع الموالي والمماليك، وايجاد جهاز اداري ،وبناء مسجد قرطبة الذي انفق عليه وفقا لما يرد في الروايات مائة الف بالوازنة، ومتابعة الجهاد وما يتطلب ذلك من نفقات ، كل هذه الامور تدفعنا الى الاعتقاد بان الداخل عمد الى تنظيم الموارد المالية بشكل يؤمن للدولة متطلباتها ولا شك بانه عمد كذلك الى مصادرة اموال واقطاعات الذين ثاروا عليه ، وحد من عدد الضياع الكبيرة التي منحت لبعض امراء البيت الحاكم القوطي . فقد امضى طارق لاولاد غيطشة حسب رواية ابن القوطية القرطبي ثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فكان للمند بن غيطشة الذي آثر سكنى اشبيلية الف ضيعة غرب الاندلس ؛ ولارطباس ابنه الاخر الف ضيعة في وسط الاندلس ولزم سكنى قرطبة ، وصار لرملة Ramulo الف ضيعة بشرق الاندلس وآثر سكنى طليطلة (٦٦) . وقد امر عبد الرحمن وفق رواية ابن القوطية بقبض ضياع ارطباس ، ولكنه بعد ذلك امر له بعشرين ضيعة فقط صرفت له . فاذا كان عبد الرحمن قد قبض ضياع ارطباس ، فلا شك انه قبض ضياع آخرين ، وربما استخرج اراضي الخمس التي يجب ان يكون موردها للدولة ، وامر بتسجيل ما يجب ان يجبى من كل كورة في ديوان خاص كما كان الأمر في المشرق . اما من حيث الجباية فيبدو انه قد ترك الامور على ماكانت عليه ، لان النص الذي يورده الطرطوشي يشير الى هذا الاستمرار حتى عهد الحاجب المنصور ، حيث يقول نقلا عن شيوخ الاندلس

من الاجناد وغيرهم : « ان اهل الاسلام ما زالوا ظاهرين على عدوهم وامر العدو في ضعف وانتقاض لما كانت الارض مقطعة في ايدي الاجناد ، فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين ، وكانت الارض عامرة والاموال وافرة، والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه ، الى ان كان الامر في اخر ايام ابن ابي عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على النطع ، وقدم على الارض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا واجتاحوا اموالهم واستضعفوهم ، فتهاربت الرعايا ، فضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الاجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منها ، ولم يزل امر المسلمين في نقص وامر العدو في ظهور الى ان دخلها الملثمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم » (٦٧) .

وفي الختام لا بد من الاشارة الى ان نجاح عبد الرحمن بتأسيس دولته وتنظيمها والقضاء على الزعامات والثورات ، وفرض هيبة الدولة ، ترك اثره الكبير على علاقاته الخارجية ، فان خيبة شارلمان في حملته على سرقسطة ونجاح عبد الرحمن في اعادتها الى حظيرة طاعته ؛ دفعت شارلمان الى تغيير سياسته نحو شبه الجزيرة ، فتخلى عن السياسة الهجومية ؛ ولجأ الى سياسة تغلب عليها صفة الدفاع ، وهكذا انشأ ضمن امبراطوريته (١٦٥هـ / ٧٨١ م) مملكة اكيتانيا ، ويبدو ان مهمة هذه المملكة كانت مراقبة الاراضي الاسلامية المجاورة الواقعة بين البيرينيه ونهر ابره (Ebro) لتأمين الدفاع عن الممتلكات الكارولنجية والغرب المسيحي ، والاستيلاء عندما تسنح الفرصة على اية ارض اسلامية تبدو لهم فريسة سهلة . اما بالنسبة لدولة اشتوريش ؛ وهي الدويلة الاسبانية الشمالية ، فان توحيد قوى الاندلس تحت راية عبد الرحمن وعبور جيش الامير ووصوله حتى منابع نهر ابره ، وفرضه الجزية على مسيحيي الشمال ، ونجاحه في تقويض سيادتها من الداخل ادى الى ظهور حزب يدعو للخضوع لرغبات الامير الاموي وعدم جدوى الوقوف في وجهه ، واغتيل خليفة الفونسو الكاثوليكي السائر على سياسة معاداة المسلمين ، وتتابع بعده خلال خمس وعشرين سنة ثلاثة من الملوك بدعم وتأييد من عبد الرحمن . وكان هؤلاء الملوك يدفعون الجزية المالية التي وصلت الى حد الاذلال وسمى البعض فترة حكم هؤلاء في اشتوريش فترة التعرب ، لانها كانت تدور في فلك قرطبة ليس سياسيا فقط بل حضاريا ايضا(٦٨) .

وهكذا يعود لعبد الرحمن الفضل في انهاء عصر الولاة المضطرب واقامة دولة اسلامية واحدة تقيم شأن الاندلس الاسلامية ، بعد ان اوشك على الانهيار.

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، مكتبة صادر ، بيروت ، ج٢ ص٥٨.

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، بيروت ط ١٩٧١ ، ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) احمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ط .اولى ١٣٦٧ هـ ج٤ ص ٤٩ .

(٤) ابن القوطيه ، تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠ . وهناك امثلة متعددة عن وجود رئاسات في لبلة وباجة ومناطق اخرى ، ص ٥٥ ، والمقرى ، نفح الطيب ، ج٤ ص ٢٨ .

(٥) فرق ابو الخطار جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد من دار الامارة قرطبة ، اذ كانت لا تحملهم وانزلهم مع العرب البلديين على شبه منازلهم في كور شامهم ، فانزل في كورتي لبلة واشبيلية جند حمص مع البلديين ، وانزل في كورة شذونة والجزيرة جند فلسطين ، وانزل في كورة رية جند الاردن ، وانزل في كورة البيرة جند دمشق ، وفي كورة جيان جند قنسرين . اما جند مصر فانزلهم فيكورة باجة وانزل باقيهم في كورة تدمير ، وجعل لهم ابو الخطار ثلث اموال اهل الذمة من العجم (ابن الابار ، الحلة السيراء ، ط ١٩٦٣ ، ص ٦١ ، ٦٣ ، ابن القوطية، المصدر السابق،ص٤٤ــ٥٠)ابن عذارى ، ج٢ ص ٤٨ .

(٦) ابن عذاري ، ج٢ ص ٥٢ ، اخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، مدريد ١٨٦٧، ص ٥٩.

(٧) احمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ،ط ١٩٧٢ ،ص١٠٢.

(٨) اخبار مجموعة ، ص ٩ .

(٩) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤١ .

(١٠) المصدر السابق ، ج٤ ص ٣٨ .

(١١) المصدر السابق ، ج٤ ص ٣٦ ، ابن خلدون ، ج٤ ص ١٢٣ .

(١٢) اخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

(١٤) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط ٢ ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣، المجلد الاول ص ١٠٤ .

(١٥) المصدر السابق ص ١٠٤ .

(١٦) اخبار مجموعة ، ص ١٠١ .

(١٧) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ ،ص١٢.

(١٨) ابن عذاري ، ج٢ ص ٥٤ .

(١٩) البا Alaba تقع الى الجنوب الغربي من بمبلونا Pamplona في مقاطعة نبارة Navarra

(٢٠) ابن عذاري ، ج٢ ص ٧٩ .

(٢١) ابن خلدون ، ج٤ ص ١٢٣ .

(٢٢) المقري ، ج٤ ص ٥٩

(٢٣) د. حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٣٦.

(٢٤) المرجع السابق .

(٢٥) ابن عذاري ، ج٢ ص ١٦٢ .

(٢٦) اخبار مجموعة ، ص ١٠٦ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٢٨) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج١ ص ٥٩ـ٦٠ .

(٢٩) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ص ٣٩.

(٣٠) حسين مؤنس ، ص ٤٦٠ .

(٣١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، المجلد الاول ، ص ١٠٦ .

(٣٢) ابن القوطية ، ص ٦١ .

(٣٣) المصدر السابق .

(٣٤) Simonet, Historia de los Mosarabes des Espana, p. 108.

حسين مؤنس ، ص ٤٦

(٣٥) المقري ، نفح الطيب ج٤ ، ص ٤٥ .

(٣٦) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج١ ص٦٠ .

(٣٧) المقري ، ص ٤٥.

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٥.

(٣٩) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٢٥٥ .

(٤٠) اخبار مجموعة ، ص ٦١ ، ابن الابار ، ص ٢٥٥ .

(٤١) المقري ، ج٤ ص ٥٩ـ٦٠ .

(٤٢) احمد بدر ، المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٤٣) المرجع السابع ، ص ١٠٨ .

(٤٤) ابن الابار ج١ ص ٤٩ـ٤٠ ، المقري ، ج٤ ص ٤٢ ، ٤٦ ابن عذاري ، ج٢ص٨٧.

(٤٥) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ص٤٤.

(٤٦) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٤٧) الخشني ، قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، ط ١٣٧٢ ص ١٨ـ٢٠ .

(٤٨) ابو الحسن النباهي ، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ، أ. ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٢ـ٤٣.

(٤٩) الخشني ، ص ٢٨ ، ابن القوطية ، ٥٨ ، اخبار مجموعة ، ص ٩٣.

(٥٠) الخشني ، ص ٢٨ ،٢٩ .

(٥١) الاخبار المجموعة ، ص ٩٣ .

(٥٢) احمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ١٠٦ .

(٥٣) الخشني ، ص ٣٢ .

(٥٤) المقري ، ج٤ ص ٣١.

(٥٥) الخشني ، ص ٣٠ .

(٥٦) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، ص ١٣٩.

(٥٧) الخشني ، ص ٣٠

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٥٩) ابن القوطية ، ص٥٨ ، ٥٩ ، ابن الفرضي ، ص ٢٠٠ .

(٦٠) احمد بدر ، ص٤١ .

(٦١) الرسالة الشريفة ، ص ٢٠٤ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، اخبار مجموعة ، ص ٢٣.

(٦٣) ابن القوطية ،ص ٤٤-٤٥ ، ابن الابار ص ٦١.

(٦٤) انظر الحاشية رقم (٥) .

(٦٥) ابن القوطية ص ٢٩-٣١ .

(٦٦) ابو بكر الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٠٧.

(٦٧) احمد بدر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية
في منطقة ما بين النهرين السورية
(في القرنين الخامس والسادس)

(القسم الثاني)*

د . نعيم فرح
جامعة دمشق

٤ ـ العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في الارياف السورية :

آ ـ التركيب الطبقي في الارياف السورية :

ان تحليل المصطلحات الاجتماعية والاخبار التاريخية الواردة في أسفار يشوع العمودي عن الطبقات الاجتماعية وعلاقاتها المتبادلة يكشف اسس العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في أرياف منطقة ما بين النهرين السورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وتشير المصادر التاريخية الى ان طبقة الفلاحين كانت تضم عدة فئات : فالفلاحون الكولون كانوا يشكلون الفئة الكبرى من طبقة الفلاحين العاملين في الارض . وفي الوقت ذاته وجدت فئة من الفلاحين العبيد ، كما وجدت فئة اخرى من الفلاحين الاحرار صغار الملاكين .

يميز يشوع العمودي جميع السكان العاملين في الزرعة عن سكان المدن ، فيطلق عليهم عادة اسم « القرويين » المشتق من كلمة « قرية » (بالسريانية : قوريس) . اما القرى الكبيرة فتحمل بالسريانية اسم « قريتو » . ودخلت في الاستعمال اليومي للغة السريانية الادبية ايضا الكلمة اليونانية « خورا » المستخدمة بمعنى منطقة أو محافظة . وعندما يتحدث يشوع العمودي عن العاملين المنتجين في القرية يطلق عليهم اسم « أكاري » (agricolai) و « بلاحي » (فلاحون) georgoi (١) . والمؤلف اذ يذكر الاسم « أكاري » والاسم « بلاحي » في وقت واحد ، فانه ، على ما يبدو ،

---

* نشر القسم الاول من هذا البحث في العدد ٢٣ ـ ٢٤ من هذه المجلة ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٦ .

يميز بين المزارعين والفلاحين . فالاصطلاح « بلاح » (الذي صار بالعربية فيما بعد فلاح) مشتق من فعل عربي قديم « بلح » (فلح) الذي يعني العمل بصورة عامة ، لكنه يعني بشكل خاص تنفيذ العمل الزراعي في الارض(٢). أما الفعل « أكر » فله معنى ضيق محدد يستخدم فقط للتعبير عن العمل الذي يمارس في الارض ، واحيانا يعني « حرث » ، كما يقابل الجذر البابلي الكلداني « اكارو » ikkaru ، ويقصد به « حارث » agricola , arator (٣).. ويمكننا من خلال تحليل تعابير المصادر السريانية الاخرى ان نوضح بصورة ادق معنى هذين المصطلحين المتشابهين : «اكار» و « بلاح » ، مع العلم انه لا يوجد مصطلحات سريانية دقيقة مطابقة للمصطلحات المستعملة في هذا المجال باللغتين اليونانية واللاتينية . ففي الاسفار المنسوبة الى زكريا الميتيليني (الملطي) ورد ان الفلاحين من القرى « بلاحي من فوريس » كانوا يجتمعون في السوق تحت اسوار مدينة آمد السورية . وهنا في عداد الفلاحين يمكن أن يكون الكولون والمزارعون الاحرار معا .

كان القانون السوري (الذي يضم مجموعة من القوانين التي صدرت قبل صدور قوانين الامبراطور البيزنطي جستنيانوس) قد ترجم من اليونانية الى السريانية في الربع الاخير من القرن الخامس الميلادي . ورغم ان الاصل السرياني لهذا القانون لم يعثر عليه حتى الان ، فان خاتمات المخطوطات السريانية المنسوخة عنه تفيد بان الترجمة تمت من الرومية (أي من اليونانية). ويتضمن هذا القانون السوري «قوانين وأوامر مدنية » وضعها الاباطرة البيزنطيون : قسطنطين الاول ٣٠٦ — ٣٣٧ ، تيودوسيوس الثاني ٤٠٨ — ٤٥٠ ، ليون الاول ٤٥٧ — ٤٧٤ (٤) . ان القانون السوري (السرياني) ، اذ يتحدث عن السكان العاملين بالزراعة في سورية يميز أيضا بين المصطلحات ، فالفلاح الحر يطلق عليه اسم «جبرا» أي «رجل» . أما الفلاح الكولون التابع لسيد فيطلق عليه اسم « بلاح » ، وذلك في المادة التي تحظر إيواء الفلاحين الكولون الهاربين . والمصطلح اليوناني اينابوغرافوس Enapographos الذي يعني الكولون غير الحر المرتبط بالارض والتابع لسيد قد ورد في النسخة اللندنية للقانون السوري كما هو باليونانية ، ولكن بحروف سريانية دون ترجمة(٥). أما النسخة الباريسية للقانون السوري فتطلق على الفلاح الكولون اسم « الرجل الفلاح » المسجل باسم اينابوغرافوس Enapographos (٦) . ان المصطلح اليوناني « اينابوغرافوس » (باللاتينية adscriptitius) موضح في القانون السوري بمعنى الفلاح التابع لسيد من كبار الملاكين والمرتبط بالارض لا يحق له مغادرتها . ومن أجل تنظيم واردات الخزانة من الضرائب ، كان الفلاح الكولون غير الحر يسجل في قائمة ممتلكات سيده الى جانب الارض التي يعمل بها ، كما كانت جميع علاقاته مع الدولية

تتم عن طريق ذلك السيد . وكان هذا الفلاح الكولون في وضع قريب من وضع العبد الذي يعمل في أرض سيده ، فان ترك الارض دون علم سيده يعتبر هاربا ، ويحظر القانون ايواءه ، مثله مثل العبد الهارب(٧) .

١ ــ الفلاحون من فئة الكولون الحر :

في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وجدت في سورية فئة كبيرة من الفلاحين الكولون . وتميز النصوص القانونية البيزنطية بين الفلاح من فئة الكولون الحر ، والفلاح من فئة الكولون غير الحر . فبالنسبة للفلاح الكولون الحر Coloni liberi لم يكن ملزما بالبقاء في الارض التي استأجرها من المالك الكبير ، بل كان يعمل فيها بشروط محددة ،وله الحرية بمغادرتها في الوقت الذي يريده . ومن الناحية القانونية كان الفلاح من فئة الكولون الحر شخصا حرا يحق له امتلاك الاراضي والقطيع والادوات الزراعية ودور السكن وغير ذلك . اما الاراضي التي يستلمها هذا الفلاح من احد المالكين الكبار ليستثمرها مقابل تقديم حصة من انتاجها للمالك ، فكانت ملكيتها تبقى للمالك الاصلي . وكان يحق للفلاح من فئة الكولون الحر (عند تحسن اوضاعه المادية وحصوله على املاك خاصة به كافية لاعالته مع أسرته) ان يترك ارض الملاك الكبير ، فيصبح ملاكا حرا كأي ملاك حر اخر . ولكن ازدياد الضرائب ادى الى افقار الفلاح الكولون الحر ، فانعكس هذا الامر على وضعه الحقوقي . فبموجب القانون البيزنطي الذي صدر في سنة ٣٦٥ فقد الفلاح الكولون الحر حق بيع أرضه الخاصة دون موافقة سيده المالك الكبير . ومع تدهور اوضاعه المادية تحول الفلاح الكولون الحر تدريجيا الى فلاح كولون غير حر تابع لسيده ومرتبط بارضه لا يحق له مغادرتها(٨) .

٢ ــ الفلاحون من فئة الكولون غير الحر :

كان الفلاح من فئة الكولون غير الحر لا يملك أرضا ، بل يعمل في اراضي كبار الملاكين ويأخذ حصة من انتاجها . وهو مرتبط بهذه الارض لا يحق له مغادرتها الا بموافقة سيده صاحب الارض ، كما لا يحق له الزواج من نساء يعملن خارج املاك سيده الا بموافقة السيد . ولم يكن هذا الفلاح الكولون غير الحر يملك أدوات العمل او الماشية التي يستخدمها او المنزل الذي يسكنه ، وانما كان كل ذلك ملكا للسيد صاحب الارض . ومن الناحية القانونية لم يكن هذا الفلاح حرا ، بل كان يسجل في قائمة ممتلكات سيده كأداة انتاج حية ، كما كانت جميع علاقاته مع الدولة تتم عن طريق سيده . ان الوضع المشين الذي عاشه الفلاح من فئة الكولون غير الحر دفعه

للهروب احيانا من الارض التي يعمل بها . وعلى هذا صدرت قوانين جستنيانوس التي تنص على الزام الفلاح الكولون الهارب بالعودة الى ارض سيده ، كما حظرت ايواءه. وبصرف النظر عن ان قوانين الامبراطور انستاسيوس قيد ميزت بين وضع العبد ووضع الفلاح من فئة الكولون غير الحر ، فان الفروق قد زالت تدريجا بين هذين الوضعين . ففي قوانين جستنيانوس جاء ما يلي : « كيف يفهم الفرق بين العبيد والفلاحين الكولون غير الاحرار ، حينما يكون هؤلاء واولئك خاضعين لسلطة سيدهم الذي يستطيع طردهم من ارضه متى يشاء »(٩) .

٣ ــ الفلاحون من فئة الباريك :

تذكر الاسفار التاريخية المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) وجود فئة مستعبدة من الفلاحين الذين يعملون باراضي الكنائس والاديرة في منطقة ما بين النهرين السورية. وتطلق تلك الاسفار على هؤلاء الفلاحين اسم « تاوتيبي » tautebe ، الذي يقابله باليونانية مصطلح « باريك » Paroikoi . ويعتبر هؤلاء الفلاحون في الادبيات الكنسية السريانية والعقود المعمول بها في الاديرة بمثابة فلاحين مستعبدين مرتبطين باراضي الكنائس والاديره في منطقة ما بين النهرين السورية في القرن السادس الميلادي . وجاء في اسفار زكريا الملطي ما يلي : بعد الحرب التي شنها الملك الفارسي قباذ رغب الامبراطور البيزنطي انستاسيوس بتحويل مدينة دارا الصغيرة الواقعة على الحدود مع الفرس الى حصن دفاعي ، ولذا اشترى قرية مجاورة لتلك المدينة من توما أسقف مدينة آمد السورية وحرر فلاحيها من التبعية للكنيسة ، ثم ملك كل واحد من هؤلاء الفلاحين الارض التي يعمل بها والبيت الذي يسكنه(١٠) . وهكذا لم يعد هؤلاء الفلاحون من فئة الباريك تابعين للاسقف الذي كان يملك اراضي تلك القرية ، بل امسوا فلاحين يعملون باراضي الدولة في القطاعات الممنوحة لهم .

٤ ــ الفلاحون الاحرار صغار الملاكين :

الى جانب الملكيات الكبيرة والمتوسطة التي يعمل بها الفلاحون من فئة الكولون والباريك والعبيد وجدت في سورية ملكيات زراعية صغيرة تخص فلاحين احرارا لا يخضعون لسيد مالك ، بل يعيشون في قراهم ويستثمرون اراضيهم بانفسهم ، ولهم حق الملكية التام في هذه الاراضي . وتشير المصادر السورية (السريانية) الى وجود قرى تخص الفلاحين الاحرار في سورية ما بين القرنين الرابع والسابع . وكانت هذه القرى تنظم امورها العامة ذاتيا ، فيختار الفلاحون شيخا للقرية وحارسا للكروم ومراقبا لتوزيع مياه الري حسب مساحة الارض . وتطلق المصادر السريانية على

شيخ القرية اسم « سابا » الذي يعني الشيخ العجوز الطاعن في السن(١١) . وكانت تقع على عاتق شيخ القرية مهمة الاشراف على جمع الضرائب من الفلاحين وتوزيع الواجبات والفرائض عليهم . اضافة الى دفع الضرائب عن الاراضي الزراعية الى خزانة الدولة كان يجب على الفلاحين الاحرار صغار الملاكين أيضا ان يساهموا مجانا في تنفيذ مشاريع الدولة العامة ، كشق الطرق وبناء الجسور والمنشآت الدفاعية ونقل المحاصيل الى مخازن الدولة واطعام الجيوش المارة في مناطقهم وغير ذلك من الفرائض .

٥ ــ الفلاحون من فئة العبيد :

لا تذكر اسفار يشوع العمودي ولا الاسفار التاريخية المنسوبة الى زكريا الملطي وجود الفلاحين من فئة العبيد . لكن مواد « القانون السوري » تتحدث عن العبودية ، دون ان تشير الى نوع العمل الذي يمارسه هؤلاء العبيد . ومع ذلك ، لا شك في ان العبيد في منطقة ما بين النهرين السورية كانوا يمارسون العمل الزراعي في اراضي كبار الملاكين ، اضافة الى استخدامهم رعاة للمواشي وحراسا للكروم وخدما في المنازل وغير ذلك من الاعمال . وكانت مصادر العبودية متعددة . فأبناء العبيد والاماء والنساء الحرائر اللواتي يتزوجن عبيدا هم عبيد منذ الولادة . وفي زمن الحروب كان الاسرى يحولون بشكل جماعي احيانا من احرار الى عبيد . فعندما احتل قباذ مدينة آمد السورية اسر معظم سكانها وارسلهم عبيدا له الى ايران(١٢) . اضافة الى ذلك ازداد عدد العبيد عن طريق تجارة الرقيق ، حيث يشتري التجار العبيد من مناطق مختلفة ويبيعونهم في سوق النخاسة . وحددت قوانين جستنيانوس سعر العبد ما بين ٢٠ــ٧٠ نومسمة ، حسب الصفات التي يتمتع بها العبد او المهن التي يتقنها(١٣) . كذلك باع كثير من الاحرار انفسهم مقابل مبلغ من المال واصبحوا عبيدا لمن يدفع الثمن . فالمدين الذي لا يستطيع تسديد ديونه للدائن يصبح عبداً له ، أو يبيع نفسه لشخص اخر بغية تسديد ما عليه من ديون . ويتحدث « القانون السوري» عن الاحرار الذين باعوا انفسهم عبيدا ، كما ينظر في الطرق التي ينفق فيها سعر الحر المباع عبدا(١٤) .

ومن المعروف ان العبيد كانوا محرومين من كافة الحقوق ، كما كانوا يسجلون في قوائم الضرائب بمثابة ممتلكات حية لاسيادهم . وكان بالامكان تقدير عائدات الارض ودخلها بحسب عدد الفلاحين من فئة العبيد العاملين فيها . وعلى هذا كانت الدولة عندما تفرض الضرائب على املاك كبار الملاكين تاخذ بعين الاعتبار عدد الفلاحين العبيد العاملين فيها . اما تحديد نسبة الفلاحين العبيد العاملين بالاراضي الزراعية في سورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين فهو امر يصعب تقديره .

ب ـ الضرائب والفرائض المترتبة على سكان الارياف السورية :

مسحت الاراضي الزراعية السورية في عهد الامبراطور البيزنطي ديوكليسيانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) ، فتبع ذلك تقسيم هذه الاراضي الى وحدات انتاجية لا تتساوى في المساحة ، وانما في قيمة المحصول الذي تغله . وكانت الوحدة الانتاجية تسمى باللاتينية « يوجوم » iugum وباليونانية « يوجون » ioigon ، ويؤدى عن كل منها ضريبة محددة . وقد سجل موظفو المساحة والاحصاء عدد الوحدات الزراعية الانتاجية في كل مدينة ذات ادارة محلية وما يتبعها من ارض وقرى وضياع . وفي كل سنة عند اعلان مقدار الضريبة عن الوحدة الانتاجية كان الموظفون الماليون في الادارة المحلية للمدينة « الكوزيال » Curiales يجمعون الضريبة عن الاراضي الزراعية بمقدار يساوي مقدار الضريبة عن الوحدة الانتاجية مضروبا في عدد الوحدات الانتاجية للمدينة municipality .

لا يعبر الوصف السابق سوى عن جزء بسيط من الصورة . فالى جانب الاراضي العامة في المدينة والقرى كانت هناك ضياع امبراطورية تخص الامبراطور ، وضياع يملكها متنفذون من كبار الملاكين بشروط حيازة مستثناة ، وملكيات زراعية صغيرة يملكها فلاحون احرار . وكان يقوم بالعمل الزراعي ، في الدرجة الاولى ، الفلاحون من فئة الكولون Coloni المرتبطون بالارض ،وفي الدرجة الثانية الفلاحون الاحرار صغار الملاكين . وبعض الفلاحين الكولون الذين يعملون في أراضي كبار الملاكين قد يكون مالكا لقطعة ارض خاصة به في مكان اخر . كما ان الدولة الرومانية اعتادت منذ عدة قرون ان تقطع ارضا بايجار دائم ، فنشأ نظام يسمح للفرد ان يقتني ارضا خلاء على اساس حيازة دائمة لنفسه ولورثته ، دون ان يلزم بزراعة الارض ودفع ايجار محدد . وقد استمرت هذه العادة التي كانت تسمى « امفيتيسيس » Emphyteusis في عهد العرب المسلمين(١٥) .

وكان بعض أصحاب الضياع يحصلون على حق دفع الضرائب مباشرة للخزانة الامبراطورية ،وليس عن طريق الموظفين الماليين المحليين « الكوريال » في المدينة ذات الادارة المحلية . وكان هذا الحق في دفع الضرائب يسمى «أوتوبراجيا » autopragia كما كانت هذه الضياع تسمى « اجري اكسبتي » agri excepti ، وتملكها الكنيسة أو بعض الاسر النبيلة ذات النفوذ الكبير . ولم تكن هذه الضياع معفاة من الضرائب، لكن اصحابها النبلاء كانوا يستطيعون بطرقهم الخاصة ونفوذهم الكبير ان يحصلوا على بعض الاعفاءات من الضرائب او تخفيضها ، في حين كانت أعباء الفلاح الصغير تزيد يوما بعد يوم ، فينوء تحت ثقل اعباء الضرائب وابتزاز موظفي المالية . وعلى هذا

اضطر الفلاحون الاحرار صغار الملاكين ان يلوذوا بنظام الرعوية او الحماية (التلجئة ، « بتروناج » Patronage . لقد وضع هؤلاء الفلاحون الصغار انفسهم وارضهم في رعاية الملاكين الكبار ، كما تنازلوا لهم عن ملكية الارض ، فأمسوا بمثابة مستأجرين، مقابل مسؤولية النبلاء الحماة «البترون» Patroni عن دفع الضرائب وتخليص اتباعهم من تعسف موظفي المالية وحمايتهم من الاعتداء عليهم .

وهكذا كانت تتسع املاك النبلاء كبار الملاكين ، بينما يفقد الفلاحون الاحرار صغار الملاكين ارضهم ويصبحون مستاجرين مرتبطين بالارض ـ اي فلاحين من فئة الكولون . ودخلت في عداد هؤلاء الموالي الاقنان (الكولون) فئات عديدة من الفلاحين تذكر القوانين البيزنطية منها : الكولون Coloni والقرويين Vicani والمزارعين agricolae وسكان الريف rustici والملاكين Possessores وغيرهم من الفلاحين ممن يطلق عليهم « ميتروكومياي هومولوجي كولوني » metrocomiae homologi coloni ولم تفلح محاولات الحكومة البيزنطية في مقاومة النظام البيروني (نظام الحماية)، بسبب ما كان للنبلاء كبار الملاكين من نفوذ اقتصادي وسياسي ، حتى انه ليمكن ان يطلق على القرنين الخامس والسادس الميلاديين مرحلة الصراع بين الحكومة والارستقراطيين كبار الملاكين (١٦) .

وكان الفلاحون السوريون في زمن الاستعمار البيزنطي يؤدون الجزية (ضريبة الرأس او النفس) والخراج (ضريبة الارض الزراعية) . وكانت الجزية (ضريبة الرأس) مفروضة على جميع الفلاحين الذكور من سن ١٤ سنة الى سن ٦٥ سنة ، وعلى النساء من سن ١٢ سنة الى ٦٥ سنة (١٧) ويقدم المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت ادلة دامغة (من خلال المصادر المعاصرة) على فرض الجزية على الفلاحين السوريين قبل الفتح الاسلامي ، في حين اعفي منها سكان المدن من الارستقراطيين والتجار واصحاب الحرف الذين كان يؤدون الضريبة التجارية aurum negotiatorum وضريبة الحرف Chrysargyron . ويستخلص المؤرخ المذكور من المصادر المعاصرة ان الجزية قد اصبحت في سورية بعد القرن الرابع الميلادي وقفا على الفلاح السوري ، كما صارت علما على طبقة الفلاحين، فلصقت بها من جراء هذه الضريبة وصمة اجتماعية injuria تدل على الصغار والهوان ، كما يتضح من العبارة التالية a plebeiae capitationis injuria (١٨). كذلك كانت سمة للذل وعنوانا للوضاعة الاجتماعية الجزية المفروضة على الفلاحين العرب الخاضعين للاستعمار الفارسي الساساني في سواد العراق . وظلت الجزية مذلة في العصر الاسلامي ايضا « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ويذكر كل من اليعقوبي والبلاذري ان الملك العربي الغساني جبلة بن الايهم لم يرفض ان يؤدي ضريبة الارض الزراعية (الخراج) ، لكنه انفَ من جزية الرأس ، فقال لرسل

يزيد بن ابي سفيان (بعدمعركة اليرموك) : « انما يؤدي الجزية العلوج (الفلاح الكولون) ، وانا رجل من العرب »(١٩) .

احتلت المؤسسة المالية « المؤسسة التي تنهب الشعوب » مكان الصدارة في نظام الادارة البيزنطية . وتتضمن اسفار يشوع العمودي مادة غنية ومتنوعة عن ثقل الضرائب التي فرضتها الحكومة البيزنطية على السكان السوريين في منطقة ما بين النهرين خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . هذه الاسفار تذكر مرارا ضرائب الدولة التي اثقلت كاهل سكان المدن والارياف السورية على حد سواء ، كما انها تطلق على الضرائب النقدية الاسم اليوناني « سينتيليا » Cinteleia مدونا بحروف سريانية . كذلك يعطي القانون السوري (المترجم من اليونانية الى السريانية في الربع الاخير من القرن الخامس) معلومات هامة عن نظام الضرائب المطبق في الولايات البيزنطية السورية ، حيث تتحدث بعض مواده عن الضرائب المفروضة على الاملاك الزراعية ، التي حدد مقدارها حسب نوعية الاشجار المزروعة وخصوبة الارض . وبقيت نصوص « القانون السوري » كاملة في مخطوطين ، احدهما محفوظ في لندن ويعرف برمز (L. I, 121)، والثاني محفوظ في روما ويعرف برمز (R. II,151) (٢٠).

وذكر في القانون السوري ان الارض قد مسحت وحددت في زمن الامبراطور البيزنطي ديوكليسيانوس (٢٨٤ــ٣٠٥) ، فصادقت السلطات البيزنطية على ذلك المسح . ويقوم هذا المسح على تقسيم الارض بحسب جودتها الى صنف اول وصنف ثان وصنف ثالث ، او الى فئات تحدد بموجبها مساحة الارض او عدد الاشجار التي تدفع وحدة ضريبية محددة . لقد قسمت الاراضي السورية الى وحدات انتاجية اطلق على كل وحدة منها اسم « يوجوم » iugum . واليوجوم هي الوحدة الانتاجية التي يفرض عليها وحدة ضريبية محددة (نقدية او عينية او من الشكلين) . لكن الوحدة الانتاجية يمكن ان تشمل مساحةمن الارض تزيد او تنقص ، حسب نوعيتها وحسب نوع او عدد اشجارها . وقد تقرر في ذلك المسح ما يلي :

١' ــ اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الاول ، فان كل مساحة مقدارها ٢٠ يوجوم (فدان) ، التي تساوي ٤٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبة واحدة محددة .

٢' ــ اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الثاني ، فان كل مساحة مقدارها ٤٠ يوجوم (فدان) ، التي تساوي ٨٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبية محددة (وهي تساوي الضريبة المفروضة على الارض من الصنف الاول المذكورة في البند الاول) .

٣ً ــ اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الثالث ، فان كل مساحة مقدارها ٦٠ يوجوم ، التي تساوي ١٢٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبية واحدة محددة (وهي تساوي الضريبة المفروضة على الارض من الصنف الاول والصنف الثاني المذكورين في البندين الاول والثاني) .

هذه الاراضي المختلفة اصنافها ومساحاتها كانت تدفع ضرائب متساوية .وطبق مثل هذا التقسيم على الاراضي المزروعة باشجار الزيتون والكرمة . فكل ٢٢٥ شجرة زيتون من الصنف الاول فرضت عليها وحدة ضريبية محددة ، وهي تساوي الضريبة المفروضة على ٤٥٠ شجرة زيتون من الصنف الثاني ، كما تساوي الضريبة المفروضة على ارض مزروعة باشجار الكرمة مساحتها ٥ يوجوم التي تساوي ١٠ بليترون ــ اي ما يعادل ١٢٦٠٠ م٢ .

اما الاراضي الجبلية ذات الطبيعة الوعرة ، فكانت تحتاج الى حساب خاص . كان موظفو الدولة المكلفون بوضع قوائم الضرائب يدعون فلاحين من مناطق جبلية مجاورة ويطلبون منهم تقدير انتاج تلك الاراضي الجبلية كي يحددوا الضريبة عليها حسب كمية الانتاج . كذلك خضعت للتقدير الاراضي غير المزروعة المعتبرة بمثابة مراعي للمواشي ، وفرضت عليها الضرائب التي تراوحت بين دينار وثلاثة دنانير عن مراعي كل قرية .

لتوضيح صورة المسح (التحديد والتحرير) الذي فرضت بموجبه الضرائب على الفلاحين السوريين في زمن الاستعمار البيزنطي لابد من مقارنة المقاييس الواردة في « القانون السوري » مع المقاييس المعاصرة . كانت الاراضي السورية في زمن الاستعمار الروماني ــ البيزنطي تقاس بالقصبة (بالسريانية : كانجا) . والقصبة تساوي ٨ اذرع . وكل ١٠٠ قصبة مربعة تساوي بليترون واحد . وكل بليترون يساوي ١٢٦٠ م٢(٢١) . اما اليوجوم فيساوي ٢ بليترون أي ٢٥٢٠ م٢ ، كما يترجم عادة باسم « فدان » . وعلى هذا كان مسح الاراضي في القانون السوري على الشكل التالي :

١ً ــ الارض المزروعة بالحبوب صنف أول : مساحتها ٢٠ يوجوم = ٤٠ بليترون = ٥٠٤٠٠ م٢ .

٢ً ــ الارض المزروعة بالحبوب صنف ثاني : مساحتها ٤٠ يوجوم = ٨٠ بليترون = ١٠٠٨٠٠ م٢ .

٣ً ــ الارض المزروعة بالحبوب صنف ثالث : مساحتها ٦٠ يوجوم = ١٢٠ بليترون = ١٥١٢٠٠م٢ (٢٢) .

اما المسح الذي كان يتم على هذه الصورة ويسجل في قوائم المالية ، فكان يبقى ساري المفعول مدة خمسة عشر عاما التي كانت تعتبر وحدة زمنية كاملة(٢٣) . ان نظام الضرائب الذي فرض على الاراضي الزراعية بالشكل الذي اورده القانون السوري ، او بشكل معدل الى حد ما ، قد بقي نافذا في الارياف السورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وفي بعض نسخ القانون السوري التي تعود الى فترات زمنية متأخرة (بعد القرن السابع) نجد ان الفقرة الخاصة بتحصيل الضريبة الزراعية اما مغفلة نهائيا ، او باقية على شكل اشارة موجزة . فعلى ما يبدو ، فقدت هذه الفقرة اهميتها نظرا لانتقال السيادة في سورية الى ايدي العرب المسلمين ، الذين ادخلوا بعض التعديلات على نظام الضرائب البيزنطي .

ولتحديد نوع الضريبة المفروضة على الاراضي الزراعية استخدمت في « القانون السوري » الكلمة اللاتينية « انونا » annonaمكتوبة بأحرف سريانية ، وهي تعني ضريبة عينية أو تقديم عيني للجيش(٢٤). والاكثر احتمالا أن ضريبة«الانونا» (الخراج) كانت تؤخذ بشكل مختلط ـ اي نقدا ومحصولا عينيا ، اذ تشير الى ذلك احدى نصوص قوانين جستنيانوس الجديدة ، حيث تاتي على ذكر الضرائب العينية والنقدية معا(٢٥) .

كانت توجد في المدن السورية عنابر حكومية مخصصة لحفظ الحبوب . وتتحدث أسفار يشوع العمودي عن وجود مثل هذه العنابر في كل من الرها وآمد ودارا(٢٦) . كانت الحنطة تؤخذ من العنابر لصنع الخبز واطعام الجنود ، أو من اجل صنع الخبز الاضافي (الاحتياطي) وبيعه للشعب في زمن المجاعة . وكانت الحبوب والخمور واللحوم تجمع من الفلاحين واصحاب الاراضي كضريبة عينية ، باعتبار انها مواد غذائية يحتاجها الجيش بصورة دائمة . كان الجيش البيزنطي يحشد فيالمدن السورية الواقعة على الحدود مع الفرس في زمن السلم والحرب معا ، لذا فان احتواء هذا الجيش كان يحتاج الى مواد غذائية متنوعة . وعلى هذا اكدت قوانين الامبراطور تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ــ ٤٥٠) على تحصيل الضريبة العينية وحظرت استبدالها بالمال(٢٧) . وفي النصف الثاني من القرن الرابع صدر قانون بيزنطي ينص على الزام أصحاب الاراضي الزراعية بدفع الضريبة العينية (التي تشمل على الحبوب واللحوم والخمور وغيرها) ثلاث مرات في السنة(٢٨) . وهكذا كانت الضريبة العينية ، التي أطلق عليها اسم « انونا » annona ، هي الضريبة الرئيسية في الولايات البيزنطية السورية منذ القرن الرابع حتى القرن السابع . أما الضريبة النقدية فعرفت باسم « سينتيليا » Cinteleia ، ان كان ذلك في « القانون السوري » ، أو في الاسفار التاريخية السورية .

كانت ضريبة الاراضي الزراعية تسدد في زمن الاستعمار الروماني ثلاث مرات في السنة : في أول كانون الثاني ، وفي اول ايار ، وفي اول ايلول . وبهذا الشكل كانت تسدد ايضا في القرن الخامس الميلادي ، حيث جاء في قانون الامبراطور انستاسيوس الصادر في سنة ٤٩٦ ما يلي : « ثلاث مرات تدفع عائدات بيت المال (ديموسيسا demosia) : في أول كانون الثاني ، وفي اول ايار ، وفي نهاية العام (ايلول » (٢٩) .

كان الفلاحون من فئة الكولون يقدمون لمالك الارض حصة عينية من الانتاج الزراعي لقاء استثمارهم الارض . وكانت الاراضي الزراعية (وخاصة المروية) تستثمر بالمناصفة ، نصف الانتاج للفلاح الكولون ، والنصف الاخر للمالك . والدليل على ان مثل هذا الشكل من الاستثمار كان معمولا به في القرن الرابع الميلادي واضح من تشريعات تلك الحقبة التاريخية(٣٠) . وبالنسبة للقرن السادس تشير قوانين جستنيانوس الى ان الفلاحين الكولون كانوا يقدمون للمالكين ربع الارض موادا عينية (in Speciebus) (٣١) . ونتأكد من ذلك في المصادر التاريخية المعاصرة التي تذكر ان كميات كبيرة من الحبوب كانت تتراكم لدى كبار الملاكين فيتاجرون بها . وتشير أسفار يشوع العمودي الى المضاربة بتجارة الحبوب التي اتخذت ابعادا غير معروفة من ذي قبل في فترة المجاعة التي عمت منطقة ما بين النهرين السورية في نهاية القرن الخامس الميلادي .

أعفى التشريع البيزنطي الاطباء والمعلمين من دفع الجزية (ضريبة الراس أو النفس) . وهذا الاعفاء تكرر ذكره في « القانون السوري » ، حيث جاء فيه ما يلي : « يعفى الاطباء ومعلمو مختلف العلوم ، الموجودون في المدن والقرى ، من كافة أنواع الضرائب . فهم لا يدفعون ضريبة الرأس (كيسيفريشا ـ كشف الرأس) ولا ضريبة الخريسار غروس (الضريبة التي يدفعها التجار والصناع)(٣٢ ـ أ) . ان القانون السوري الذي يؤكد على اعفاء الاطباء والمعلمين الذين عاشوا في القرى ، انما يشير ضمنا الى ان الجزية (ضريبة الرأس) كانت تؤخذ بالدرجة الاولى من السكان الذين عاشوا خارج المدن ـ من الفلاحين وسكان القرى عامة . وتشير أسفار يشوع العمودي الى فرض الجزية (ضريبة الرأس) على الفلاحين والقرويين في منطقة ما بين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وتذكر هذه الاسفار ان الحاكم البيزنطي (في سنة ٤٩٩ ـ ٥٠٠) سعى الى اعتصار الضريبة النقدية «سينتيليا» من سكان المنطقة التي أصيبت بالقحط واكل الجراد محاصيلها بواسطة السادة القرويين ، ولذا جمع هؤلاء « السادة القرويين » وعذبهم شر عذاب وابتزهم ايما ابتزاز . وارسل الحاكم المال الذي جمعه « الذهب » الى العاصمة ، قبل ان يتمكن « السادة القرويون » أن يطلبوا من الامبراطور اعفاءهم من دفع تلك الضريبة النقدية . لكن الامبراطور البخيل

انستاسيوس ابقى بحوزته النقود التي استلمها ولم يعدها الى دافعيها ، وكل ما فعله هو اصدار مرسوم باعفائهم من ضريبة الراس في المستقبل (٣٢ب)٠. لكن الغاء هذه الضريبة ، الذي بعث السرور في نفوس « السادة القرويين» (الملاكون المتوسطون)، لم يستفد منه الفلاحون الكولون ، بل ظل هؤلاء يدفعونها لاسيادهم المالكين ،اذ تؤكد ذلك اسفار يشوع العمودي في وصفها احداث سنة ٥٠٥(٣٣) .

كان الفلاحون الاحرار صغار الملاكين ، الذين لا يخضعون لاحد من كبار الملاكين ، يدفعون الضريبة النقدية والعينية (الجزية والخراج) الى موظفي المالية مباشرة دون وسيط . وكان يوجد في كل قرية شخص مسؤول عن جمع الضرائب من الفلاحين الاحرار (في الغالب شيخ القرية) وتسليمها الى جباة خزانة الدولة . اما تسديد الضرائب النقدية والعينية (الجزية والخراج) عن الفلاحين من فئة الكولون الذين يعملون بأراضي كبار الملاكين (الاقطاعيين) ، فكان يتم باشكال تختلف من عصر الى عصر . وفي الغالب كان الفلاحون الكولون المرتبطون بالارض يدفعون ضريبة الرأس وضريبة الارض (الجزية والخراج) عن طريق اسيادهم مالكي الارض ، الذين يجمعون الضرائب من فلاحيهم الكولون مضاعفة ، ويعطونها لجباة الخزانة كما هي مدونة في سجلات المالية ، او منقوصة في اغلب الاحيان٠. ولمنع تلاعب كبار الملاكين في تحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين الكولون ، جرت محاولات في عهد الامبراطور جستنيانوس الكبير لاقامة علاقات مباشرة بين الدولة والفلاحين الكولون ، يقوم من خلالها موظفو المالية بجمع الضرائب من الفلاحين الكولون انفسهم ، دون الرجوع الى مالك الارض (٣٤) .

في عهد الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ ـ ٥١٨) جرى تغيير في نظام المالية ، اذ ابعدت مجالس المدن المحلية عن مهمة جمع الضرائب ، كما ابعد عن هذه المهمة الموظفون المسمون « كوريال » Curiales ، الذين كانوا مكلفين بجمع الضرائب المفروضة على سكان القرى التابعة للمدن ، في حين كلف بجباية الضرائب موظفون ماليون جدد يسمون « فنديسيس » Vindicec ويخضعون مباشرة للوالي البيزنطي في المنطقة الذي يحمل لقب « بريفكت بريتوريوم » Praefecti Praetorium . واهم مصدر لدراسة هذه الاجراءات المالية الجديدة هو كتاب يوحنا ليدوس المسمى « دي ما جستراتيبوس » De magistratibus (٣٥). وصاحب هذا الاصلاح المالي الجديد هو موظف سوري الاصل يدعى مارين ، الذي توصل الى رئاسة الادارة المالية في القسطنطينية ، ويذكره زكريا الميتيليني (الملطي) بانه احد اقربائه(٣٦) . لكن هذا الاصلاح المالي ، الذي كان الهدف منه تحقيق مركزية الادارة المالية وجعلها بيد الوالي البيزنطي «بريكفت بريتوريوم » ، لم يخفف العبء المالي الثقيل عن الفلاحين .

فالمؤرخ يوحنا ليدوس يصف ذلك الاصلاح المالي بأنه كان مؤذيا ومضرا لسكان القرى العاملين في الزراعة ويقول : « اني اوجه كلماتي ضد مارين » (رئيس الادارة المالية)، كما يذكر ان ذلك الاصلاح لم يستفد منه سوى الامبراطور انستاسيوس ، الذي كان حسب وصف المؤرخ « اغنى من الجميع ومعه مارين والمقربين منه »(٣٧) .

كذا يصف ايفاغريوس (في تاريخه الكنسي) ذلك الاصلاح المالي بانه سلبي ويعتبره مضرا بمصلحة الفلاحين ، ذلك ان الموظفين الماليين الجدد « الفنديسيس »، الذين حصلوا على مناصبهم على مبدأ « من يدفع اكثر » ، شرعوا يبتزون الضرائب من السكان بشكل رهيب . وفي هذا النص نرى ايفاغريوس يدافع عن مصالح الطبقات العاملة التي تدفع الضرائب لخزانة الدولة(٣٨) . وتتحدث الكتابات الرسمية عن اهتمام الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ — ٥١٨) بالفلاحين وحرصه على اصدار القوانين التي تخفف من اعبائهم المالية . لكن هذا المديح الرسمي لا يتطابق بأي شكل من الاشكال مع واقع الحال(٣٩) .

تركت اسفار يشوع العمودي شهادة اخرى على اساليب الظلم وابتزاز الضرائب التي مارستها السلطات البيزنطية الاستعمارية مع الفلاحين السوريين في منطقة ما بين النهرين . فاضافة الى ضريبة الراس وضريبة الارض « الجزية والخراج » ألزم الفلاحون الملاكون بدفع الضريبة عن الاملاك المجاورة التي هجرها اصحابها لسبب من الاسباب ، أو ماتوا دون ان يتركوا ورثة لهم ، وهذه الضريبة اطلق عليها اسم «ايبيبولي» Epibole (٤٠) . هناك بردية مصرية تتضمن شكوى من فرض السلطات الرومانية مثل هذا النوع من الضريبة الاضافية على الفلاحين المصريين في القرن الثاني الميلادي (٤١) . وفيما بعد انتقل هذا الاسلوب في فرض الضرائب الاضافية الى العصر البيزنطي وطبق في القرن السادس . ففي عهد الامبراطور جستنيانوس الاول (٥٢٧— ٥٦٥) وصف المؤرخ المعاصر بروكوبيوس (في كتابه : التاريخ السري) هذا الاجراء القسري بمثابة عبء ثقيل على الفلاحين الاحرار صغار الملاكين ، فقال : « لم يخجل جستنيانوس بخصوص الارض التي هجرها أصحابها ، ان كانوا من كبار الملاكين ، او من صغار الفلاحين (kurioi kai georgoi) الذين غادروا ارضهم هربا من ثقل الضرائب ، بل الزم غيرهم من الفلاحين بدفع ضريبتها » . هذه الارض المهجورة agri deserti كانت تضم بصورة غير قانونية الى املاك احد الفلاحين الملاكين المجاورين ، فيحق له إمتلاكها بشرط أن يدفع للخزانة الضريبة المترتبة عليها(٤٢) . ويعتبر الامر الاداري الذي اصدره الوالي البيزنطي « بريفكتبريتوريوم » زوتيك في سنة ٥١١ — ٥١١ أول اشارة صريحة الى فرض ضريبة « الايبيبولي » في العهد البيزنطي(٤٣) ، وهذا الاجراء الاداري لم يكن قانونا جديدا ، وانما كان استثناء من

القوانين النافذة . ولكن هذا الاستثناء عمم تطبيقه في الاراضي السورية ، كما كان مطبقا في مصر وشمال افريقيا العربية منذ امد بعيد . هـذه الشهادات المدونـة ، المذكورة اعلاه ، لها قيمة تاريخية كبيرة ، اذ انها تمكن الباحث من التعرف على الحكم البيزنطي التعسفي في سورية ، القائم على اضطهـاد الفلاحين السوريـين واعتصار عروقهـم .

٥ ـ تجارة الحبوب والمواد الغذائية في منطقة ما بين النهرين السورية .

تعطي الاسفار التاريخية السورية المدونة في القرنين الخامس والسادس تصورا واضحا عن تجارة الحبوب في منطقة ما بين النهرين السورية ، وعن اهتمام السلطات البيزنطية بجمع هذه المادة الغذائية وحفظها وتصنيعها خبزا لجنودها ولسكان المدن . كانت الضريبة العينية « الانونا » annona المفروضة على الاراضي الزراعية تجمـع وتنقل من القرى الى اقرب مدينة مجاورة ، فتحسب الحصص من المحاصيل وتعطى الوصولات الدالة على دفع الضريبة . ولحفظ هذه المواد الغذائية التي اصبحت تخص الدولة كانت توجد مستودعات وعنابر خاصة .

وتذكر الاسفار التاريخية السريانية التي تتحدث عن مدينة الرهـا (اديسـا) السورية ان حاكم المدينة البيزنطي « الايغيمون » igimon كان مسؤولا عن تمويـن مدينته بالخبز الجاهز ، كما كانت تخضع لاوامره تعاونيات الخبازين ومستودعـات الحبوب . ويستخدم يشوع العمودي في اسفاره السريانيـة المصطلـح اليوناني « ابو ثيتون » apotheton ، الذي يعني المستودعات واماكن حفظ مختلف المـواد والسلع ، وبصورة خاصة الحبوب(٤٤) . واحيانا يستخدم العمودي مصطلحا آخرا مركبا من كلمة يونانية وكلمة سريانية وهو « سيتيكادي ابورا » Sitika de abura اذ تعني كلمة « سيتيكوس » Sitikos اليونانية « المخصص للحبوب » كما تعني كلمة « ابورا » abura السريانية « الحبوب » . وبذا يدل المصطلح المذكور على مستودعات الحبوب المخصصة لصنع الخبز(٤٥) . اما زكريا الميتيليني ، الذي يتحدث عن اوامـر الامبراطور انستاسيوس التي تنص على بناء مستودعات حكومية في كافة المـدن ؛ فيستخدم اصطلاح « هوريا سبكتابيليا امبـلا » Horrea spectabilia ampla الذي يعني المستودع او المخزن الرائع والمشهور(٤٦) .

وكان الهدف من اوامر الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ ـ ٥١٨) ببناء مخازن الحبوب في مدن ما بين النهرين السـورية هو زيادة القدرة الدفاعية لهذه المدن الواقعة قرب الحدود الفارسية ، حيث أن حصار مدينة آمد من قبل الفرس ،

الذي سبب الكثير من الآلام والمتاعب لسكانها نتيجة الجوع ، كان ما يزال حيا في ذاكرة المعاصرين . الى جانب الاهمية الكبيرة لوجود الاحتياطات الغذائية المخصصة لزيادة القدرة الدفاعية والصمود في وجه الاعداء ، فان بناء مخازن الحبوب الحكومية كان الهدف منه ايضا « ان يزيل العداء ويرسخ السلام » ، حسب قول يشوع العمودي(٤٧) ، الذي يقصد به تخفيف حدة التوتر بين الاغنياء والفقراء وتجنب الاضطرابات في حال فقدان القمح واحتكاره من قبل التجار وكبار الملاكين . ورغم ان الدولة كانت تخزن الحبوب الاحتياطية ، فان كمية كبيرة من الحبوب بقيت في مخازن كبار الملاكين الذين يؤجرون الارض للفلاحين الكولون مقابل حصولهم على حصة عينية من انتاجها . وكانت شروط الايجار مجحفة بحق هؤلاء الفلاحين ، الذين فرض عليهم احيانا ان يقدموا لصاحب الارض الحصة المتبقية لاطعام اسرهم . وبما ان اجرة الارض كانت تسدد بتقديم حصة عينية من الانتاج ، فان كمية كبيرة من الحبوب كانت تصب في مخازن كبار الملاكين ، فيبيعونها في السوق المحلية ، او ينقلونها الى خارج حدود المنطقة ليجعلو منها صفقة مربحة .

سعت السلطات البيزنطية الى تنظيم اسعار الحبوب وتثبيتها في مستوى محدد . فاصدرت القوانين اللازمة بخصوص هذا الامر . لكن تكرار صدور القوانين بهذا الخصوص يدل على عدم التزام المحتكرين بتطبيقها . وعلى هذا كان الهدف من بناء مخازن الحبوب الحكومية « أن يزيل العداء ويرسخ السلام » بين الاغنياء والفقراء . لكن تلك المخازن الحكومية لم يكن باستطاعتها دوما تأمين الخبز الرخيص للمواطنين الفقراء ، ولذا رفع الحرفيون والفلاحون الفقراء راية الكفاح ضد الاغنياء الذين يحتكرون تجارة الحبوب . والاسفار التاريخية لا تميز بين فئات الطبقة الكادحة في منطقة ما بين النهرين السورية ، بل تطلق عليها اسم « الفقراء » ، أو « البسطاء » أو «الضعفاء» ، وهؤلاء منهم من كان يعمل في المدينة ، ومنهم من كان يعمل في الريف . وتشير الاسفار التاريخية السورية (السريانية) الى المتاجرة بالحبوب وتهريبها ، مما يؤدي الى ارتفاع اسعار قوت الشعب . لقد جاء في الاسفار المنسوبة الى زكريا الميتيليني (الملطي) ان اسقف مدينة آمد السورية « كان يحذر اغنياء المدينة قائلا لهم : في أيام الجوع وغزوات العرب (الموالين للفرس) والطاعون ، ينبغي عليهم الا ينقلوا الحبوب بعيدا ، لان ثمة حاجة لها في الداخل ، ويجب عليهم بيعها وتقديمها للمحتاجين . اما اذا نقلوها بعيدا (خارج الحدود) ، فمعنى ذلك انهم يصنعون احتياطيا للعدو (للشيطان ، حسب تعبير الكاتب)» (٤٨) . ويذكر يشوع العمودي ان في اثناء المجاعة ، كان هناك أناس مقتدرون لم يحتاجوا شيئا(٤٩) .

في عهد الامبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٦) ، الى جانب الضريبة المحددة على الاراضي الزراعية ، فرضت على الملاكين الكبار فريضة اضافية تدعى « انديكتيو»

وتقضي بتأمين الحبوب وبيعها حسب السعر المحدد المعلن . ان المصطلح اليوناني « سينوني » Sinone الذي يطابق المصطلح اللاتيني « إنديكتيو » indictio ويعني « بيع الحبوب الالزامي باسعار محددة » قد بقي مستعملا في بيزنطة حتى القرن الحادي عشر الميلادي . وترجم المؤرخ الروسي فاسيلفسكي هذا المصطلح « سينوني » على انه ابتزاز أطلق عليه اسم « بيع الحبوب الالزامي »(٥٠) . وقد أشار المؤرخ الروسي بانتشنكو الى الوصف السلبي لقانون بيع الحبوب الالزامي «سينوني» الوارد في « التاريخ السري » (الذي وضعه المؤرخ بروكوبيوس في القرن السادس) ؛ كما أشار الى وجود هذا القانون في شريعة الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) (٥١) .

كانت الضرائب العينية « الانونا » annona مخصصة بالدرجة الاولى لاطعام الجيوش وتموين العاصمة البيزنطية . ولما كان قمح الخبز الذي تجمعه السلطات في مخازن الدولة لا يكفي لاطعام الجيوش في أوقات الحروب ، فقد اضطرت الحكومة البيزنطية ان تسن قانونا يلزم كبار الملاكين ببيع القمح للدولة باسعار مخفضة .اضافة الى ذلك خشيت الحكومة من تمرد الكادحين الجائعين بسبب غلاء الحبوب ، لذا فرضت على كبار الملاكين بيع كمية محددة من الحبوب في السوق باسعار رخيصة(٥٢) . ويجب النظر الى شريعة انستاسيوس وشريعة جستنيانوس بمثابة تأكيد قانوني على بيع القمح الذي كان يجري بشكل الزامي حسب تسعيرة الدولة . فمن بين قوانين جستنيانوس الثلاثة المتعلقة بهذا الموضوع يوجد اثنان باللغة اليونانية(٥٣) ، وهذا يدل على انهما خصصا للولايات البيزنطية الجنوبية والشرقية ، ومنها سورية التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها .

وتميز قوانين جستنيانوس بين تجارة الحبوب الحرة (حسب الرغبة الذاتية للبائع) ، وتجارة الحبوب حسب اوامر الامبراطور . وترتبط تجارة الحبوب حسب اوامر الامبراطور بدفع الضرائب المفروضة على الاملاك الزراعية ، اذ تعتبر فريضة على شكل ضريبة اضافية . وعلى هذا حددت القوانين كمية الحبوب التي يجب أن تباع باسعار مخفضة حسب مساحة الارض (الوحدات الانتاجية ــ الإيغوم ــ) التي بحوزة المالك ، وحسب عدد الفلاحين العاملين بأرضه(٥٤) . هذا ولم تستثن القوانين أحدا من هذا الالتزام على الاطلاق . وبموجب هذه القوانين الزم المالك بتقديم كمية محددة من الحبوب لتباع بالسعر الرسمي السائد في المدينة . وكان الهدف من إلزام المالكين الكبار ببيع كمية معينة من الحبوب بالسعر الرسمي ، هو تأمين الخبز الرخيص لسكان المدينة من جهة ، وضمان تحصيل الضرائب النقدية من المالكين من جهة ثانية . وكانت تلك القوانين ، وهي تراعي مصالح الخزانة ، تشير الى أن المال الذي يكسبه

الملاكون ثمن بيع الحبوب يجب ان يغطي بالدرجة الاولى ديونهم المالية للخزانة . وكان على المالك الذي يبيع الحبوب بالسعر المحدد ان يسدد مباشرة الضريبة النقدية المفروضة عليه وعلى « أهل بيته » . ويعني المشرع بعبارة « أهل بيته » جميع القاطنين والعاملين لدى صاحب العلاقة . وعند بيع الحبوب كان موظفو المالية يقتطعون من ثمنها مباشرة الضريبة النقدية المفروضة على المالك البائع . وهكذا كانت الاموال التي يكسبها المالك من بيع الحبوب بالسعر الرسمي يجب أن تسدد منها ديونه للخزانة بالعملة الذهبية .واذا كان المالك غير مدين للخزانة بشيء ، فلا يستطيع احد أن يأخذ منه نقودا او يصادر حبوبه . هذه الفقرة الاخيرة من القانون تشير الى الوسائل التي كان يلجأ اليها موظفو المالية لتحصيل الضرائب . فهم يستغلون فرصة بيع المالك حبوبه ويطلبون منه في الحال دفع الضريبة النقدية المترتبة عليه وعلى « أهل بيته » . وبعد ان يسدد المالك ديونه ويحصل على براءة ذمة من الخزانة ، يصبح حرا في ان يبيع حبوبه المتبقية بالسعر الذي يريده . لكن قوانين جستنيانوس لم تسمح باكراه المالك على بيع حبوبه اللازمة لاطعام اهل بيته ، وانما فرضت عليه بيع الحبوب الفائضة عن الاستهلاك الشخصي(٥٥).

جرت تجارة الحبوب في المدينة المحتاجة للقمح تحت اشراف مباشر من جانب حاكم المدينة ، وحسب الاسعار السائدة والمتعارف عليها في ذلك الزمان والمكان . ان قانون جستنيانوس ، اذ ينشد بالدرجة الاولى تحقيق مصالح الخزانة المالية ، كان يسعى للمحافظة على سعر الحبوب بالمستوى المتوسط ، الذي يطلق عليه اسم « السعر العادل »(٥٦) .وكانت اسعار الحبوب في السوق المحلية تسجل على لائحة وتعلق في مكان البيع . ولكن السعر لم يكن ثابتا دوما ، بل كان يتبدل من وقت لاخر بفعل جملة من الظروف . وفي الغالب كان تقرير الاسعار بأيدي كبار الملاكين الذين يتاجرون بالحبوب ، فهم يرفضون الاسعار ويخضعون السوق لرغباتهم . لقد ارتفعت اسعار الحبوب في الاوقات الحرجة الناجمة عن القحط .وحول هذا الموضوع يتحدث يشوع العمودي بالتفصيل . وكذا تحتوي الاسفار الكنسية من القرن الرابع شواهد كثيرة على صعوبة شراء قمح الدولة ذي السعر المخفض . فالتجار استغلوا المجاعة التي اجتاحت مصر في ذلك الحين واخذوا يبيعون الحنطة بسعر فاحش(٥٧). وعلى هذا يواصل تشريع انستاسيوس الاول (٤٩١ ـ ٥١٨) اقرار الفريضة القسرية لبيع الحبوب التي كانت مطبقة في ايام الامبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥). هناك مبررات للاعتقاد بان « السيتوني » ـ بيع الحبوب الالزامي باسعار محددة ـ لم يكن فريضة دائمة ، وانما الزم به ملاكو الاراضي في وقت الحاجة والضرورة ، وذلك بموجب أمر امبراطوري خاص . وفي هذه الحالة لم يستثن احد من هذه الفريضة ، بل نفذها الملاكون الكبار والمتوسطون والصغار ، كل حسب

مساحة املاكه الزراعية . وهكذا كانت فريضة «السينوني» تفرض على الملاكين بمثابة ضريبة اضافية (٥٨) .

رغم إلزام الملاكين ببيع كمية معينة من الحبوب بالسعر الحكومي المحدد ، لم تنوفر لدى الدولة الحبوب الكافية لتلبية احتياجات الجيش وسكان المدن . وكان الملاكون الكبار يمارسون التجارة الحرة بالحبوب ويبيعونها باسعار عالية ، مما يجعل هذه الحبوب صعبة المنال على سكان المدن ذوي الدخل المحدود . وتتحدث المصادر التاريخية المعاصرة بصورة دائمة عن المضاربات وتضخم الاسعار على ايدي التجار الذين سيطروا على الاسواق وفرضوا الاسعار وفق ارادتهم . وحظرت احدى فقرات القانون الذي اصدره الامبراطور انستاسيوس (في الحقبة ما بين ٤٩١ ـ ٥٠٥) ارغام كبار الملاكين والتجار (الذين يملكون مخازن للحبوب في المدينة التي يقطنون فيها) على نقل الحبوب وغيرها من المواد الغذائية الى مدينة او مقاطعة اخرى ، دون استصدار امر امبراطوري خاص يسمح بذلك (٥٩) . ولكن في بعض الاحيان فرضت السلطات البيزنطية على الذين يملكون الحبوب الفائضة أن ينقلوا هذه الحبوب الى مدينة اخرى تعاني من الجوع . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا الامر (في سنة ٥٠٤ ـ ٥٠٥) فيقول : « لاقى سكان الرها مختلف انواع العذاب حين كانوا ينقلون الحبوب الى آمد ، ولا يعلم احد بهذا الامر سوى اولئك الذين كانوا مكلفين بهذا العمل ، لان الكثيرين منهم لاقوا حتفهم مع حيواناتهم في الطريق »(٦٠) . في تلك الظروف صدرت أوامر حكومية بارغام اصحاب الحبوب على نقلها الى مدينة آمد التي أفرغها الفرس من المواد التموينية ، بعد ان انسحبوا منها واعادوها لبيزنطة . وهذه الفريضة القيت على كاهل سكان الرها الذين عانوا من المصاعب والاهوال في تنفيذها .

الى جانب تجارة الحبوب التي نظمتها السلطات البيزنطية ، تجدر الاشارة الى المكانة الكبيرة التي احتلها سوق الفلاحين والتجارة الصغيرة في المدن السورية الخاضعة للحكم البيزنطي . كان الفلاحون (بالسريانية : بلاحي) السوريون يجلبون الى المدينة القمح والشعير والحمص والعدس والخضراوات والثمار والنبيد والزبدة والبيض ، كما كان صيادو الارياف يجلبون لحم الصيد والطيور المصطادة . هذا النوع من التجارة الصغيرة وتجارة القطعة امتلك اهمية لا بأس بها في تبادل السلع بين المدينة والقرى المجاورة لها . وهذه التجارة الصغيرة في فترة حصار آمد هي التي أمنت الغذاء للمحاصرين . فالفرس الذين يسيطرون على المدينة كانوا يسمحون لسكانها بالخروج الى السوق التي اقيمت بجوار اسوار المدينة فيتجمع فيها الفلاحون القادمون من القرى . هؤلاء الفلاحون كانوا يجلبون النبيذ والقمح وغيره من المواد التموينية ، فيبيعونها للفرس ولسكان المدينة . واحيانا يسمح الفرس لبعض الفلاحين بالدخول

الى قلب المدينة . وحسب العادات والتقاليد الفارسية « الرائعة » لم يجرؤ أحد (من جنود الفرس) على اغتصاب شيء من القرويين ، الذين كانوا يبيعون كما يحلو لهم ويأخذون النقود والامتعة والاشياء من المدينة ، كما يجتمعون في السوق عندما يشاؤون(٦١) . ولم يمارس هذه التجارة الصغيرة الفلاحون الاحرار فحسب ، بل كان يمارسها ايضا الفلاحون الكولون ، لان القوانين أقرت باعفائهم من دفع الضريبة النقدية «الخريسار غيروس» عن هذه التجارة(٦٢) . وكانت هذه التجارة الصغيرة تجري بالمفرق وبنقود صغيرة ، كما كانت تؤمن المواد التموينية بأسعار رخيصة لسكان المدينة الفقراء من الحرفيين والعمال ، الذين لا يستطيعون الحصول سوى على كميات ضئيلة من هذه المواد .

تشير قوانين انستاسيوس الى الاشخاص الذين يكلفون بشراء الحبوب ونقلها من الريف الى المدينة لبيعها للسكان . وتنص هذه القوانين على ما يلي : « اذا برزت جاحة معينة في مدينة ما الى مستورد للحبوب « سيتونس » Sitones ، فيجب ان يكون اختياره حسب اقتراح اسقف هذه المدينة وكبار الملاكين فيها»(٦٣) . ويجب ان يتم اختيار هذا الشخص المستورد للحبوب من بين الاشخاص الذين لهم خبرة طويلة في هذا العمل . وأشار القانون بشكل محدد الى ان مستوردي الحبوب يجب الا يتحملوا الاضرار الناجمة عن بيع الحبوب ، لان عملهم صعب وشاق بالاساس ، فكيف اذا رافقته الاضرار والخسائر . وعلى هذا يعتبر القانون ان الخسارة الناجمة عن بيع الحبوب والصعوبات المتعلقة بهذا العمل « ظلما » ، اذا ما تحملها المستورد نفسه. وهكذا نلاحظ ان رغبة السلطة في الدفاع عن مصالح التجار والملاكين الكبار قد وجدت انعكاسها في الحرص على الا يتعرضوا للخسارة في الادخار والنقل والبيع ، وذلك لان عليهم أن يقدموا الحبوب بالسعر الرسمي المحدد والمعلن في السوق(٦٤) . كان لا بد من المحافظة على معدل وسطي لاسعار الحبوب وعدم السماح للمستورد برفع ثمنها . لكن قوانين انستاسيوس تعود اكثر من مرة وفي فترات متلاحقة الى هذه المسألة ، الامر الذي يدل على ان هذه القوانين قد خرقت مرارا وتكرارا ، وكان من الصعوبة بمكان تنفيذها ، حيث يسيطر على السوق كبار التجار والملاكين الذين كانوا يفرضون الاسعار حسب مصالحهم الخاصة . بهذا الشكل كانت تجري تجارة الحبوب والمواد الغذائية في مدن منطقة مابين النهرين السورية في نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الميلادي .

كانت مسألة الاسعار على علاقة مباشرة مع التجارة . وتقدم اسفار يشوع العمودي السورية (السريانية) جملة من المعطيات حول هذا الموضوع الهام . تشير هذه الاسفار الى التجاهل الكامل لمصالح الطبقات الفقيرة المستغلة من جانب الحكومة

انبيزنطية المستعمرة ، لا سيما في سنوات القحط والجوع والطاعون التي شهدتها منطقة ما بين النهرين السورية . فالجوع الذي جاء نتيجة ابتزاز الحكومة للضرائب وقدوم الجراد والجفاف المتكرر والقحط ، قد شمل هذه المنطقة بكاملها في السنوات ٥٠٠ ـ ٥٠٢ . وبنتيجة ذلك باع الفلاحون السوريون امتعتهم ومواشيهم بنصف ثمنها ورحلوا الى مناطق اخرى في الشمال والغرب . لم يبق في القرى السورية سوى النساء والاطفال والشيوخ والمرضى ، الذين يطاردهم الجوع في تلك القرى التي لم يكن فيها لسد الرمق سوى الحشائش المرة . راح سكان القرى يجوبون المدن ، وهناك كان مصيرهم التسول والمرض والجوع ، وبالتالي الموت . كان هؤلاء الفلاحون يتسكعون في شوارع الرها وساحاتها طالبين لقمة العيش من المحسنين ، لكن هذه اللقمة لم تتوفر لهم ولم يقدمها احد . ومع تقدم الزمن ـ يقول يشوع العمودي ـ كانت الاسعار تتصاعد ، فتتزايد معها آلام الجوع الذي اخذ يهدد حياة الناس اكثر فاكثر . « كل شيء لا يؤكل كان رخيصا . الالبسة ولوازم البيت كانت تباع بنصف او بثلث ثمنها . وحتى هذه الاشياء لم تكن كافية لتطعم اصحابها بسبب السعر الباهظ للخبز »(٦٥).

اضافة الى ارتفاع اسعار الحبوب ، ينقل الينا يشوع العمودي موضوعا اخرا ، وهو ان افران المدن السورية في منطقة ما بين النهرين لم تعد قادرة على تأمين احتياجات سكانها من الخبز ، بسبب هجرة الفلاحين الى المدن للحصول على لقمة العيش . يقول المؤرخ السوري المذكور : « في سنة ٤٩٩ ـ ٥٠٠ غادر الوالي البيزنطي (الا يغيمون) مدينة الرها وذهب الى القسطنطينية ، بعد ان اناب عنه شخصا يدعى يوسف ليدير شؤون المدينة . وحينما رأى يوسف ان الخبازين المختصين غير قادرين على صنع ما يكفي من الخبز لتغطية السوق ، بسبب العدد الكبير من سكان القرى الذين ملأوا المدينة ، ولانه لم يعد لدى الفقراء قمحا في بيوتهم ، عندئذ امر يوسف ان يعطى القمح لكل من يتعهد بصنع الخبز وبيعه في السوق . وهكذا جاءت النساء اليهوديات ، فأعطاهن يوسف القمح من مخازن الدولة ، فشرعن يصنعن الخبز للسوق »(٦٦) . يتضح من النص السابق ان صنع الخبز وبيعه في السوق لم يكن بمقدور اي فرد كان ، وانما كان يقوم بهذا العمل الخبازون المختصون الذين كانوا منظمين في جمعيات حرفية تعاونية . ولم تكن تعاونيات الخبازين قادرة ان تؤمن متطلبات مدينة الرها السورية التي أصبحت تغص بالقرويين في زمن المجاعة . وعلاوة على ذلك « لم يبق لدى الفقراء قمحا في بيوتهم » ، وهذا يعني ان الفقراء كانوا عادة يحتفظون بالحبوب ويصنعون خبزهم الخاص في منازلهم . غير انهم في زمن المجاعة لم يكونوا يملكون القمح ، ولذا اضطروا الى شراء الخبز من السوق . تتحدث القوانين النافذة في الامبراطورية البيزنطية عن اسعار الحبوب السائدة في المدن السورية . وكانت هذه القوانين معنية بالا تكون اسعار الحبوب مرتفعة . ففي الاحوال العادية كان الخبازون المختصون

يشترون الحبوب ويطحنونها ، ثم يصنعون الخبز ويبيعونه في السوق . وكان يتبدل سعر الخبز حسب السعر الموضوع على الحبوب ، وذلك كي يبقى للخبازين المختصين ربح معين ثابت(٦٧) . وفي اوقات المجاعة العصيبة اتخذت الحكومة اجراءات وتدابير اخرى ، كتقديم القمح الحكومي « المدعوم » للنساء اللواتي يستطعن صنع الخبز وبيعه في السوق . وفي الوقت نفسه ظلت جمعية الخبازين المختصين تصنع الخبز من احتياطي الدولة ، الذي كان ارخص من الحبوب التي يبيعها التجار في السوق الحرة .

ويعتبر يشوع العمودي غلاء المعيشة (في منطقة ما بين النهرين السورية) شرا كبيرا ، شانه شان الطاعون ، فيقول : « .. كان الفقراء بأمس الحاجة للقوت ، لكن المال لم يكن متوفرا بين ايديهم كي يشتروا الخبز . كانوا يتسكعون في شوارع المدينة (الرها) وساحاتها وحدائقها وبيوتها ، طالبين قطعة من الخبز ، فلم يلب احد طلبهم ، لان الخبز لم يكن متوفرا في تلك البيوت . والقروش التي يطلبها الجياع كانت تصرف في شراء بعض الخضراوات التي تؤكل نيئة في الحال . وفي الوقت ذاته اخذ الطاعون الى جانب الجوع يستشري في المدينة ويهلك السكان »(٦٨) . ويذكر يشوع العمودي أيضا ان حاكم الرها ديموسفينوس قد توجه في سنة ٥٠٠ — ٥٠١ الى الامبراطور البيزنطي وابلغه عن هذه المصائب التي حلت بمدينته ، فقدم له الامبراطور ذهبا غير قليل لتوزيعه على الفقراء(٦٩) . ولكن حاكم الرها لم يوزع المال على الفقراء ، بل راح يوزع عليهم الخبز بقيمة هذا المال . لقد أمر أن تعلق في اعناق الفقراء اختام فضية ، وان يعطى لكل واحد منهم ليتر من الخبز في اليوم(٧٠) . وفتح الحاكم سجلات خاصة لهؤلاء الفقراء الذين كان يوزع عليهم الخبز يوميا . يزن ليتر الخبز ٣٠٠ غرام تقريبا ويعتبر رزقا للجائع . لكن هذا الرزق كان يعطى للقليلين من الجياع على شكل تقدمة أو هدية ، كما كان يصنع على حساب النقود التي قدمها الامبراطور انستاسيوس الاول لحاكم مدينة الرها السورية .

كان الفلاحون المهاجرون من القرى الى المدينة جياعا ولا مأوى لهم ، فينامون في الاروقة والساحات والشوارع . وقد لاقى الكثيرون منهم حتفهم جوعا . ففي كل زاوية كان الاطفال يبكون ويصرخون ، ولا حياة لمن تنادي ، لان امهاتهم القين بهم ولم يعدن(٧١) . وكان الطاعون « الموت الرهيب » يسير جنبا الى جنب مع الجوع . وبما انه كان من الصعب ايجاد مكان لوضع المرضى فيه ، فقد تم ترتيب مكان بمثابة مستوصف بجانب الابنية المحاذية لمعبد الرها الكبير . ففي الكنيسة القديمة الواقعة قرب الحمامات الشتوية فرش القش والحصر بامر من الحاكم ، وارسل الى هناك الكثيرون من الناس ليستلقوا عليها دون ان ينهضوا . كذلك اقام وجهاء المدينة وجنود بيزنطة ملاجىء صالحة للنوم ، لكن تلك الملاجىء كانت دون الحاجة المطلوبة . ولقد

أجبر عدد كبير من الفقراء المرضى القادمين من القرى على الذهاب الى تلك الملاجيء . وكثر هؤلاء الفلاحون الفقراء في مدينة الرها ، بعد ان وصلت اليهم شائعات مفادها ان المدينة تستقبل الجياع والمرضى . وتفاقم الامر حتى ان الحمام الذي كان قرب معبد الرسل قد شغل من قبل هؤلاء المرضى . هلك العديد من ابناء الشعب ، لان الطاعون قد استشرى في كل مكان . والقيت مسؤولية دفن الموتى من الفقراء على عاتق الحرفيين ورهبان الاديرة . ويذكر يشوع العمودي ان سكان الرها اثناء وباء الطاعون لم يتمكنوا من نقل الموتى الكثيرين ودفنهم ، فساعدهم في ذلك رهبان الدير الذين كانوا ينقلون الموتى الى المستوصف ومن هناك الى الدفن(٧٢) . في البداية كانوا يضعون الموتى في مدافن المعابد . وفيما بعد فتحوا المدافن الحجرية القديمة بالقرب من معبد مار كانون ودفنوا فيها . ومنذ مطلع تشرين الثاني حتى اذار السنة ٥٠١ كانت نسبة الوفيات عالية جدا . واستشرى الطاعون في سكان المدينة في شهر نيسان ، فكانوا ينقلون من الرها اعدادا كثيرة من الجثث لم يستطع احد تقرير عددها(٧٣) . لقد داهم الموت جميع المناطق السورية من نصيبين (بجوار القامشلي) حتى انطاكية ـ اي من نهر دجلة حتى البحر الابيض المتوسط . وامام هذا الوباء (الطاعون) القاتل وقفت الحكومة البيزنطية عاجزة تماما ، كما وقفت عاجزة امام المجاعة ، اذ لم تقدم سوى الحد الادنى من العون ، الذي اقتصر على تقديم المأوى والقبور . وكان الاغنياء كعادتهم ، يهربون من وباء الطاعون ويختبئون في مزارعهم وقصورهم المحاطة بالاسوار تجنبا لخطر العدوى . وتكرر الوباء اكثر من مرة في القرنين السادس والسابع ، فعاش سكان الرها في تلك الحقبة تحت وطأة التهديد بالموت السريع من مرض الطاعون .

وفي اثناء فترة المجاعة (في السنوات ٥٠٠ ـ ٥٠٢) ، كما في اثناء موجة الطاعون ، كانت المساعدات التي قدمتها الحكومة البيزنطية للسكان السوريين الفقراء في حدودها الدنيا . وتشير اسفار يشوع العمودي الى ان المساعدات المالية وزعت دون تمييز بين الفقراء والاغنياء ، فلم يؤخذ بعين الاعتبار الفقراء المحتاجون بالفعل . يقول يشوع العمودي : ان الخصي اوربيك المكلف من قبل الامبراطور انستاسيوس بتقديم المساعدة المالية للسكان السوريين في منطقة ما بين النهرين ، قد قام بتوزيع « الدينار تلو الدينار » في مدينة آمد . ومن هناك توجه الى الرها ، فاعطى لكل امرأة رغبت بالمساعدة تريميسونا واحدا ؛ ولكل طفل زوزي (قطعة نقدية صغيرة) . وهكذا حصلت كل النساء تقريبا على المال ـ النساء المحتاجات وغير المحتاجات(٧٤) .

وتذكر اسفار يشوع العمودي أيضا اسعار المواد الغذائية خلال مجموعة من السنوات ، كما تكررها بصورة منتظمة بالنسبة للقمح والشعير . وتعود اغلبية الاسعار الواردة في هذه الاسفار السريانية الى عصر المجاعة في منطقة ما بين النهرين السورية .

ولكن قسما من المعلومات يعود الى فترة لم تكن المنطقة تعاني خلالها من المجاعة ، وفي هذه الحالة تعطي تصورا عن الاسعار الطبيعية . وطالبت قوانين جستنيانوس انتكون تجارة الحبوب حسب الاسعار السائدة في حينها في المنطقة . لكن الاسعار لم تكن ثابتة ولايمكن ان تكون ، بل كانت تتبدل حسب اوقات السنة والظروف المحلية الملائمة وغير الملائمة .

منذ القرن الرابع الميلادي انتقلت التجارة الى التعامل بالنقد الذهبي ، بينما اصبحت الفضة عملة نادرة الاستعمال . وفي القرن الخامس كان المؤرخ السوري يستبدل كلمة « المال » بكلمة « الذهب » . وازدادت الحاجة الى هذا المعدن الثمين من اجل سك النقود ، في حينهبط استخراجه بصورة تدريجية(٧٥) . بدفع الذهب أبعدت كل من بيزنطة وايران بعض القبائل البربرية عن حدودها الشمالية . كذلك لعب تصدير الذهب الى الشرق دورا هاما في شراء المواد الشرقية الفاخرة . ان النظام النقدي الذي كان سائدا في عصر الامبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨) والاصلاح الذي أدخله على النقد يعكسان الوضع المالي العام . لقد سك اسلافه مجموعة من النقود المختلفة ، فصارت مادة للمضاربة في السوق السوداء . ولكن اصلاح النقد في سنة ٤٩٧ قد حفظ قيمة الليرة الذهبية (السوليدوس) . ومن اجل الحسابات الصغيرة ضرب نقد برونزي فاكتسب تداولا واسعا في الاسواق . كانت الضرائب تسدد فقط بالمعدن الثمين ـ بالذهب وبالفضة ـ . ولكن النقد الفضي في القرن الخامس كان نادرا نسبيا (٧٦) . وعلى هذا صارت الضريبة النقدية تدفع بصورة كاملة تقريبا بالعملة الذهبية . وكل معدن كان له نظامه الخاص المستقل ، فالفضة لا تغطي الذهب ، كما لا يغطي النحاس الفضة(٧٧) .

في القرن السادس الميلادي كانت الليرة الذهبية (السوليدوس) تعادل ٦٠٠٠ نوموس من البرونز . ولتحديد قيمة النقد وضعت عليه شارات معينة . فاكبر قطعة نقدية برونزية في عصر انستاسيوس التي كانت تزن من ١٠ ــ ١٦ غ وتساوي ٤٠ نوموس كتب عليها رقم ٤٠ . اما القطع النقدية الاقل وزنا فقد كتب عليها رقم ٢٠ او ١٠ أو ٥ أو ١ نوموس. واختصر اسم النوموس Nummus على القطع النقدية بحرفي ن.م . N.M. (٧٨). واصغر قطعة نقدية برونزية هي النوموس الواحد الذي يزن اقل من غرام . الى جانب الليرة الذهبية والنقود البرونزية كانت هناك نقود فضية تسمى باليونانية « كيراتيون » keration وباللاتينية « سيليكوا » Siliqua ، وهي تساوي ١/٢٤ من الليرة الذهبية (السوليدوس) . في عهد الامبراطور زينون (سلف انستاسيوس) كان الميلياريس الفضي يزن ٥٠ر٤ غ ، والكيراتيون يزن ٢٦ر٢ غ . وكانت هذه القطع النقدية الفضية نادرة ، بينما كثيرا ما تصادف نقود بقيمة نصف

كيراتيون بوزن ٢٤ر١ – ٢٨ر١ غ . وكانت النقود الذهبية والفضية تسك في القسطنطينية ورافينا . أمابعد اصلاح النقد الذي جرى فيعهد الامبراطور انستاسيوس (في سنة ٤٩٧) فقد اصبحت النقود تسك في مدن كثيرة . وكانت اماكن سك العملات الفضية القريبة من منطقة ما بينالنهرين السورية هي المدن التالية : إفس ، ايسورية ، نيكوميدية ، انطاكية(٧٩) .

وتحسب اسفار يشوع العمودي السورية ثمن الحبوب بالقطعة النقدية التي يطلق عليها اسم « الدينار » . لقد بقيت اسماء القطع النقدية على ما كانت عليه مدة طويلة ، رغم تبدل قيمتهاوسكها . وحافظ السوريون ايضا على التسمية القديمة للدينار ، وهم يقصدون به الليرة الذهبية البيزنطية (السوليدوس) . وهذه التسمية تصادف في اسفار يشوع العمودي وغيرها من الاسفار السورية(٨٠) . وتذكر اسفار زكريا الميتيليني (الملطي) السورية اسم « الكيراتيون » في ترجمة غالينوس الى السريانية ، التي قام بها الطبيب السوري سرجيوس (من راس العين) في القرن السادس الميلادي . وهكذا استعمل السوريون النقود البيزنطية مستخدمين اما تسمياتها اليونانية « كيراتيون » ، « نوموس » ، أو تسمياتها السورية القديمة ، كالدينار على سبيل المثال .

والاسفار السورية (السريانية) عندما تذكر ثمن الحبوب تنطلق من القطعة النقدية وتشير الى كمية الحبوب التي ابتيعت بها في ذلك الزمن . وهذه طريقة عامة في الحسابات استعملت في الامبراطورية البيزنطية كلها على امتداد قرون عديدة . فالحبوب في مصر كانت تقاس بالارتاب ، وفي سورية بالمد . وهناك الكثير من النعوت للمد (كبير ، صغير ، بحري ، قيصري ، وغيرها) . وهذه النعوت تشير الى غياب الوحدة النمطية في المعاير والكميات ، فهي تختلف من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان(٨١) . ولا يوجد حتى يومنا هذا تحديد دقيق لقياس المد من الحبوب . كذلك من الصعب وضع تناسب دقيق بين المد السوري والارتاب المصري ، لكن الارتاب يساوي ٣ – ٥ر٣ مد تقريبا(٨٢) .

يذكر يشوع العمودي (في سنة ٤٩٤ – ٤٩٥) الاسعار التالية للحبوب في مدينة الرها السورية فيقول : « في هذا الوقت ، كان كل ٣٠ مد من القمح يباع في الرها بدينار واحد ، وكل ٥٠ مد من الشعير يباعبدينار ايضا (٨٣) . وكان الدينار ، أو بالاحرى السوليدوس الذهبي ، يساوي ٢٤ كيراتيون فضي ، وبالتالي كان ثمن المد الواحد من

القمح ٨ر. كيراتيون ، وثمن المد الواحد من الشعير ٤٨ر. كيراتيون ، وهذا السعر طبيعي جدا بالنسبة للقرن الخامس الميلادي . وفيما بعد يتحدث يشوع العمودي عن غلاء المعيشة ويصف المجاعة وارتفاع الاسعار . في سنة ٤٩٤ – ٤٩٥ قدم اسعارا طبيعية للقمح والشعير . اما في سنة ٤٩٩ – ٥٠٠ فقد حلت الكوارث التي ادت الى حدوث المجاعة(٨٤) . في البدء ظهرت اعداد كبيرة من الجراد في مرحلة الزحف (قبل تكون الاجنحة) ، فأكلت الزرع وكل النباتات الاخرى في اماكن عديدة من منطقة مابين النهرين : اروبا ، تلة ، راس العين ، الرها . وظهرت عواقب هذا الامر في الحال : في شهرنيسان من سنة ٥٠٠ اخذ يتصاعد سعر الحبوب ، فصار كل ٤ مد من القمح يباع بدينار واحد (في السابق كان كل ٣٠ مد من القمح يباع بدينار واحد) . وفي حزيران وتموز من سنة ٥٠٠ حرم سكان هذه المناطق من كل ما هو ضروري للحياة، مما اضطرهم للتسول(٨٥) .

ويذكر يشوع العمودي ارتفاع اسعار المواد الغذائية الاخرى فيقول : كانت محاصيل البقوليات – الحمص والعدس والفول – تباع بالكابا (الكابا مكيال صغير استخدمه الاشوريون والبابليون والكنعانيون ، وذكره فيلون الاسكندري ، كما اعتبره ابيفانيوس القبرصي ١/٤ أو ١/٥ من المد ، أما المد المزدوج فيساوي ٨ كابا)(٨٦) . ففي زمن المجاعة والقحط في منطقة ما بين النهرين السورية كانت الكابا الواحدة من الفول تباع بمبلغ ٤٠٠ نوموس برونزي ، والكابا الواحدة منالحمص تباع بمبلغ ٥٠٠نوموس. ويمكن من خلال سعر الاتراب الواحد من العدس في الظروف الطبيعية ، الذي كان يباع بمبلغ ٣ كيراتيون ، الحكم على الحد الذي وصل اليه ارتفاع اسعار الحبوب في زمن المجاعة (الارتاب = ٣ مد = ٢٤ كابا ، السوليدوس الذهبي = ٢٤ كيراتيون فضي= ٦٠٠٠ نوموس برونزي) . أما اللحم فكان ارخص مادة غذائية في السوق . لم تكن الاعشاب متوفرة لاطعام المواشي ، حيث ابادها الجراد . ولذا اخذ الناس يذبحون المواشي ، فكثر اللحم واصبح رخيصا . ويتابع يشوع العمودي حديثه قائلا : « ان السنة التي تلت سنة ٥٠٠ – ٥٠١لم تجلب الراحة والهدوء للسكان ، بل اخذ الجوع يزداد في القرى والمدن . فكل من بقي في القرى راح يأكل العشب المر ، وبعضهم يطبخ حصرم العنب ويتناوله غذاء . وفي شهر شباط من سنة ٥٠١ ازداد الغلاء تصاعدا والطاعون استشراء . بالنسبة للقمح فقد بيعت كل ١٣ كابا بدينار واحد (ليرةذهبية، سوليدوس) . اما الشعير فقد بيعت كل ١٨ كابا بدينار واحد . وبيع ليتر اللحم بمبلغ ١٠٠ نوموس (الليتر = ٣٠٠ غ) ، والبيضة بمبلغ ٤٠ نوموس . وعلى العموم كان كل ما يؤكل غالي الثمن »(٨٧) .

لم يخفف محصول تلك السنة من وطاة غلاء المعيشة الا بقدر ضئيل ، لان القمح الجديد في حزيران وتموز من سنة ٥٠١ قد بيع بعد الحصاد بدينار واحد لكل ٥ مد . « لم تتحقق آمالنا » ـ هكذا كتب يشوع العمودي ـ على اعتبار أن التخلص من غلاء المعيشة لم يتحقق . في شباط السنة ٥٠١ بيع القمح بمكيال صغير (بالكابا) . وبعد الحصاد فقط اصبح البيع بالمد (المد المزدوج = ٨ كابا) . غير ان سعر القمح كان غاليا جدا ، بالمقارنة مع السعر الطبيعي . فكل ٥مد من القمح بيعت بدينار ، بينما في الاحوال الطبيعية بيعت كل ٣٠ مد من القمح بدينار واحد .

في السنة التالية ٥٠١ ـ ٥٠٢ كان محصول العنب وافرا . وكان العنب والخمر يمثلان عنصرا ضروريا في التغذية بالنسبة لكافة فئات الشعب ، كما يمتلكان اهمية كبيرة في الانتاج الزراعي . في تلك السنة بيع انتاج الخمر من المكبس مباشرة « ٢٥ مكيال بدينار واحد » . كانت كروم العنب تطعم الفقراء بفضل وفرة العنب المجفف (الزبيب) . وكان الزبيب في تلك السنة اكثر من العنب الطازج الصالح للمكبس ، لان ريحا جافة هبت في فترة النضوج فجففت كمية كبيرة من العناقيد(٨٨). ٢٥ مكيال من الخمر بيعت بدينار واحد ، وهذا السعر ارخص بكثير مما كان عليه في السنة الماضية، حيث كانت كل ٦ مكاييل تباع بدينار واحد . لكن اسعار الحبوب في تلك السنة (٥٠٢) استمرت بالصعود ، فبيعت كل ٤ مد من القمح بدينار ، وكل ٦ مد من الشعير بدينار . ويقول يشوع العمودي : « ان العنب المجفف (الزبيب) وحده هو الذي اطعم الفقراء وابعد عنهم خطر الموت جوعا » . لم تتحقق الامال المعلقة على محصول تلك السنة ، لان ريحا جافة هبت ثلاثة ايام في شهر ايار من سنة ٥٠٢ ، فسببت هلاك الكثير من المساحات المزروعة بالحبوب .

واورد يشوع العمودي موضوعا يثير الاهتمام ، دون أن يدرك هو المعنى الحقيقي لهذا الموضوع . ففي سنة ٥٠١ـ٥٠٢ امر الامبراطور انستاسيوس بالغاء الاحتفالات بالعيد الوثني في أيار ، هذا العيد الذي كان الكثيرون من الناس يتجمعون في مدينة الرها للاحتفال به عدة أيام . وقدعبر يشوع العمودي (الكاهن المسيحي) عن استيائه من الاحتفال بالعيد الوثني ، لكنه تمكن من اعطائه وصفا دقيقا حيا(٨٩) . فهو يعتقد ان البواعث الشريفة التي دفعت الامبراطور على الغاء الاحتفال بالعيد والرقص ومظاهر الخلاعة ، قد كوفئت بهبوط اسعار القمح . فبعد ثلاثين يوما صارت كل ١٢ مد من القمح تباع بدينار واحد ، وكل ٢٢ مد من الشعير تباع بدينار واحد ايضا . ومن المحتمل ان يكون هذا الهبوط المؤقت في اسعار القمح مرتبطا بالغاء العيد الوثني ، الذي كان الكثيرون من الناس يلتقون خلاله في المدينة ، فتنشط التجارة فيها وتتوارد اليها الاموال . وبما ان الآمال قد تلاشت بخصوص مبيعات الاعياد الوثنية في المدن ، فان

تجار الحبوب وملاكي الاراضي قد وجدوا انفسهم مضطرين لتخفيض اسعار القمح والشعير ، وربما فضلوا بيعه عن البيادر ، بغية توفير اجور النقل والتخزين في المدن، التي تضاف عادة على سعر الحبوب . ومن المحتمل ايضا ان يكون انخفاض سعر العنب والنبيذ ، نتيجة الموسم الجيد ، قد اثر في انخفاض سعر الحبوب .

وفي سنة ٥٠٤ ـ ٥٠٥ يتحدث يشوع العمودي للمرة الاخيرة عن أسعار الحبوب فيقول : « قبل هذه السنة كانت كل ٤ مد من القمح تباع بدينار ، وكل ٦ مد من الشعير تباع بدينار ،وكل ميكيالين من الخمر بدينار . اما بعد الموسم الجديد فصارت كل٦ مد من القمح تباع بدينار ، وكل ١٠ مد من الشعير تباع بدينار» . وهكذا في سنة ٥٠٤ ـ ٥٠٥ اصبح بالدينار الواحد يمكن شراء ١/٥ كمية القمح التي كانت تشتري بالدينار في سنة ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ، حينما كانت الاسعار طبيعية . وهذا يعني ان اسعار الحبوب قد ارتفعت خمسة اضعاف عما كانت عليه في الاحوال العادية . وسبب هذا الغلاء الفاحش الذي استمر من سنة ٥٠٠ حتى ٥٠٥ هو القحط المتكرر الذي اصاب منطقة ما بين النهرين السورية . اضف الى ذلك ، فان الخلل الذي اصاب الاقنية بسبب الاهمال قد اضر بنظام الري في كثير من القرى . وساهمت في المجاعة وارتفاع الاسعار ايضا بعض الكوارث الطبيعية الاخرى ، ومنها هجمات الجراد العديدة ، والرياح الصحراوية المحرقة التي سببت اليبس للثمار والحبوب وافضت الى الجدب والقحط . لكن ارتفاع الاسعار ارتبط بالدرجة الاولى بسيطرة كبار التجار والملاكين على السوق المحلية لتجارة الحبوب ، فالاسعار التي يذكرها يشوع العمودي عالية لدرجة انها يجب ان تعود الى بيع الحبوب من قبل التجار . من المحتمل أن الخبز الجاهز الذي كانت تصنعه مخابز المدينة تحت اشراف الحاكم البيزنطي كان يباع حسب الاسعار الحكومية المحددة ، ولكن حتى هذه الاسعار كانت ثقيلة بالنسبة للفقراء . هذا ولم يذكر يشوع العمودي شيئا ذا قيمة عن الاسعار الحكومية الموضوعة على الحبوب والخبز .

وهكذا يقدم تحليل اسفار يشوع العمودي السريانية جملة من الحقائق التي تكشف نظام الادارة البيزنطية في سورية ، ومشكلات العلاقات الزراعية ، ونشاط التعاونيات الحرفية في المدن ، والعلاقات التجارية الواسعة ، واخيرا تأزم الصراع الطبقي في ظروف الجوع والحرب وابتزاز الضرائب الفاحش . كل هذه المعلومات الحية الساطعة تشهد على وجود ثلاث مؤسسات في الدولة البيزنطية وهي :

١ ـ المؤسسة المالية ، او المؤسسة المختصة بنهب شعبها .

٢ ــ المؤسسة العسكرية ، أو المؤسسة المختصة بنهب الشعوب المجاورة .

٣ ــ مؤسسة الاشغال والخدمات العامة .

وكانت المؤسسة المالية اكثر هذه المؤسسات عملا ، فبفضلها تحولت الدولة البيزنطية الى آلة عملاقة تمتص خيرات رعاياها . اما النتائج فكانت الظلم والفقر والجوع والموت واحتدام الصراع الطبقي . هذه الامور تحدثت عنها الاسفار التاريخية السورية (السريانية) بكل بساطة ووضوح .

* * *

(١) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٤٥، ص٤٠ .

(٢) Payne, Smith, **Thesaurus Syriacus**, t. II, cc. 3147-3151.

(٣) **Ibidem**, t. I, C. 190 .

(٤) **Syrisch, romisches Rechtsbuch aus dem funften Jahrhundert**, Ed. Bruns und Sachau, Leipzig , 1880, Cod. L, P. 36.

(٥) **Ibidem**, Cod. L, § 50, p. 15.

(٦) **Ibidem**, Cod. P, § 28, P. 48.

(٧) **Ibidem**, Cod. L, §§ 49, 50, P. 15; Cod. p. § 28, p. 48.

(٨) **Codex Justinianus**, ed. Kruger, XI, 48, 23, P. 442.

(٩) **Ibidem**, XI, 48, 21, P. 422.

(١٠) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, P. 36.

(١١) **Syrisches Rechtbuch**, ed. Bruns und Sachau, Cod. L,§95, p.24.

(١٢) Zacharias Myitilenensis, I, 7, caq. 4, t. II, P. 28-30.

(١٣) **Codex Justinianus**, VI, 43. 3.

(١٤) **Syrisches Rechtbueh**, op. cit., § 73, P. 19.

(١٥) J. B. Bury, **History of the Later Roman Empire**, New york, Volume I, PP. 45-63 . (1923) .

(١٦) راجع دانيل دينيت ، الجزية والاسلام ، تعريب فوزي جاد الله ، بيروت .١٩٦٠ ، ص ٩٣–١١٤.

(١٧) Ulpian, **Digest**, L, 15. 3.

(١٨) Lot,**L'Impot foncier et la Capitation personnelle**,Paris 1928,PP.25-40.

(١٩) راجع دانيل دينيت ، الجزية والاسلام ، تعريب فوزي جاد الله ، بيروت .١٩٦٠ ،ص ٩٣–١١٤.

(٢٠) **Syrisches Rechtsbuch**, ed. Bruns und Sachau, L I, 121, PP. 333-334.
Syrische Rechtsbucher, ed. Sachau, B.I. 1907, R II, 151, pp.132-137.

(٢١) Mommsen,**Syrisches Provincialmass und romischer Reichs Kataster- Hermes**, B III, PP. 429-438.

انظر ايضا ف.ي.اوسبنسكي « قياسات الاراضي البيزنطية » ، في ابحاث المؤتمر السادس لعلم الاثار في اوديسا سنة ٨٨٤ ١، اوديسا ١٨٨٨، ص ٢٩٦ (بالروسية) .

(٢٢) Panly - Wissowa, **Real encyclopaedie**, IX, 2, cc. 2507-2508.

(٢٣) ف.ي.اوسبنسكي . تاريخ بيزنطة ، بطرس بورغ ١٩١٣ ، الجزء الاول ، ص٩١ه (بالروسية).

(٢٤) Hirschfeld, **Annonae, Philologus**, B. 29, H. I, 1870

(٢٥) **Novellae**, 128, cap. 3, p. 637.

(٢٦) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة .٤ ، ص ٣ه ، وفقرة ٨١ ، ص٧٧.

(٢٧) **Codex Theodosianus**, ed. Haenel, XI. 2, 4, 5, cc. 1058-1059.

(٢٨) Op cit., XII, 6, 15, 18, cc. 1284 - 1285.
(٢٩) **Codex Justinianus**, X, 16, 13, P. 441.
(٣٠) Op. cit., XI, 48, 4, P. 440 .
(٣١) Op. cit., XI, 48, 20, 2, P. 441.
(٣٢-أ) Syrisches Rechtsbuch, op. cit, 116, p. 32.

(٣٢-ب) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥.

(٣٣) يشوع العمودي ، فقرة ٩٣ ، ص٨٥.

(٣٤) **Codex Justinianus**, XI, 48, 20, 3, P. 441.
(٣٥) Joannes Lydus, **De magistratibus**, I. III, cap. 49, ed Wunsch, Leipzig, **1903, P. 138 - Bury, op. cit., t. I, London, 1923, P. 442.**
(٣٦) Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap.9.
(٣٧) Joannes Lydus, **De magistratibus**, I.III, cap. 49.
(٣٨) Evagrius . **Historia ecclesiastica**, I. III. cap. 42. Ed. Bidez et Parmentier. London, 1898, P. 144.
(٣٩) Prisciani . **De laudo Anastasii imperat, 193 - 195 , Poetae Latinae minores**, Baehrens, Lipsiae, 1883, t.5. P. 271.

(٤٠) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥ .

(٤١) Rostowzeff. **Studien Zur Geschichte des romischen Kolonates**, 1910, P. 196.

(٤٢) بانتشنكو . حول تاريخ بروكوبيوس السري(بالروسية) ، بطرس بورغ ١٨٩٨ ،ص١٤٢ ومايليها .

(٤٣) Novellae, 168. P. 755.
(٤٤) **Codex Justinianus**, XI, 25, 2, P.435.
(٤٥) Wright, **The chronicle of Joshua the Stylite**, trans., P. 20.
(٤٦) Zacharias Myti lenensis, 1. 7, cap. 6,P. 37.- Payne- Smith, **The saurus Syriacus**, t. I, C. 1236.

(٤٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨١ ، ص ٧٧.

(٤٨) Zacharis Mytilenensis, I, 7, caq. 3, t. II, p. 24.

(٤٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٤ ، ص ٤٠ .

(٥٠) فاسيليفسكي . مصادر لدراسة الدولة البيزنطية ، مجلة وزارة الثقافة الشعبية ، العدد ٢٠٢ ، نيسان ١٨٧٩ (بالروسية).

(٥١) بانتشنكو ، ص ١٢٨.

(٥٢) روداكوف . دراسات في الحضارة البيزنطية ، ص ١١٧ (بالروسية) .

(٥٣) Codex Justinianus, X, 27, 2, 3, PP. 404-408.
(٥٤) OP. cit., X, 27, 2, P. 407, c. 2.
(٥٥) Op. cit., X, 27, I, P. 407.
(٥٦) OP. cit., X, 27, 2.

(٥٧) رودلاكوف ، دراسات في الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٢ .

(٥٨) Dolger, Finanzverwaltung, P. 58.
(٥٩) Codex Justinianus, X, 27, I, P. 407.

(٦٠) يشوع العمودي ، فقرة ٨٢ ، ص٧٧.

(٦١) Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 5. pp. 32-33.
(٦٢) Codex Theodosianus, XIII, I, 68, 12, 13 — Codex Justinianus, XI,48,1.
(٦٣) Codex Justinianus, X, 27, 3, P. 408.
(٦٤) OP. cit., X, 27, 3, P. 408.

(٦٥) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٣٥ .

(٦٦) يشوع العمودي ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٥–٣٦ .

(٦٧) Stokle, Spatromische und Bysantinische Zunfte, P. 101.

(٦٨) يشوع العمودي ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٦ .

(٦٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧ .

(٧٠) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧.

(٧١) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧.

(٧٢) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٧٣) يشوع العمودي ، فقرة ٤٣–٤٤ ، ص ٣٨–٤٠ .

(٧٤) يشوع العمودي ، فقرة ٨٤ ، ص٧٩ .

(٧٥) Mickwitz , Goldwertindex der romisch - byzantinischen Zeit, Aegyptus, t. XIII, 1933, P. 103.
(٧٦) Soutzo, « Le Systeme monetair d' Anastase » . Bulletin historique de L'Academie roumaine, t. 13, 1927, P. 54.
(٧٧) Seeck. « Munzenpolitik Diokletians », Zeitschrift fur Numismatik, 1890, B. 16, P. 166.
(٧٨) Babelon, Traite des monnaies grecques et romaines 1901, t. I, PP. 616 - 617 .
(٧٩) Babelon, ibidem, C. 1042 .

(٨٠) Payne - Smith, Thesaurus Syriacus, t. II, c. 3741.

(٨١) Dolger. Finanzverwaltung, P. 123.

(٨٢) Ostrogorsky, « Lohne und Preise », Bysantinische Zeitschrift, 1932, B. 32. H. II. pp. 319 - 320.

(٨٣) يشوع العمودي ، فقرة ٢٦ ، ص ٢١.

(٨٤) يشوع العمودي ، فقرة ٣٦ ، ص ٢١ .

(٨٥) يشوع العمودي ، فقرة ٣٨ ، ص ٣٢.

(٨٦) Hultsch . Metrologie, P. 451 .

(٨٧) يشوع العمودي ، فقرة ٤٣ ، ص ٣٩.

(٨٨) يشوع العمودي ، فقرة٤٥ ، ص ٤٠.

(٨٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢.

مملكة يمحاض (حلب)

د. شوقي شعث

المتحف الوطني بحلب

في نهاية الالف الثالثة وبداية الالف الثانية قبل الميلاد ظهرت على المسرح السياسي في سورية الشمالية قبائل عربية (جزرية)(١) عرفها التاريخ باسم الآموريين(٢) ، او العموريين ، واخذت تتسلل الى المدن في بلاد ما بين النهرين وفي سورية تسللا بطيئا للعمل بصفة عمال او مرتزقة في الجيوش ، ومع الزمن تمكن هؤلاء من الوصول الى المراتب العالية في الدولة والجيش . وعندما غابت دولة سلالة أور الثالثة حوالي عام ٢١٠٠ق.م(٣) ، تلك القوة السياسية القوية التي كانت تسيطر على الاحداث في بلاد ما بين النهرين وسورية ، تمكن الآموريون من البروز الى الصدارة وتكوين كيانات سياسية خاصة بهم في بلاد ما بين النهرين وسورية ، وما ان حل الالف الثاني قبل الميلاد حتى اصبحت سورية أمورية في سكانها ولغتها وكياناتها السياسية(٤) . من اهم تلك الممالك في سورية الشمالية كانت يمحاض وعاصمتها حلبا (حلب اليوم) وماري (تل حريري) وقطنة (المشرفة) وابلا (تل مرديخ) والالاخ (تل عطشانة) وغيرها .

عرفنا الكثير عن تلك الدويلات وعن الحالة السياسية في تلك الفترة في سورية الشمالية من خلال الرقم المسمارية واللقى الاثرية التي عثر عليها في ماري ورأس شمرا والالاخ ، واخيرا في ابلا / تل مرديخ . اما عن يمحاض (حلب) فان معلوماتنا عنها لا زالت مقتصرة على ما ورد من معلومات في محفوظات الممالك السورية المعاصرة لها، التي المحنا الى بعضها سابقا ، لانه لم تجر في مدينة حلب نفسها تنقيبات اثرية منهجية اثرية تمدنا بمزيد من المعلومات . كذلك وردتنا معلومات عن مملكة يمحاض من المصادر

الكتابية الحثية التي اعطتنا معلومات عن علاقة يمحاض بالحثيين . كانت حدود مملكة يمحاض / حلب ، خاصة في عهد ملكها حمورابي ، تمتد غربا الى البحر المتوسط(٥) وشرقا حتى مجرى البليخ الاعلى حيث كانت كركميش تحت تأثيرها(٦) ، ومن الجنوب تتصل بحدود مملكة قطنة(٧) .

ان ظهور مملكة يمحاض وتطورها كان بسبب موقعها الجغرافي الذي أهلها للسيطرة على الطريق التجاري الكبير (الممر السوري العظيم) الذي يربط بلاد ما بين النهرين بسورية والاناضول وبلاد اليونان والساحل السوري ومصر(٨) ، هذا الممر الذي كانت تستورد بلاد ما بين النهرين عن طريقه النبيذ اليمحاضي والالبسة اليمحاضية والاخشاب من جبال ابلا وجبال جبيل (لبنان) ، والفضة من جبال الامانوس ، وغيرها من المواد الخام . وكذلك كانت تستورد النحاس من الاسيا(قبرص) عن طريق رأس شمرا (أوغاريت) وابلا(٩) اللتين كانتا تابعتين(١٠) لمملكة يمحاض . كما ان موقعها الجغرافي ذلك كان في وسط سهل زراعي خصيب كان ولا يزال ينتج العنب الذي تصنع منه الخمور (النبيذ) والزيتون الذي يستخرج منه الزيت ، والكتان الذي كانت تصنع منه الالبسة اليمحاضية .

مما تقدم نلاحظ ان يمحاض وعاصمتها حلبا كانت مركزا تجاريا كبيرا ومركزا زراعيا لانتاج المحصولات الزراعية ، ومركزا صناعيا يصنع فيه النبيذ والنسيج .

الاسرة الامورية في يمحاض : لا نعرف بالتحديد متى تأسست هذه السلالة في حلب ، ومازال تاريخ بدايتها غامضا نظرا لعدم توفر الادلة الاثرية والشواهد التاريخية، لكن الرقم الطينية التي اكتشفت في الالاخ (تل عطشانة) والتي نشرها وايزمن ، خاصة تلك التي عثر عليها في الطبقة السابعة ، امدتنا ببعض اسماء ملوك الاسرة اليمحاضية ، وقد امكن على ضوء ذلك بناء شجرة سلالية اعتبارا من ياريليم الاول وبعده ابنه حمورابي الذي كان معاصرا لحمورابي البابلي (١٧٩٢ — ١٧٥٠) . وبناء عليه يمكن الافتراض ان السلالة اليمحاضية في حلب تأسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد(١٢)، واستمرت في الحكم حتى دمرت الالاخ على يد الحثيين في عهد الملك اليمحاضي ياريليم الثالث Iarim lim III والى هنا تتوقف الحوادث الواردة في المحفوظات الكتابية في الالاخ والعائدة للطبقة السابعة .

يمحاض والحثيون : تستمد معلوماتنا عن علاقة يمحاض (حلب) بالحثيين من الوثيقة التاريخية الهامة المكتوبة باللغة الاكادية والمعروفة بوثيقة تلبينوس Text of Telepinus (١٣) من القرن الخامس عشر قبل الميلاد(١٤) . وعلى الرغم من

انها تعود الى عهد احدث من تاريخ العلاقات الحثية ـ اليمحاضية ، الا انها تتعرض للاحداث الماضية بشيء من التفصيل . وسبب ذلك ان الوثائق السابقة لهذه الوثيقة فقدت فاعيد كتابة مضمونها ، او ان الملك الحثي اراد ان يوحد تاريخ العلاقات بين بلده ويمحاض في نص واحد .

تبدأ الوثيقة بالقول « هكذا يتكلم تبارنا تيليبينو الملك العظيم(١٥) ، سابقا كان لابارنا Labarna الملك العظيم ، واولاده واخوته وأقرباؤه ومن تربطه بهم علاقة الدم ورجاله المحاربين يتجمعون حوله . .

وعندما حكم مورشيل الاول Mursili I في حاتوشا واولاده واخوته واقرباؤه ومن تربطه بهم صلة الدم ورجاله المحاربين حوله لقد سار الى حلبا Halpa (حلب) ، ودمر حلبا ، وجلب الاسرى من حلبا وامتعتهم الى حاتوشا بعد ذلك سار الى بابل ودمرها »(١٦) .

وفيما بعد اعيد تنظيم العلاقات الحثية اليمحاضية بموجب معاهدة عرفت باسم معاهدة حلب(١٧) وقد عقدت تلك المعاهدة بين الملك الحثي مورشيل الثاني(١٨) ، وبين حفيده ريم شارما Rim Sharma ملك حلب وذلك عام ١٣٣٦ ق.م (١٩) ومن خلال تلك المعاهدة يمكن التعرف على طبيعة العلاقات الطيبة المقترنة بالمصاهرة .

لا تتوسع المصادر كثيرا حول اصطدام يمحاض بالحثيين اذ لم نقف على معلومات مؤكدة تشير الى ان الملك الحثي حتوشيل الاول(٢٠) تمكن من حلب واخضعها لتصبح مملكة تابعة له ، وعليه فانه من المشكوك فيه ان تكون حلب قد خضعت للغازي القادم من الشمال ، ومن المرجح ان يكون قد فشل وعاد الى عاصمته بعد ان هزمته عساكر حلب واوقعت به جراحا في تلك الغارة التي مات بسببها ، وهذا ما دفع خليفته مورشيل الاول ان ياخذ على عاتقه القصاص من يمحاض(٢١) ، فتمكن من احتلالها وتدميرها بعد حروب طويلة وتحالفات كثيرة . كانت حلب قوية جدا لايمكن ان تسقط بغارة واحدة(٢٢)، ومن اجل كسب الوقت والمخادعة قرر الحثيون التوسع جنوب طوروس للتحكم في التجارة الدولية والاستفادة من خيرات السهول الجنوبية ، فبدؤوا زمن حاتوشيل كما يبدو بعقد معاهدة صداقة مع حلب (٢٣) ، فلما فشلوا في الوصول الى هدفهم تحول حاتوشيل الى سياسة القضم الذي طبقها على مملكة يمحاض فتوجه الى الالا خ(تل عطشانة) احدى الممالك الهامة التي كانت تابعة لحلب ويحكمها احد فروع الاسرة اليمحاضية بحلب ، واخذها(٢٤) ، فسلب بذلك يمحاض ميناءها الرئيسي ومنفذها الى البحر المتوسط ، وبعد ذلك توجه الى مدينة اورشو ، المدينة الحليفة

لملكة يمحاض(٢٥)، كما تشير المصادر، على حد قول ماكوين ،الى ان الحثيين تحالفوا مع مملكة حانا (خانا) ـ القوة الجديدة في المنطقة التي ظهرت بعد سقوط مملكة ماري (تل حريري) ـ من اجل احاطة مدينة حلب وقطع تجارتها الدولية ، وبالتالي ضرب رخائها . ويبدو أنهم وجدوا مبتغاهم ، سيما وان حكام تلك المملكة لم يكونوا ، كحكام بابل وحلب ، من الاموريين(٢٦) .

وعلى الرغم من اننا لانعلم بالضبط متى حدثت تلك الاحداث التي اشرنا اليها اعلاه الا انه يمكن ان يكون مورشيل الملك الحثي قد تمكن من تدمير حلب حوالي عام ١٥٩٥ ق.م.(٢٧) وهكذا تحقق الحلم الحثي بالسيطرة على طريق التجارة الدولية حتى الفرات الاوسط ، ولما لم يكفه ذلك استغل صداقته مع ملك خانا وقام بحملة خاطفة على بابل فدخلها ونهبها(٢٨) ، وبذلك اصبح الطريق الدولي التجاري حتى بلاد بابل تحت سيطرته ، ولكن الملك الحثي لم يستطيع الاحتفاظ بالنصر الذي احرزه في بابل ، فقد اجبرته الهجمات الحورية على حدود بلاده ودسائس قصره والطامعين بالملك من اسرته ، على العودة سريعا الى حاتوشا(٢٩) .

بعد موت مورشيل الاول مقتولا على يد صهره حانتيل الاول Hantilis I اخذت المملكة الحثية في الضعف والتقوقع تدريجيا تاركة حلب وسورية الشمالية للحوريين . ولكن بعد اعتلاء تلبينوس العرش الحثي حوالي عام ١٥٠٠ق.م تمكن من اعادة العافية لمملكته واصبح قادرا على التقدم مرة اخرى نحو سورية الشمالية وعقد معاهدة مع حاكم Kizzuwadna التي كانت موالية للحوريين، وبوصول تلبينوس آنف الذكر الى العرش الحثي انتهت الفترة المعروفة بفترة المملكة الحثية القديمة ، فتابع هو وخلفاؤه سياسة اسلافه ملوك المملكة القديمة فيما يتعلق بسورية الشمالية ابان الدور الامبراطوري (١٤٥٠ ـ ١٢٠٠ ق.م)(٣٠) .

حلب والقوى المتنافسة على المسرح السياسي :

خضعت حلب بعد احتلال مورشيل الاول الحثي لها غير مختارة واخذت تتحين الفرص للثورة على اسيادها الجدد لانها كانت تحن الى لعب دور يماثل دورها في العصر اليمحاضي ، وقد ساعدها في بعض الاحيان على تلك الثورات بروز قوى سياسية اخرى كبيرة وهي القوة الميتانية والقوة المصرية ، الا انها بقيت بصورة عامة دولة تابعة تناوبت عليها القوى العظمى في ذلك الزمان طمعا في خيراتها التي كانت تجنيها من سيطرتها على طرق التجارة الدولية .

من الاحداث الهامة التي سجلت في هذه المرحلة قيام الملك الحثي توضاليا Tudhaliya بمهاجمة مدينة حلب وتخريبها . ويعتقد انها المرة الاولى التي يقوم فيها

ملك حثي بقيادة جيشه الى جنوب طوروس منذ ايام مورشيل الاول(٢١) ، ويظهر أن سبب تلك الغارة انتفاضة حلب على محتليها وطردهم مما رتبعلى الملك الحثي اخضاعها مرة ثانية(٢٢) . ولكن فيما بعد وفي أواخر حكم توضاليا هذا ربما ضعفت الدولة الحثية مما اطمع كثيرا من القوى بمهاجمتها والاستفادة من ضعفها ، فقد أقدم الميتانيون على السيطرة على سورية الشمالية وسموها Hanigalbat في حين عرفها المصريون باسم نهارينا ، كما اقدم بعض الامراء الموالين للميتانيين على مهاجمة حدود الدولة الحثية دون ان ينالوا عقابهم(٢٣) . وفي هذه الفترة ايضا وحوالي عام ١٤٧١ ق.م برزت قوة ثالثة على المسرح السياسي في سورية الشمالية الا وهي القوة المصرية حيث قام تحوتمس الثالث بالتقدم بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومنه الى سورية الشمالية واخذ حلب مجهزا بذلك على النفوذ الميتاني في المنطقة(٢٤) ، وبقي المصريون سادة الموقف لمدة تقارب ثلاثين عاما بعد ان اجبروا الحثيين على دفع الجزية لهم(٢٥) .

لم تكن هذه التطورات بالطبع ترضي الحثيين ولا الميتانيين ، واخذ كل ينتظر الفرصة السانحة . ويبدو انها جاءت في ثورة حلب ضد المصريين بعد موت تحوتمس الثالث (١٤٥٠ ق.م) . ولكن هذه الثورة الحلبية ، مع أنها خلصت حلب من النير المصري ، الا انها انتقلت الى تحالف جديد مع الميتانيين القوة الرئيسية الثالثة بالمنطقة(٢٦) واعطت الحثيين في الوقت نفسه الفرصة للملمة انفسهم من جديد وتجديد تحالفاتهم مع كيزووادنا . كان ذلك في اول عهد توضاليا ، وفي خلال عام او عامين من بداية حكمه كان قادرا على الحاق الهزيمة بحلب وتدميرها عقابا لها على تحولها الى الميتانيين(٢٧) ، وبذلك اصبح الطريق التجاري الدولي ثانية في قبضة الحثيين(٢٨) .

تابع الحثيون زحفهم نحو الجنوب مستفيدين من انتصاراتهم على حلب وميتاني وتحالفهم مع القوى السياسية المحلية الصغيرة ، ولما كان هذا الزحف قد هدد الممتلكات المصرية وأقلق الميتانيين ، اذ اخذ الحثيون يتوسعون على حسابهم وحساب المصريين(٢٩) ، سارع الميتانيون للاتصال بالمصريين فارسلوا بعثة سلام الى امينوفس (امنحوتب) الثاني تمكنت من ابرام معاهدة سلام معه وعقد مصاهرة بين البيتين الحاكمين في مصر وميتاني ، وعادت المنافسات بين القوى السياسية من جديد على امتلاك حلب وسورية الشمالية .

أعقب حكم توضاليا فترة مدمرة ثانية فقد فيها الحثيون شمال سورية من جديد كما فقدوا حليفتهم كيزو وادنا بسرعة ، واطبق عليهم الاعداء من كل جانب ، فمن الشمال هاجمهم شعب Gasgaz ومن الشمال الشرقي Azzi-Hayasa ومن الشرق Isuwa ، وآخرون كثيرون هاجموا حاتوشا وتمكنوا من احراقها حرقا تاما(٤٠) . ومما

زاد في ضعف بلاد خاطي تلك الهجمات التي قام بهاAr zawaالذي كان راغبا فيما يبدو في السيطرة على طريق التجارة الدولي وبالتالي أن يصبح شخصية دولية. ولكن الحال لم يطل اذ تمكن في عام ١٣٨٠ق.م امير شاب من الوصول الى العرش الحثي اسمه شوبيلوليوما . وقد نجح الملك الحثي الجديد في أن يهزم اعداء بلاده فيالشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي ، كما تمكن بعد حملة فاشلة من ان يقوم بحملة ناجحة ضد ميتاني وينتزع منها حلب والالاخ حوالي عام ١٣٧٠ ق.م ويعيدها الى الحظيرة الحثية، حاسما بذلك الموقف في سورية الشمالية لمصلحة بلاده(٤١) ، ولكن شوبيلوليوما عاد الى عاصمة بلاده على عجل بسبباحداث حدثت هناك(٤٢) وترك أمر سورية الشمالية الى ولده تلبينوس الذي عرف بالقديس والذي اتخذ من حلب مركزا له يدير فيها شؤون سورية الشمالية (٤٣) . ومن الواضح أن الذي ساعد على احراز الحثيين لهذه الانتصارات غياب القوة المصرية حليفة الميتانيين وذلك بسبب الاحداث التي جرت في مصر، ومنأهمها ادخال الديانة الآتونيةالتوحيدية على يد أمينوفس (امنحوتب) الرابع (اخناتون) وما ترتب على ذلك من زعزعة السلطة المصرية وضعفها ، وهذا ما ساعد الحثيين على الانفراد بالميتانيين حلفاء المصريين وتحويلهم الى دولة ضعيفة او تابعة . ومن اجل ضمان استمرار الوضع زوج شوبيلوليوما ابنته الى ابن الملكالميتانيشادستارا الكبير(٤٤) . خلف شوبيلوليوما الفاتح الكبير شخص ضعيف مريض يدعى أرنوواندا لم يستطع ادارة البلاد ومن حسن الحظ انمات مبكرا وخلفهاخوه الاصغر مورشيل الثاني الذي ظل في الحكم ثلاثين عاما قام خلالها باستعادة قوة الدولة الحثية التي كانت لها أيام والده شوبيلوليوما . ومن اجل تحقيق ذلك الهدف قاتل مورشيل الثاني شرقا وغربا(٤٥) ، لكن الامر المعقد بالنسبة اليه كان الاصطدام مع المصريين الذين استعادوا قوتهم بعد استتباب الاوضاع الداخلية لديهم فأرادوا زمن سيتي الاول التوسع شمالا في بلاد الشام ، وظل هذا الصراع قائما حتى تم وضع حل نهائي له في بوتقة قادش التي كان من نتيجتها توقيع معاهدة عرفت بنفس الاسم(٤٦) .

١ ــ يمحاض والالاخ :

اصبحت الالاخ (تل عطشانة) تابعة ليمحاض ابان حكم ملك يمحاض أبان نحو عام ١٧٢٠ ق.م حتى ما لايتجاوز عام ١٦٥٠ ق.م اي انها ظلت خلالسبعين عاما تقريبا تابعة ليمحاض(٤٧) حتى تدميرها من قبل الحثيين وهي الفترة التي تقابل الطبقة السابعة في الموقع طبقا لرأي وولي الذي قام بالتنقيب في تل الالاخ(٤٨) ، لقد امدتنا المحفوظات التي اكتشفت في الالاخ بالكثير من المعلومات حول علاقة المدينتين علىالرغم من أن المحفوظات التي اكتشفت في الطبقة السابعة لم تكن تغطي كل الفترة التي كانت فيها الالاخ تابعة لحلب ، وربما تعود الى الجزء الاخير من الفترة المشار اليها .أما

المحفوظات التي تعود الى الفترة المبكرة من العلاقة فقد حفظت في مكان اخر ، عموما فانه نظرا لحجم المحفوظات المكتشفة في السوية السابعة فان معظم اللوحات المكتشفة تغطي الفترة الاخيرة من حكم ياريم — ليم الثاني اليمحاضي الذي كان ابن ابان وخليفته في حكم حلب ، والحكام اللاحقين(٤٩) : اما اللوحات التي تعود لفترة مبكرة فقد حفظت في قصرياريم ليم،الاخ الاصغر لابان،الذي بناه فيالالاخ بعدان عينحاكمامن قبل اخيه.

قام ابان بمنح مدينة الالاخ لاخيه ياريم ليم تعويضا له عن المناطق الواقعة الى الشرق من حلب والتي حدثت فيها القلاقل والاضطرابات ضد يمحاض(٥٠) ، وقد أخذ ابان من اخيه ياريم — ليم المواثيق والعهود على ان يظل مخلصا له(٥١) . ومثل هذا المنح كان مالوفا في الشرق القديم فكثيرا ما كان الملوك يعينون اخوتهم أو أبناءهم ليصبحوا حكاما على المدن التابعة ، وهو بالطبع يقلل من المؤامرات على الحكم ويكسبه الاستقرار(٥٢) . وعليه اصبح ياريم — ليم يحكم من مدينة الالاخ منطقة العمق كلها ، كنائب لاخيه . وبعد موت ابان تولي حكم يمحاض ولده ياريم—ليم الثاني.

ويبدو ان يمحاض بلغت فيعهد ياريمليم الثاني(٥٣) هذا ذروة قوتها حيث أصبحت أقوى ممالك عصرها حسبما ورد في رسائل سفراء ملك ماري زمري ليمالبه ، وهذا ما اكدته الشواهد الاثرية ايضا فقد كان الامن في عهده الطويل نسبيا مستتبا(٥٤) .

وتشير بعض محفوظات القصر الملكي في الالاخ الى ان المدينة اصبحت مقرا للملك اي مقرا للاسرة الملكية في يمحاض ، ومما يؤيد هذه الاشارة هو العثور علىالقصروالمعبد والتحصينات القوية التي اظهرتها التنقيبات الاثرية هناك . ويبدو أن ملك يمحاض، الذي كانت اقامته في حلب تجعله في مواجهة أعدائه وحلفائه غير المخلصين في بلاد ما بين النهرين وتعرضه للسقوط بضربة مفاجئة من أعدائه ، فضل الاقامة في الالاخ، فقام بتوسيع القصر واقامة التحصينات التي تفرضها اقامته الملكية(٥٥) . وعلى الرغم من ان اقامة ملوك يمحاض فيالالاخ طورتالمدينةوزادت فيعمرانها وتطورها الاقتصادي والاجتماعي ، الا ان سكان الالاخ ظلوا ينظرون اليهم كاجانب(٥٦) ، لذلك نجدهم فيبعض الاحيان يثورون على حكامهم من الاسرة اليمحاضية . وقد ثاروا مرة حرق فيها القصر والمعبد والقلعة وبوابة المدينة وبناء ضخم يقع تحت قصر نقميبا(٥٧) . ويتساءل وولي فيما اذا ذلك التدميرمن قبل أهالي الالاخ اومن قبل عسكر حلب والمقاطعات الشرقية التي من الممكن ان تكون قد استقدمت للمساعدة على اخماد الثورة. وعلى اي حال فمن الطبيعي انتصورهجمات مضادة وعمليات كر وفر في مثل هذه الاحوال وليس هناك ما ينفي أن الالاخ ربما حاولت بمساعدات خاصة استعادت استقلالها ، وربما كان ذلك الضعف الذي نشأ عن تلك المحاولات سببا في نهاية اسرة ياريم — ليم في الالاخ(٥٨).

وخلاصة القول ان الالاخ كانت مملكة تابعة لمملكة يمحاض الكبيرة يحكمها فرع من فروع الاسرة الامورية الحاكمة في حلبا ، وكانت (آلالاخ) المنفذ الرئيسي لحلبا الى البحر المتوسط . ويمكن ان تكون من المدن المحببة الى قلوب ملوك حلب ولذلك اختاروها كي تكون مقرا ملكيا لهم ومقرا لحفظ وثائقهم ومحفوظاتهم . ومن أهم ما اعطت الالاخ لحلب في العصر الحاضر ، اضافة الى ما اعطته في الماضي ، انهااعطت جزءا من تاريخهاالتي كانت تحتفظ به في جعبتها . ولعل الايام القادمة تتيح لغيرها من المدن ان تعطي حلب ما اعطته الالاخ لشقيقتها الكبرى .

٢ ـ **يمحاض وابلا** : حتى الان لم تمدنا التقيبات الاثرية في ابلا بأية معلومات حول يمحاض (٥٩) خاصة تلك التنقيبات التي تجري في القصر Q الذي يعود الى العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م) ويذكر سيدني سميث انه عثر في احد الوثائق ان ولي عهد مملكةالالاخ (تل عطشانة) ياريم ـ ليم الثاني الذي اصبح ملكا على يمحاض طلب من ملك ابلا يد ابنته كعروس لابنه(٦٠) .

وقد يكون في هذا اشارة الى ان ابلا في عصر قوة يمحاض كانت تابعة لها(٦١) ، ويضيف الكاتب الملمح اليه ، في معرض حديثه عن تحقيق مدينة اورشو ، ان بلاد اورشو ، التي ذكرت في وثائق ماري ، كانت تابعة لابلا عندما بحث ولي عهد الالاخ ياريم ليم عن زوجة لابنه Ir-kabtum ، كما يضيف انه غالبا ما كانت ابلا عضوا في الاتحاد الكونفدرالي ليمحاض(٦٢) .

يذكر ميشيل استور ان ابلا كانت تستورد النحاس من بلاد قبرص Alasiya عن طريق اوغاريت في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، ويعتقد انهاظلت كذلك في عهدها الاموري (النصف الاول من الالف الثاني) ولكن هذه المدة لصالح مملكة يمحاض (حلب) ، المملكة الكبيرةالتي كانت تسيطر على شمال سورية(٦٣) .

٣ ـ **يمحاض وقطنة** : تقع قطنه (المشرفة اليوم) الى الشمال الشرقي من مدينة حمص ، وكانت تقوم فيها احدى الممالك الامورية الهامة في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد في الوقت الذي كانت فيه مملكة يمحاض قائمة وتتخذ من حلب عاصمة لها ، وكانت تربطهابيمحاض علاقات من النوع السائد بين ممالك العصر ، فكانت تتأرجح بين العلاقات الطيبة والعلاقات السيئة بسبب المنافسات السياسية او الاقتصادية ، أو بسبب التدخلات الخارجية . بين ما عثر عليه في محفوظات ماري رسائل كثيرة بين زمري ليم وملوك قطنة ويمحاض وبابل وغيرها ، وورد في احدى تلك الرسائل ذكر الملك قطنة امي ـ اول ـ بي ـ ايل A- mie - ul - pi-il ، كما ورد ذكر الملك يمحاض

ياريم ـ ليم(٦٤) وربما جاءهذا في معرض التوسط بين الملكتين الاموريتـين يمحاض وقطنة عندما نشأ الخلاف بينهما وتوسط فيـه زمري ليم ملـك ماري وحمورابي ملك بابل ، ذلك من اجل ان تكون العلاقة بين ياريم ـليم ملك حلب وأمي ـاول بي ـايل ملك قطنة . ولاجل أن تقوم علاقات طيبة بين الطرفين يشترط ياريم ـ ليم ملك يمحاض حضور ملك قطنة الى حلب ليقدم الاضاحي للرب حدد ويحلف الايمان باسمه(٦٥). ويعني هذا خضوع ملك قطنة له او على الاقل تقديم اعتذار . وفي رسالـة اخرى يذكرهـا الاستاذ فورزان كنال بجامعة انقرة عثر عليها في ماري ، ان ملك يمحاض ياريم ـليم قد أعلن عن اتفاق مع ملك قطنة ياموت بعل . وربما كان هذا هو السبب الذي دفع شمشي حدد الاول الملك الاشوري ، بعد احتلاله لمدينة ماري في عهد ملكها يهدونليم ، للقيام بحربه في الغرب ، وذلك للانتقام من يمحاض نظرا لطبيعة العلاقات الخاصة بينهـا وبين ماري(٦٦) . كذلك نجده لا ياتي على ذكر حلب في رسائله ويتجاهلها تماما بسبب العداء بينه وبينها كما المحنا ، في حين انه حافظ على علاقات طيبة مع قطنة(٦٧) .

بعد انتهاء الاحتلال الاشوري لمملكة ماري عاد زمري ليم الى عرش أبائه في ماري وذلك بعد موت شمشي ـ حدد الاول ، وكانت عودة زمري ليم كما تذكر الوثائـق التاريخية بمساعدة عساكر مملكة يمحاض . في هذا الوقت كانت احدى الرسائل التي وجهها أحد سفراء زمري ليم اليه تذكر من بين القوى الرئيسية في المنطقة مملكتي حلب وقطنة(٦٨) .

ويبدو ان العلاقة الحميمة التي اقامها شمشي حدد الملك الاشوري مع اسكي حدد ملك قطنة توجت بزواج ابنة الاخير الى ابن شمشي حدد يشمع حدد نائب الملك في ماري . كان التعاون بين الاشوريين وملوك قطنة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية واسعا ، فلقد تمركزت قوات أشورية في قطنة . وهذه العلاقـات التي اقامها ملوك قطنة مع الاشوريين ازعجت ملوك يمحاض وجعلتهم في خصام مع ملوك قطنة اثناء مدة الاحتلال الاشوري لمدينة ماري ، ولكن عندما تمكن زمري ليم بمساعدة مملكة حلب كما اشرنا من استعادة عرش ابائه وظهرت حلب في مركز المملكة القويـة المسيطرة ، كان طبيعيا ان تتحرش بمملكة قطنة ، ولكن توسط زمري ليـم ، وتغيير الاسرة الحاكمة في قطنة (او الملك) (٦٩) ، ساعدا على اقامة صلح بين الطرفين فوقعت معاهدة صداقة وحسن جوار بين المملكتين في حلب كما اشرنا(٧٠) . وخلاصة القول ان يمحاض وعاصمتها حلب كانت من اقوى ممالك عصرها في سورية الشمالية وبلاد مابين النهرين ، وقد ازدهرت وفاقت بازدهارها بابل وماري وابلا وقطنـة وغيرها مـن الممالك السورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ولكن ازدهارها اثار حفيظة الاعـداء فتآمروا للقضاء عليها . ورغم انها قاومت تلك المؤامرات الا انه اسقطت في النهاية تحت ضربات الدولة الحثية الفتية .

شجرة سلالية للملوك يمحاض

سومو ايبوخ

|

ياريم ليم الاول

|

حمورابي الاول

|

ابان

|

ياريمليم الثاني

|

نقميبوخ (نقمي ايبوخ)

اركاب توم (يتزوج ابنة حاكم ابلا)	ياريمليم الثالث	حمورابي الثاني	اما ريكي

(K U B XXX 15)

شجرة سلالية لحكام الالاخ (تل عطشانة)

ياريم ليم

امي تاكوما

حمورابي (AT 6)

زومي ـ ادو (AT 55)

طبعة ختم اسطواني من الطبقة السابعة في الالاخ تل عطشانة
عليها نقش كتابي يقول : نقمي ايبوخ بن ياريليم ليم ملك يمحاض

طبعة ختم اسطواني من الطبقة السابعة في الالاخ تل عطشانة

عليه نقش يقول : ياريم ليم بن ابان ملك يمحاض

طبعـة ختم اسطواني من الطبقة السابعـة في الالاخ تل عطشانة

عليه نقش كتابي يقول : ابان بن حمورابي ملك يمحاض

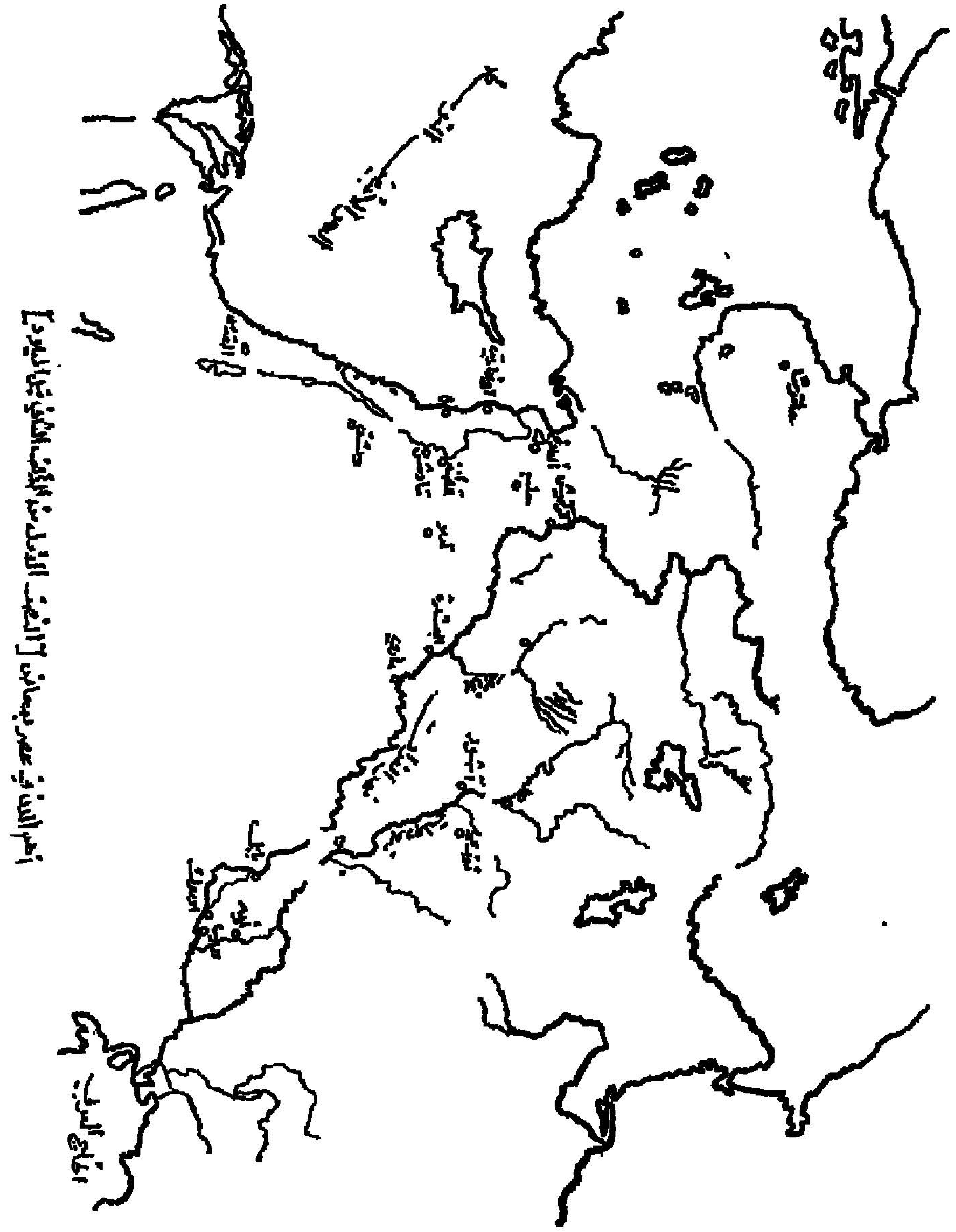

هوامش وملاحظــات :

(١) انظر حول مشكلة البدو في سورية الشمالية :

Kupper, J.R., Les Nomades de Mésopotamie au temps des rois de Mari, Paris 1957 .

استعملنا كلمة (جزرية) تفاديا لاستعمال المصطلح التوراتي (سامية) ، وبعض الباحثين يفضلون استعمال كلمة (الشامية) ، عموما لم يجر اتفاق حول هذه المصطلحات حتى الان .

(٢) حول الاموريين انظر :
Haldar, Alfred, **Who were the Ammorites**, Leiden 1971.

(٣) Landsberger, « Ammorites » in **Encyclopaedia Britanni ca**, I (1965) pp. 809-10; Albright , W. F ., « A revolution in the chronology of ancient western Asia », **BASOR** 69 (1938) pp. 19-20، .

(٤) حتى ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الاول ص ١-٧٥٧ ، دار الثقافــة ، بيروت ١٩٥٨،صواف ، صبحي ، تاريخ حلب قبل الاسلام جـ ١ (١٩٧٢) ص ٢٠-٢١ .

(٥) Al t.I amd 456.حيث استطاع أبا ـ ايل بن حمورابي السيطرة على الالاخ وضمهــا الى مملكته .

(٦) Collon, Dominique, **The seal Impressions from Tell attchana/Alalakh** (1975) p. 146 ; Klingel, H. , **RACA** 1972 , p. 73 « Hammorapi von Jamhad ».

(٧) صواف صبحي ، الحوليات العربية السورية م ٧ (١٩٥٧) ص ١٤٦ .

(٨) حرصت حكومات بلاد ما بين النهرين القوية باستمرار علىتامين سلامة هذا الممر الحيوي والسيطرة عليه في كثير من الاحيان . والاعتقاد السائد ان الحملات الحربية من بلاد النهرين ، منذ المرحلة الاسطورية للملك لوغال زاكيزي حتى نهاية الحكم الفارسي ، ما كانت لتهدف الا السيطرة على ذلك الممر ، وظهور مملكة قوية كيمحاض استطاعت ان تقر الامن على جانبي هذا الممر أكسبها صداقة جيرانها الاموريين في سورية وبلاد ما بين النهرين لكنه ولد عندهم كذلك شيئا من الغيرة والحسد والتنافس كما أكسبها في الوقت نفسه بغض الجيران الشماليين (الحثيون) الذين طمعــوا في السيطرة على ذلك الممر والاستفادة من الثروة التي كانت تتمتع بها يمحاض .

(٩) Astour, M, **Ugarit in retrospect**, edited by Gordon young, pp. 28 - 29 (1981) .

(١٠) Albright, **BASOR** 78 (1940) p. 46.

وشعث ، شوقي ، الحوليات الاثرية السورية العدد ٢٩/٣٠ ص ٦٥-٦٩ وهو مكرس لوقائع الندوة العالمية للدراسات الاوغارتية ، كذلك انظر شوقي شعث في كتابــه « حلب تاريخها ومعالمهــا

التاريخية » ص ٢٦–٢٨ ، جامعة حلب ١٩٨١ ، وانظر :

Kupper , CAH II/I , 1963, pp. 18 - 19 .

يضيف كوير أن من بين البضائع التي كان يتاجر بها الى جانب المواد الغذائية والنبيذ والالبسة النحاس الذي كان يأتي من قبرص والعاج الذي كان يستحصل عليه محليا من الفيلة السورية التي كانت تعيش انذاك في سورية الشمالية . فقد وجدت بعض قطع العاج الخام في القصر الملكي بالالاخ ومن المؤكد ان تكون حلب جنت أرباحا طائلة من تجارة العاج المربحة .

(١١) يذكر وايزمن في كسرة للرقيم AT 456 ان « ابان » كان Sukkal الملك الحثي فيحاتوشا، أي كان وزيرا ، ويبدو ان ذلك غير صحيح ، حول مزيد من التفصيل والايضاح انظر :

Dratfkorn, A., « Was Abba - An of Yamhad a Vizier for the king of Hattusa ..? » , in JCS XIII (1959), pp. 94-97 .

(١٢) انظر الشجرة السلالية التي أوردتها دومنييك كولون ـ المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٣) Akurgal, E., The Art of ihe Hittites, Thames and Hudson, (1962) p. 49.

وحول اصول وثيقة تلبينوس انظر : 2 BO Tu 23

وحول ترجمتها انظر Fiedrich , J, AO 42/3 p. 21 f.

(١٤) E. Herzfeld , The Persian Empire, Studies in Geography. (1968) P. 76 .

يذكر هرز فيلد ان الوثيقة تعود الى القرن السادس عشر قبل الميلاد .

(١٥) يظهر ان كلمة لابارنا اصبحت تلفظ فيما بعد تبارنا ، واصبحت لقبا لكل ملوك الحثيين كما هو الحال في لفظ قيصر . انظر : اكورجال ، المصدر السابق ، ص٤٩ .

(١٦) المصدر نفسه والصفحة .

(١٧) يورد غورني ، ص ٧٦ (حاشية ٣٢) ان معاهدة حلب كانت منقوشة على لوح من المعدن الثمين يعرف ذلك الزمان ربما كان من الفضة أو الذهب او الحديد ، وختمت بالخاتم الملكي . وكانت هذه المعاهدة عبارة عن النظام الذي يستمد منه التابع سلطته ويعتبر فقدها خسارة كبيرة له ، وقد سجل ان هذه المعاهدة حفظت في المعبد ، ولكنها سرقت فيما بعد . وقد تألم الملك اليمحاضي لذلك كثيرا وسعى للحصول على نسخة منها من المحكمة العليا .

(١٨) أوردت الموسوعة البريطانية ، المجلد الاول ص ٥٦٣ ، طبعة ١٩٧٥ ، ان الملك الحثي الذي وقع المعاهدة هو : مواتلش (موداتاليش) Muwatallis (١٣٠٦ – ١٢٨٢ ق.م) وليس مورشيل الثاني كما ذكر هرزفيلد . ومما هو جدير بالذكر ان ملك حلب، ريم شارما ، الذيوقعالمعاهدة كان احد حلفاء الحثيين في معركة قادش . عثر على نسخة من هذه المعاهدة محفوظات بوغازكوي .

(١٩) هرزفيلد ، ص ٧٦ . وللمزيد من المعلومات عن المعاهدة يمكن الرجوع الى الرقيم K Bo I 6 الذي قام بترجمته E. F. Weider ونشره في BO. ST. (1923)pp. 80—89

(٢٠) يعتقد ان ملك يمحاض في ذلك الوقت كان ((اركابتوم)) الذي هزم حاتوشيل الاول ولاحقه بجيوش حلب حتى حاتوشا ، ويشير احد الرقم الناقصة الذي عثر عليه في الطبقة القديمة لمدينةحاتوشا « .. ورجال اتوا مع جيوشهم وعجلاتهم من مدينة حلب » .

(٢١) مورتقارت انطوان ، تاريخ الشرق الادنى القديم ص ٢١٨ ، تعريب توفيق سليمان وعلي ابو عساف وقاسم طوير ، وانظر :

Delaporte, L., Les Hittites , Paris (1936) , P. 48,

(٢٢) Macqueen J. G. The Hitties and their contemporaries in Asia Minor, Thames and Hudson, 1975. p. 38 .

(٢٣) Cutney O. R., The Hittites , a Pelican book, Revised adition (1961) P. 23 .

(٢٤) يقول ماكوين في صفحة ٣٩ من كتابه الحثيون (المصدر السابق) : لحسن حظ المهتمين بتاريخ مملكة يمحاض ان مدينة الالاخ (تل عطشانة) نقبت من قبل ليونارد وولي ، وقد اظهرت تنقيباته ان هذه الاحداث معاصرة للسوية السابعة في الالاخ ، وتبين ان مدينة السوية السابعة قد انتهت فينحوعام ١٦٥٠ ق.م . انظر ما نشره وولي عن تنقيباته بالمدينة في كتابه الالاخ .

Woolley, L., ALalakh, an account of excavation at Tell Atchana, 1937-1949 , Oxford 1955.

حيث يضع الطبقة السابعة ما بين ١٧٨٠ - ١٧٢٠ ق.م، وكتابه :

A Forgotten Kingdom a Pelican book , 1953 , pp. 83-84 .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان وولي لم يذكر ان الحثيين هم الذين دمروا المدينة ويثير شكوكنا في أن تكون حلب نفسها هي التي دمرت المدينة وان كان لا يملك ادلة على ذلك ويرفض النظرية القائلة بان المدينة دمرت نتيجة غزو اجنبي . ويضيف بأن هذه الاحداث كلها كانت في الفترة مابين ١٧٥٠ - ١٧٢٠ م بفارق مئة عام عن التاريخ الذي اورده ماكوين . كما اننا نلاحظ ان وولي مرة ثانية يضع الطبقة السابعة من الالاخ في الجدول التاريخي المقارن الذي الحقه بكتابه المشار اليه اعلاه ، ما بين ١٧٨٠ و ١٧٥٠ وحول الموضوع انظر :

Gurney O.R., « Anatolia ». c. 1750 - 1600 B. C. , in CAH Vol.II Part 1 (1973) pp. 241 - 243 .

(٢٥) Macqueen, Op. cit., p. 39.

ويذكر فورني ص ٢٢٣ ان حلب كانت المنافس الوحيد لسلطة الحثيين في شمال سورية وعليهم اخضاع تلك القوة وقد نجحوا في ذلك.

(٢٦) Macqueen, Op. cit., p. 42 .

(٢٧) يذكر فوزان ان الاحتلال والتدمير كان نحو عام ١٥٥٠ ق.م ، مورتقارت ، المصدر السابق ص٢١٩ ،

Gurney, Op. cit. pp. 22-23;

(٢٨) يبدو ان تدمير بابل كان في عهد ملكها شمشو ديتانا . وفي هذا المجال يشير مورتقارت في كتابه الشرق القديم أن حلب كانت اقوى ممالك عصرها فاذا هزمت ، هزمت الممالك الامورية في سورية والعراق .

(٢٩) Macqueen, op. cit. 43 .

ويذكر اكورجال ، المرجع السابق ، انه عثر في عام ١٩٥٧ في بوغازكوى على رقيم مكتوب بالاكادية والحثية ويذكر ان حاتوشيل الاول (١٦٥٠ – ١٦٢٠ ق.م) تمكن من التغلغل جنوبا حتى حلب.

(٣٠) Macqueen, op. cit. p. 43

(٣١) Gurney, P. 26

(٣٢) Gurney, p. 27 .

(٣٣) Gurney, p. 27 .

(٣٤) Gurney,p.27 ; Macqueen, p.43

(٣٥) Macqneen. p. 44,

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة ، ويقال ان خليفة تحوتمس الثالث ،امينوفيس الثاني،عاقب الثائرين الا انه لم يستعد السيطرة على سورية الشمالية ، انظر وولي .

Alalakh, an account, p. 391.

(٣٧) Gurney , p. 26.

(٣٨) Macqueen, p. 43

(٣٩) Gurney , p. 27

(٤٠) Macqueen, p. 44

(٤١) Macqueen, p. 44; Gurney, p. 29.

(٤٢) من الملاحظ في التاريخ الحثي ان مثل هذه الامور كثيرة الحدوث فالمؤامرات والدسائس كانت كثيرة في البلاط الحثي وكذلك الصراع على العرش . ويلاحظ ذلك في اواخر عهد مورشيل الاول وها هو يظهر في عهد شوبيلوليوما .

(٤٣) Gurney, p. 30 .

(٤٤) مورتقارت ، ص ٢٢٦.

(٤٥) مورتكات ، ص ٢٣٠ .

(٤٦) يبدو ان هذه الموقعة لم تكن حاسمه وخرج الفريقان بنتيجتها بحالة اللاغالب ولا مغلوب على الرغم من المصادر المكتوبة لدى كل من الطرفين تشيد بانتصاره في موقعة قادش .

(٤٧) تقول دومنيك كولن: ان هذا التاريخ تبناه J.A. Brinkman في ما كتبه ونشره كملحق لكتاب ليو اوبنهايم
Leo Oppenheim , Ancient Mesopotamia, Chicago 1964, pp. 335-352.

(٤٨) انظر نتائج تلك التنقيبات في كتابي وولي المذكورين سابقا .

(٤٩) Collon,op cit. p. 143.

(٥٠) Collon, op . cit , p. 146

ويضيف نقلا عن (AT 456 line 28) ان ابان استطاع سحق الثورة واسر قائدها موشنادو لقد اعطى أبان أخاه (ياريم ليم) الالاخ وغيرها من المدن في الغرب ، وربما لجا لذلك كي تكون المناطق المضطربة في الشرق قريبة من سيطرته المباشرة .

(٥١) Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria, Rome 1967; pp.46-47

(٥٢) woolley, p. 65; في كتابة المملكة المنسية .

(٥٣) يبدو أن هناك خلطا وقع بين ياريم - ليم حاكم الالاخ العم وبين ياريم ليم الثاني ملك يمحاض ابن ابان وهذا ما وقع فيه وولي في Forgotten Kingdom وقد ظهر الامر اكثر وضوحا لدى كولون pp. 143, 144, 146, 147 وربما وقع الخلط لان كلا منهما كان يعاصر الاخر ومما زاد الامر غموضا وسبب الخلط الذي اشرنا اليه ان احد خلفائه كان يحمل ايضا اسم ياريم ليم .

(٥٤) Collon, op. cit. p. 147.

(٥٥) Woolley, Forgotten kingdom, pp. 65, 79.

(٥٦) Ibid. p. 79 .

(٥٧) Ibid, pp. 80, 81.

(٥٨) ibid, p. 81 .

(٥٩) يعتقد ان ملك يمحاض الذ يخطب ابنة حاكم ابلا لابنه هو Niqma - epuh نقمابيوخ ، وان الابن العريس هو Irkabtum انظر AT 35 ; ولتحضيرات الرحلة الملكية الى ابلا من اجل الخطبة انظر AT 269

(٦٠) تعني هنا معلومات كتابية فالمحفوظات التي عثر عليها في القصر G تعود الى اواخر الالف الثالثة قبل الميلاد في حين ان القصر Q الذي يعود الى العصر البرنزي الوسيط لا يزال يحتفظ بمحفوظاته طي الكتمان واننا لنأمل ان يظهر الى الوجود قريبا ليمدنا بمعلومات نتوقع ان تكون هامة لتاريخ حلب والمنطقة باسرها سيما وان البعثة المنقبة عثرت على بعض اللوحات المسمارية التي تعود الى عصر يمحاض ولكن ليس بمكانها الاصلي . أ ما فيما يتعلق باللقى الاثرية الفنية فلدينا بعض القطع التي تعود الى العصر البرونزي الوسيط ولكنها لازالت غير كافية لتوضيح العلاقة بين ابلا ويمحاض .

(٦١) Smith, Sidney, « Ursu and Hassum » , **Ana . Stud** . 6 (1956) p.39.
Ibid p. 40.

(٦٢) Dominique , C., « Family tree of the kings of Yamhad » At. 53 ch. (Wiseman)p. 145 .

(٦٣) Astour, M., Ugarit, p.5.
وانظر كذلك Kupper, in **CAH**, vol . II, Part I (1973) p. 19

(٦٤) Dossin G., RA. 36. 1 (1939) p. 50 .

(٦٥) Dossin, Ibid. p. 51.

(٦٦) Kinal Furuzan, « Kingdom Yamhad », pp. 193 - 211 .
مجلة جامعة انقرة عام ١٩٧٠

(٦٧) Kupper J. R., « Northern Mesopotamia and Syria » in **CAH** 1973 , pp. 22-23 .
ربما كان وجود مملكة حلب القوية في الغرب هو الذي منعه من التوسع غربا رغم محاولتهذلك .

(٦٨) Kupper, Ibid. p. 14 .

(٦٩) يذكر Furusan ان هناك وثيقة اكتشفت في قطنة تؤكد قتل ملك قطنة على يد ياريمليم ملكحلب، وربما كان ملك قطنة المقتول هو Iskhi - Adad ويقول كوبر في المصدر السابق ص٢٢ انتهاية هذا الملك لازالت غامضة بعد انحسار النفوذ الاشوري الذي كان تابعا او حليفا لذلك النفوذ .

(٧٠) Kupper, Ibid . pp. 19 - 21

Sime Abbreviations used in the bibliography

AASOR : Annual of the American School of Oriental Research

Al T : (AT) : Alalakh Tablets .

Ana. Stud. : Anatolian Studies.

AO : Archiv fur orientfurschung

BASOR : Bulletin of American School of Oriental Research .

BO. ST. : Boghazkoi Texte Umschrift .

KBO. : Keilschrift texte aus Boghazkoi .

RA. : Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Orientale .

RAVA. : Reallexikon der Assyriology vorderasiatischen Archaolgie

JCS. : Journal der Cuneiform Studies .

CAH. : Cambridge Ancient History.

سورية في عصور ما قبل التاريخ

د . سلطان محيسن
جامعة دمشق

مقدمـــة :

ان علم ما قبل التاريخ Préhistoire من العلوم الحديثة نسبيا وهو يعتمد في مادة بحثه على البقايا الاثرية التي خلفها لنا الانسان قبل ان يعرف الكتابة(١) وهذه المخلفات في معظمها ادوات حجرية أو عظمية ، لم تثر في البداية الاهتمام اللازم ، بل انها فسرت باعتبارها من صنـع الطبيعة والصواعـق او من عمل الشياطين الى ان جاء منتصف القرن التاسـع عشـر وأثبت الفرنسـي بوشيه دوبرت (Bouchér de Pérthes) ان هذه الادوات ما هي الا اسلحـة صنعها الانسان القديم واستخدمهـا في وظائف مختلفة ، منها صيد الحيوانات الكبيرة كالدب ووحيد القرن ، التي وجدت عظامهـا مقرونـة بتلك الادوات(٢) وبذلك فتحت الاعين وبشكل جدي على آثـار انسان ماقبل التاريـخ الذي أصبح وجوده حقيقة لا جـدال فيها . وقـد دعمت استنتاجـات دوبرت اكتشافات معاصرة او لاحقة أتت معظمها من فرنسـا(٣) وترافق ذلك مـع نشر كتاب داروين الاول عن اصل الانواع(٤) الذي تبنى فيه نظرية التطور Evolution التي اثارت في حينه جدالا شديدا مازال مستمرا بصيغ اخرى . ومنذ مطلـع القرن الحالي بدأت دراسات وتنقيبات ، تبعتها مؤلفات ، أكثر منهجية ودقة شارك فيهـا باحثون مختلفون(٥) . ومازال البحث قائما بعد ان تطورت المناهج والاساليب الى حد كبير واصبحت أقرب الى مناهج العلوم الطبيعيـة كالفيزيـاء والرياضيات(٦) . كما بدأت تتبلور منذ الستينات مدرسة ونهج جديدان في دراسة انسان ما قبل التاريـخ وحضارته ، مما يسمى الان بعلم الاثار الجديد (New Archaeology) وهو يدرس

الانسان ضمن اطاره الجغرافي القديم حسب منهج مختلف عن علم الاثار التقليدي(٧) وفي كل الاحوال فان الهدف الرئيسي للباحثين في عصور ما قبل التاريخ ، هو فهم وتفسير واقع مجتمعات تلك العصور للوصول الى تصور حضاري شامل ومتكامل لها. لقد تزايدت معلوماتنا عن الانسان الاول بشكل أصبح ممكنا اعادة رسم الصورة العامة للحياة الاقتصادية والاجتماعية لذلك الانسان ، الذي وضع الاسس المباشرة لحضارتنا الحديثة . لانه قام بالخطوات الاولى والاهم سواء في مجال ابتكار الاسلحة والادوات والبناء والفن والدين ، أو الزراعة والتدجين . لقد تميز القطر العربي السوري بأهمية خاصة في تلك العصور حيث كشف فيه عن مواقع رئيسية تعتبر المفاتيح الضرورية لدراسات انسان ما قبل التاريخ في منطقتنا وفي العالم .

اولا : تاريخ البحث في عصور ما قبل التاريخ في سورية :

لقد لفت النظر في سورية الى عصور ما قبل التاريخ بشكل متأخر اذ مر زمن طويل كان البحث فيه عن المدن التوراتية واثار الحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية محط الاهتمام الاول . تعود المعلومات الاولى عن ما قبل التاريخ السوري الى مطلع هذا القرن وكانت نتيجة اعمال فردية بسيطة ومحدودة الاهمية(٨) لكن البحث الحقيقي والعلمي في هذا المجال بدأ في الثلاثينات ، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الان تخضع العصور الحجرية الى دراسات منوعة يشارك فيها اختصاصيون عديدون ممن قاموا بمسح عام او تنقيب محدد ويمكن ان نوجز تطور العمل في مراحل ثلاث رئيسية :

المرحلة الاولى : بدات في الثلاثينات ، وترافقت مع الاكتشافات الهامة في جبال الكرمل بفلسطين وتمثلها اعمال الباحث الالماني الفرد روستA. Rust في وادي سكفتا بيبرود(٩) حيث نقب ثلاثة ملاجىء صخرية رقمها ١ ـ ٢ ـ ٣ ، كان اهمها الملجأ الاول الذي ميز فيه عدة طبقات اثرية . الدنيا فيها تؤرخ في عصر انسان الهومواركتوس (الباليوليت الادنى) بينما تعود الطبقات العليا الى الثقافات النياندرتالية (الباليوليت الاوسط)(١٠) ان الجديد والهام من الملجأ الاول هو النوع الجديد من الادوات والاسلحة الحجرية الذي لم يكن معروفا من قبل وقد سُمّي باليبرودي(Yabrodien)(١١) وفي الملجأ الثاني وجدت آثار تعود الى «الانسان العاقل» في الباليوليت الاعلى(الاورينياسية) بينما قدم الملجأ الثالث في طبقاته الدنيا اثارا من العصر الحجري الوسيط ، وفي الطبقات العليا وجدت اثار العصر الحجري الحديث . لقد نشر السيد روست نتائج تنقيباته في كتاب هام اسماه « لقى مغاثر يبرود » وهو يعتبر المؤلف العلمي والمنهجي الاول الذي لفت نظر الباحثين الى الاهمية العالمية لقطرنا في عصور ما قبل التاريخ(١٢).

المرحلة الثانية : بدات في الستينات من هذا القرن على يد باحث هولندي هو السيد فان ليره Van Liere الذي قام بمسح اولي لاثار عصور ما قبل التاريخ حيث

اكتشف العديد من المواقع في مختلف مناطق القطر كان اهمها موقع اللطامنة الفريد من نوعه ، في حوض نهر العاصي ، الذي يمثل ارضية سكن (معسكر) بقيت محفوظة بشكل سليم رغم مرور اكثر من نصف مليون سنة عليها(١٣) . وقد كان السيد فان ليره اول من درس المواقع العائدة لعصور ما قبل التاريخ ضمن اطارها الجيولوجي والجيومورفولوجي العام محددا علاقتها بالاسرة او المصاطب النهرية العائدة الى الزمن الجيولوجي الرابع « الرباعي » (Quaternaire) (١٤) .

المرحلة الثالثة : بدات في السبعينات وهي لا زالت مستمرة حيث تعمل في القطر بعثات مختلفة يشارك فيها اختصاصيون بوسائل علمية وفنية متطورة ، وقد أدت هذه الاعمال الى اكتشاف اكثر من /٣٠٠/ موقع عائد لعصور ما قبل التاريخ ، بعضها له اهمية خاصة كما في منطقة الكوم في البادية السورية والقرماشي في حوض نهر العاصي . وتدرس هذه المواقع بتطبيق المناهج المتقدمة كطرق التاريخ الحديثة والتحاليل المخبرية والحواسب الالكترونية وبمساعدة علوم اخرى كالجيولوجيا والانتروبولوجيا وعلم المستحاثات (البالنتولوجيا) ولا زال العمل مستمرا والكشوف في تصاعد مما يساهم في استمرار توضيح طبيعة عصور ما قبل التاريخ السورية ذات الاهمية المحلية والعالمية(١٥) .

ثانيا : الرباعي في سورية :

تعتبر الابحاث الرباعية ، الجيومورفولوجية ، اي دراسة التشكلات الجيولوجية التي حصلت في الزمن الرابع ، ذات اهمية قصوى في فهم عصور ما قبل التاريخ ايضا وخاصة العصر الحجري القديم (الباليوليت) لان الانسان ظهر في الزمن الرابع وضمن الطبقات الجيولوجية العائدة لهذا الزمن توجد الادوات الحجرية والاثار الاخرى لهذا الانسان . كما انه في الرباعي ثبت توزع اليابسة والمحيط واستقرت البيئة على شكل قريب من الان . لقد بدأ الرباعي منذ حوالي ثلاثة ملايين سنة ودلت البحوث انه حصلت فيه تقلبات مناخية كبيرة حيث تتابعت على امتداد القسم الاول والاطول من هذا الزمن المسمى بالبليستوسن عصورجليدية ، جليديات Glaciations فصلتها عصور اخرى دافئة Interglaciations تركت اكبر الاثر على الانسان وحضارته لقد زحفت طبقات الجليد السميكة على نصف الكرة الشمالي حتى خط عرض ٤٠° عدة مرات متتالية ، وغطت هذه الجليديات اجزاء واسعة من اليابسة لتجعل الحياة عليها مستحيلة وتجبر الانسان على الهجرة جنوبا ليقيم على تخوم المناطق الجليدية حتى ذوبان الجليد في العصور الفاصلة ذات المناخ الدافىء الماطر المساعد على نمو الغطاء النباتي والحيواني الضروري لاستمرار الوجود البشري(١٦) .

اما نصف الكرة الشمالي ، الواقع بين خط عرض ٤٠° ـ ١٥° تقريبا ، بما فيه

الشرق الاوسط وسورية فلم يعرف الجليديات بل انعكست التقلبات المناخية هنا على شكل عصور مطيرة دافئة (Pluvials) تقابل العصور الجليدية في نصف الكرة الشمالي، فصلتها عصور اخرى جافة (Interpluvials) تقابل العصور المطيرة في نصف الكرة الشمالي . لقد ظهرت الدلائل الجيولوجية للعصور المطيرة والفاصلة في سورية واضحة وخاصة في وديان الانهار وعلى السواحل على شكل مصاطب نهرية او شواطىء قديمة تشكلت في الرباعي . ففي وديان الانهار الهامة وروافدها ، اثناء العصور المطيرة ونشاط المياه القوى في الحت والترسيب ، تشكلت مصاطب او اسرة (terrasses) من الحصى والرمل والطمي متدرجة في ارتفاعها عن مجرى النهر الحالي وفي بعدها عنه . أقدمها أعلاها وابعدها عن النهر واحدثها أقربها الى النهر واقلها ارتفاعا . تقابل هذه المصاطب ، في المناطق الساحلية بقايا شواطىء بحرية قديمة (Paléorivages) أبعدها واعلاها عن البحر اقدمها ، بينما أقربها وأدناها هو الاحدث . لقد تضمنت المصاطب النهرية والشواطىء البحرية في ترسباتها بقايا ادوات حجرية ومستحاثات نباتية وحيوانية لانسان ما قبل التاريخ الذي ارتبط وجوده مع المياه وغير" مناطق اقامته تبعا لتوفرها ،، وتعتبر هذه البقايا من اهم المواد المساعدة على دراسة آثار ما قبل التاريخ وتحديد زمن وطبيعة التقلبات المناخية والبيئوية الرباعية .

لقد عرفت سورية في الرباعي اربعة عصور مطيرة ، على الاقل ، تفصلها عصور اخرى جافة . وقد درست دلائل هذه العصور بشكل جيد وظهرت افضل آثارها في أحواض الانهار السورية وخاصة نهر الكبير الشمالي ورقمت التشكلات الرباعية حسب تسلسلها بدءا من الاحدث حسب الرموز العالمية المتفق عليها . واعطيت تسميات محلية خاصة لتمييزها عن غيرها ، بل انها اصبحت النموذج الذي تقاس عليه الدراسات الرباعية في المنطقة كلها(١٧) ، ويمكن ايجاز العصور المناخية السورية بدءا من الاحدث كما يلي :

ــ عصر الهولوسن الدافىء (ر ب صفر أو ر ن صفر) ولهذا العصر تعود تشكلات السهول الرسوبية لوديان الانهار أو الشاطىء البحري مباشرة ومعظمها اراض زراعية خصبة . وضمن هذه التشكلات نعثر على احدث آثار عصور ما قبل التاريخ التي لا يزيد عمرها على نحو ١٢ الف سنة .وهي تعود الى العصر الحجري الوسيط والحديث والعصر الحجري النحاسي والى العصور البرونزية .

ــ عصر الشير او العصر المطير الاول (ر ن ١) : ويتمثل بشكل رئيسي في حوض نهر الكبير الشمالي (موقع الشير) وفي احواض العاصي والفرات . وضمن السويات العليا من هذه المصطبة النهرية توجد ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري القديم الاعلى (الباليوليت الاعلى ٣٥ ــ ١٢ الف سنة) بينما في السويات الدنيا نعثر

على ادوات من العصر الحجري القديم الاوسط (الباليوليت الاوسط ١٠٠.٠٠٠ ـ ٣٥.٠٠٠) وهذه هي مصطبة عصر البليستوسن الاحدث والاقل ارتفاعا والاقرب الى مياه النهر ولا يفصلها عن النهر الا السهل الرسوبي الهولوسيني .

ـ عصر بانياس او العصر الفاصل الاول (ر ب ١) : ظهرت اثاره في منطقة بانياس على الساحل السوري . وجدت ضمن ترسبات هذا الشاطىء القديم ادوات حجرية تعود الى العصر الانتقالي بين الباليوليت الاعلى والباليوليت الاوسط (١٥٠.٠٠٠ ـ ١٠٠.٠٠٠ سنة) .

ـ عصر ابو جمعة او العصر المطير الثاني (ر ن ٢): افضل دلائله اتت من حوض نهر الفرات (موقع ابو جمعة) في محافظة دير الزور ومن احواض نهر الكبير الشمالي والعاصي ، وضمن ترسباته وجدت ادوات حجرية تعود الى زمن يقع بين ٢٠٠.٠٠٠ ـ ١٥٠.٠٠٠ سنة ، أو ما يسمى عالميا بالعصر الاشولي الاعلى(القرماشي في سورية).

ـ عصر هنادي ـ خلاّلة او العصر الفاصل الثاني (ر ب ٢) : وهو يمثل افضل تشكيلة بحرية جيومورفولوجية محفوظة فيسورية ، تدل على شاطىء قديم للبحر المتوسط أفضل بقاياه وجدت في منطقة هنادي وخلاّلة في محافظة اللاذقية ، وضمن ترسبات هذا العصر عثر على ادووات صوانية تعود الى حوالي ٣٠٠.٠٠٠ سنة ، اي الى القسم الثاني من العصر الاشولي الاوسط (الاشولي الاوسط المتطور) .

ـ عصر اللطامنة او العصر المطير الثالث (ر ن ٣) : وافضل ظهور له هو في نهر العاصي (موقع اللطامنة) ثم حوض الفرات ونهر الكبير الشمالي . وضمن تشكلات هذا العصر وجدت ادوات حجرية تعود الى القسم الاول من العصر الآشولي الاوسط (ويسمى الآشولي الاوسط) اهمها أرضية السكن الشهيرة في اللطامنة المؤرخة في حوالي ٥٠٠.٠٠٠ سنة (عصر اللطامنة).

ـ عصر بكسا او العصر الفاصل الثالث(ر ب ٣):اتت تشكلاته من عدة مناطق من الساحل السوريوخاصة من بكسا في اللاذقية ، وفيها وجدت اثار تعود الى القسم الثاني من العصر الآشولي القديم (الاشولي القديم المتطور) والمؤرخ في حوالي ٧٠٠.٠٠٠ سنة خلت .

ـ عصر ست مرخو او العصر المطير الرابع (ر ن ٤) : افضل دليل عليه اتى من حوض نهر الكبير الشمالي وضمن ترسباته في موقع قرية ست مرخو في محافظة

اللاذقية ، حيث وجدت اقدم ادوات حجرية معروفة في سورية حتى الان وهي تعود الى حوالي مليون سنة خلت ، اي بداية الاشولي العالمي وهي بذلك أقدم آثار لانسان ما قبل التاريخ عثر عليها حتى الان خارج القارة الافريقية .

بقي ان نشير بان هناك دلائل لعصر مطير خامس في حوض العاصي وآخر (رابع) جاف في الساحل يعودان الى بداية الزمن الرابع الا ان التشكلات الجيولوجية لهذين العصرين لم تتضمن أدوات حجرية ، مما يدل على ان حصولهما كان قبل وصول الانسان الى سورية(١٨) .

ثالثا : مراكز حضارات العصر الحجري القديم « الباليوليت »

بدأ هذا العصر في سورية منذ حوالي مليون سنة مضت وانتهى منذ حوالي ١٢,٠٠٠ سنة ق.م. وهو عصر الصيد والالتقاط ، ونظرا لزمنه الطويل وللتمايز بين مختلف مراحله يقسمه المختصون الى ثلاثة اقسام أصغر هي العصر الحجري القديم الادنى ، ثم الاوسط واخيرا الاعلى .

١ ـ العصر الحجري القديم الادنى « الباليوليت الادنى »

بدأ منذ نحو مليون سنة وانتهى في حدود ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت ، وهو يرادف ما يسمى بالحضارة الاشولية ، او الاشولي ، ذات الانتشار العالمي الواسع ، لقد سكنت ومنذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية من قبل انسان الهومواركتوس الذي وصل الى قطرنا ، قادما على الارجح من القارة الافريقية ، سالكا طريقين رئيسين: الاول ساحلي على امتداد البحر المتوسط والثاني داخلي عبر وديان الانهار الكبرى : وادي عربة ، وادي الاردن ثم الليطاني فالعاصي . ان كل ما نعرفه عن انسان سورية الاول يأتي من خلال الادوات والاسلحة الحجرية التي صنعها واستخدمها في انشطته المختلفة وبقيت ، مقاومة عوامل الفناء ، لتشكل الدليل المادي والمباشر عليه . اهم هذه الادوات هو الفأس اليدوية (Biface) ، الاداة الرئيسة في الباليوليت الادنى ، صنعت منها أشكال مختلفة واستخدمت في وظائف متعددة كالقطع والقلع والضرب والدفاع عن النفس . لقد تطورت قدرة الانسان على تصنيع الادوات الحجرية على امتداد الباليوليت ونحن نستطيع من خلال هذه الادوات متابعة تطور انسان سورية الاول عبر مختلف مراحل هذا العصر الذي نقسمه بدوره تسهيلا للبحث الى الباليوليت الادنى الباكر ، الباليوليت الادنى الاوسط ثم الباليوليت الادنى الاخير .

آ ـ الباليوليت الادنى الباكر :

وهو يوازي مرحلة الأشولي الادنى ويؤرخ في زمن يقع بين مليون الى ٧٠٠,٠٠٠

سنة خلت . أتت آثار هذا العصر من بضع مناطق في قطرنا وكانت متوضعة ضمن الطبقات الجيولوجية للسرير النهري الرابع (ر ن ٤) ، (عصر ست مرخو او تشكيلة ست مرخو) وقد عثر على الادوات الحجرية العائدة لهذا العصر في موقع ست مرخو نفسه وفي الشيخ محمد فيحوض نهر الكبير الشمالي(١٩) . ومعظمها فؤوس يدوية بسيطة وقواطع وأدوات اخرى أصغر حجما ، صنعت كلها باستخدام المطرقة الحجرية الفاسية ، وكانت متآكلة بشدة وعليها كمخة سميكة تشير الى قدمها السحيق اذ تعود الى حوالي مليون سنة خلت . وهي ، كما اشرنا سابقا ، تمثل الدليل الاقدم على وجود الانسان في سورية وخارج القارة الافريقية . في الوقت نفسه تقريبا سكن حوض نهر العاصي ولكن من قبل جماعات بشرية اخرى لم تعرف الفاس اليدوية بل استعاضت عنها بأدوات صنعتها من الشظايا الصغيرة . وهذا النوع من الادوات يسبق زمنيا الفؤوس اليدوية ولكننا ، بسبب ندرة الدلائل ، لا نستطيع التقرير فيما اذا كان انسان الساحل السوري قد طور فؤوسه اليدوية من ادوات انسان العاصي ام انه عرف تصنيع تلك الفؤوس قبل وصوله الى هنا .

ب ـ الباليوليت الادنى الاوسط :

وهو يوازي مايسمى بالاشولي الاوسط ويؤرخ على ٧٠٠ ـ ٢٥٠ الف سنة في هذا العصر توضحت استقلالية الانسان السوري الاول وظهرت حضاراتمحلية أصيلة تطورت باشكال مختلفة في مختلف المناطق السورية الساحلية او الداخلية . لقد استمر الناس بالاعتماد على الفأس الحجرية كسلاحرئيسي بعد ان طوروها واعطوها أشكالا جديدة . وصنعت كل منطقة فؤوسها الخاصة فبينما استخدمانسان العاصي الفاس اليدوية الطويلة والمدببة فضل سكان السواحل الفاس العريضةذات الشكل البيضوي، وكما في العصر السابق وجدت جماعات بشرية اخرى لم تستخدم الفؤوس على الاطلاق بل صنعت القواطع والادوات الصغيرة ، بعض هذه الجماعات عاش في حوض نهر العاصي في الرستن وبعضها الاخر وصل الى حوض الفرات في موقع شنينة . ان هذا التباين في تقاليد تصنيع الادوات الحجرية معروف ايضا في فلسطين والاردن ولبنان (٢٠) مما يدل على اننا نتلمس ومنذ هذا الزمن الباكر بوادر تجانس حضاري شمل المشرق العربي القديم كله لا تلبث صورته ان تتبلور في العصور اللاحقة . الى الشمال من مدينة حماه وعلى بعد ٤٠ كم في حوض العاصي قرب اللطامنة يقوم أحد اهم وأندر مواقع هذا العصر في العالم حيث عثر في طبقة من الرمل والطمي الناعم في ترسبات السرير النهري المرتفع العائد الى العصر المطير الثالث (عصر اللطامنة ر ن ٣) على بقايا معسكر سليم سكنته جماعة من صيادي الحيوانات الوحشية كالفيل

والحصان ووحيد القرن ، وملتقطي الثمار البرية كاللوز والزعرور وذلك منذ حوالي نصف مايون سنة مضت . لقد عاش هؤلاءفي حوض نهر العاصي الغني وعرفوا تصنيع الاسلحة والادوات وخاصة الفؤوس الكبيرة الفعالة وبنوا ، لاول مرة خارج افريقيا، الاكواخ البسيطة من الاغصان والجلود ودعموها بالاحجار الكبيرة كما عرفوا الاستفادة من النار منذ ذلك الزمن الباكر(٢١) . ان اللطامنة هو الموقع الوحيد في سورية ، وفي المشرق العربي كله ، المحفوظ بشكل جيد من هذا العصر كما ان المواقع العالمية المشابهة له لا يتجاوز عددها اصابع اليد الواحدة علما بان الادوات الحجرية الكثيرة التي اتت من العديد من المناطق في قطرنا تدل على وجود اكثر من موقع لكن عوامل الطبيعة خربتها .

ج ـ الباليوليت الادنى الاخير :

وهو يوازي مرحلة الآشولي الاعلى ويؤرخ بين ٢٥٠٠٠ ـ ١٠٠ الف سنة خلت . في هذا العصر يلاحظ ازدياد واضح في عدد سكان سورية حيث خرجت الجماعات البشرية الاولى من مواطن سكنها التقليدية في السواحل وحوض نهر العاصي واتجهت شرقا نحو مناطق جديدة في البادية والفرات بعد أن تمكنت من استخدام النار ومن بناء الاكواخ البسيطة . وبدءا من هذا العصر أقام الانسان ، وبلا انقطاع ، في كل المناطق الجغرافية في قطرنا . وبقيت الفاس اليدوية السلاح الاكثر استخداما . ولكن هذه الاداة تحسنت الى حد كبير حيث استخدمت في تصنيعها المطارق الناعمة من العظم والخشب مما اعطاها اشكالا أكثر انتظاما . وساد في كل المناطق السورية بل وفي المشرق العربي القديم نوع واحد من الفؤوس يشبه اللوزة او القلب في شكله(٢٢) ترافقه أدوات أخرى كالمخارز والمكاشط والسكاكين بلغت القمة في الدقة الى حد يتجاوز الحاجة الفعلية والوظيفية المخصصة لها . وتعتبر هذه الادوات الجميلة حسب راي البعض الدلالة الاولى على نمو الحس الفني والجمالي لدى تلك المجتمعات التي تناقلت تصنيع أدواتها من جيل الى جيل ، بعد ان اصبح لديها لغة متطورة بلا شك . لقد وجدت آثار هذا العصر بكثافة كبيرة ضمن التشكيلات الجيومورفولوجية العائدة الى العصر المطير الثاني المسمى تشكيلة ابو جمعة او عصر ابو جمعة (ر ن ٢). وفي كل مناطق القطر تقريبا بدءا من الساحل وحتى الفرات الا ان معظم هذه الاثار ، كما في العصور السابقة ، اتى من مواقع مخربة جرفتها المياه من مكانها الاصلي الا في حالة واحدة ونادرة وهي موقع القرماشي في حوض نهر الفاصي الاوسط الى الغرب من حماه حيث عثر على معسكر غير مخرب هجره سكانه منذ حوالي ١٥٠٠٠٠ سنة خلت واظهرت التنقيبات انهم عرفوا تصنيع الفؤوس الحجرية الرائعة بل بنوا

الاكواخ البسيطة واستخدموا النار ، واستفادوا مثل أسلافهم في اللطامنة ، من خيرات وادي العاصي الحيوانية والنباتية الغنية في ذلك الوقت (٢٣) .

د ـ العصر الانتقالي بين الباليوليت الادنى والاوسط :

في اواخر الباليوليت الادنى اي نهاية مجتمعات الهوموأركتوس وبداية الباليوليت الاوسط ، اي وقت ظهور انسان النياندرتال ، وهو زمن يقع بين ٠٠٠ر١٥٠ ــ ٠٠٠ر١٠٠ سنة ، في هذا العصر ساد نوع انتقالي من البشر يسميه المختصون الهوموأركتوس المتطور او انسان ما قبل النياندرتال ، لقد حصلت في سورية والمشرق العربي القديم تغييرات عاصفة شكلت السمة المميزة لهذا العصر الانتقالي، وقد اختلفت التفسيرات حول أسباب ودوافع هذه التغييرات وفيما اذا كانت تقترن بظهور اقوام جديدة أم انها مجرد تحولات داخلية في اطار المجموعات العرقية المحلية . ومهما يكن فلم يعد صناع الفؤوس اليدوية الذين اسميناهم اصطلاحا بالآشوليين يسيطرون بلا منازع، بل ظهرت الى جانبهم حضارات اخرى جديدة (اقوام جديدة) تعايشت كلها في نفس الزمان والمكان . ولكن كان لكل منها ادواتها واسلحتها الخاصة وطرقها المميزة في العيش كما اتضح في كل المناطق السورية (٢٤). لقد نما لدى انسان هذا العصر حس اكبر بالارتباط بالارض وبدل المواقع الصغيرة التي سكنت لمدة قصيرة لا تزيد عن موسم او موسمين ، مثل اللطامنة والقرماشي سابقا ، نجد الاجيال خلف الاجيال تتعاقب على الاقامة في المكان نفسه وافضل دليل على ذلك هو ملاجىء سكفتا في يبرود وخاصة الملجأ الاول الذي سكن على امتداد زمن زاد عن ٠٠٠ر١٥٠ سنة، حيث ترددت على هذا الملجأ نحو ٢٥ مجموعة بشرية لكل منها حضارتها الخاصة، ومن أكثرها اصالة كانت الجماعات اليبرودية التي دلت عليها أدواتها الحجرية . لم يعرف «اليبروديون» الفأس اليدوية الا نادرا بل اشتهروا باستخدام المقاحف الغليظة « المقحف اليبرودي » ذات الاشكال المنوعة والمصنعة غالبا من شظية حجرية عريضة وقصيرة لكنها سميكة لها حدان عاملان يلتقيان بزاوية قائمة أو حادة ومحضران بواسطة تشذيب واسع ومتدرج على شكل حراشف السمك(٢٥) ، ان المقحف هو الاداة الافضل لتحضير الجلود ووجود هذه الاداة بكثرة في يبرود ، وفي مواقع هذا العصر عموما ، يجعلنا نعتقد بان الانسان بدأ يرتدي هذه الجلود ويفرش بها مساكنه ، ليس فقط درءا للبرد بل وبدوافع معنوية ورغبة بالظهور بالشكل الافضل بعد أن تطور المستوى الاجتماعي للناس . وقد دلت البحوث على ان الحضارة اليبرودية قد سادت على امتداد هذا العصر الانتقالي وغطت مساحة واسعة امتدت من فلسطين والاردن ولبنان جنوبا وحتى البادية السورية شمالا مما يؤكد مرة اخرى على التجانس الحضاري للمنطقة كما نوهنا سابقا . ومن يبرود أيضا ، ولكن من الملجأ

الرابع ، اتت آثار مختلفة تماما عن التي وجدت في الملجأ الاول حيث لم يصنع سكان هذا الملجأ القحف اليبرودي بل الادوات المسننة والمفرضة والسكاكين ذات الظهر السميك .. كما اصطادوا الحصان البري ووحيد القرن والوعل والدب والغزال وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في هذه المنطقة بجوار بحيرة قديمة حفظت لنا ترسباتها آثارا هامة ونادرة حيث وجدت في طبقات الطمي الناعم البيوض المتحجرة وطبعات طيور وحيوانات وزواحف والاهم من ذلك طبقة كف لانسان النياندرتال الباكر (أو ما قبل النياندرتال) هي الاولى من نوعها في قطرنا وفي المنطقة(٢٦) . واضافة الى يبرود ، تجري الان اعمال تنقيبية هامة في حوضة الكوم في البادية السورية تعرفنا بشكل افضل على سمات هذا العصر الانتقالي(٢٧) . لقد عاشت هنا جماعات بشرية كثيفة وعديدة استفادت من خبرات المنطقة الوفيرة حيث تردد السكان على العديد من الينابيع الطبيعية التي جف بعضها الان بينما لا يزال البعض الاخر جاريا . وتركوا لنا بقاياهم التي تراكمت بسماكة عشرات الامتار بجوار العديد من الابار كبئر الهمل وأم التلال وام قبيبة والندوية وغيرها من المواقع التي ظهرت فيها الاثار بكثافة لم يعرف لها نظير حتى الان ، حيث وجدت مئات الآلاف من الادوات الحجرية مقرونة مع بقايا مستحاثية اخرى وخاصة عظام الحيوانات ومتوضعة ضمن طبقات جيولوجية سليمه مكنتنا من الحصول على تواريخ مطلقة هي الاولى من نوعها في قطرنا ، ارخت العصر الانتقالي بين ١٥٠,٠٠٠ — ١٠٠,٠٠٠ خلت(٢٨) .. لقد صنع سكان حوضة الكوم القدامى أدوات واسلحة حجرية متعددة بقدر تعددهم فمنهم من اعتمد على الفأس اليدوية وهناك من آثر القحف اليبرودي وثالث ابدع انواعا رائعة وطويلة من الحراب ذات الفعالية العالية في الصيد (الحراب الهملية) التي شكلت قفزة في تاريخ صنع الاسلحة الحجرية ، والتي اختفت مع اختفاء الهمليين (نسبة الى بئر الهمل) في نهاية هذا العصر ولم تصنع ثانية الا بعد مرور زمن طويل جدا وعلى يد الانسان العاقل(٢٩) .. اننا ما زلنا بحاجة الى المزيد من البحث لنعرف أسباب هذا التنوع الكبير، وما اذا كان ذلك يعكس فروقا عرقية أم مجرد طرق مختلفة في أساليب العيش والتكيف مع البيئة ولا بد ان العثور على هياكل عظمية قديمة سوف يساعد كثيرا في جلاء الحقيقة(٣٠) .

٢ — العصر الحجري القديم الاوسط (الباليوليت الاوسط) :

في مطلع العصر المطير الاول (ر ن ١) المسمى تشكيلة الشير اي منذ نحو ١٠٠,٠٠٠ سنة غاب الموزاييك الحضاري الذي ميز العصر السابق واختفى معه انسان الهومو اركتوس، وظهر نوع جديد من البشر هو انسان النياندرتال ومعه حضارة جديدة . كان النياندرتاليون اكثر عددا من سابقيهم ونجد آثارهم في كل مكان من

قطرنا سواء في المواقع السطحية المكشوفة أو في الملاجىء والمغارات . لقد طور هؤلاء كل ما ابدعه اسلافهم كالبناء والاسلحة والادوات والملابس(٢١) ولكن اختفت الان الفاس الحجرية كلياوتوارت معهاالادوات الثقيلةالمصنعة على النوى (Nucleus)اي الكـدر الصواني لتحل مكانها ادوات اخرى مصنعة على الشظايا الصغيرة (Eclats) هذه الادوات كانت متنوعة الاشكال والوظائف واهمها القاحف ثم السكاكين والمخارز والمناشر وهي مصنعة وفق تقنيات جديدة وتنسـب الى ما يسمـى باللافلـوازي ـ الموستيري(٢٢) . ان التنقيبات التي أجريت في العديد من المواقع السورية العائـدة لعصر النياندرتال كيبرود وكهف الدوارة وجرف العجلةوالكوم في البادية السورية(٢٣) اظهرت ان ثقافة النياندرتال السوري رغم تشابهها العام مع مثيلاتها في بقيـة المناطق الا انها أقرب بكثير الى النياندرتاليين في المشرق العربي القديم وخاصة في فلسطـين ولبنان والاردن(٢٤) فلقد وصل سكان هذه المنطقة في ذلك العصر الى درجة عاليـة من التجانس وقامت بينهم علاقات مباشرة تبادلوامن خلالها حاجاتهم وخبراتهم مما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم الغنية التي سخروها لخدمة مصالحهم المادية والروحيـة المتزايـدة .

٣ ـ العصر الحجري القديم الاعلى (الباليوليت الاعلى) :

في النصف الثاني من العصر المطير الاول (عصر الشير) اي منذ حوالي ٣٥٫٠٠٠ سنة اختفى فجاة انسان النياندرتال وظهـر الانسان العاقـل وهو السلـف المباشر للانسان الحالي ، دون أن نعلم بدقة كيفية حصول ذلك(٢٥). ورغم ان منطقة المشرق العربي القديم هي التي أعطت الدلائل الاهم على ظهور الانسان العاقل الا ان هـذا الانسان تابع تطوره الحضاري في مكان اخر ، هو القارة الاوربية وخاصة فرنسـا واسبانيا . وهكذا تغيرت الادوار فبعد ان كانت آسيا وافريقيا مركز النشاط الانساني الاهم انتقل هذا المركز الى اوربة في حين اصبح دور آسيا وافريقيا ، والشرق الاوسط وسورية ضمنا ، هامشيا الى حد ما . لقد تميزت الحضارات السورية والشرق ـ أوسطية في هذا العصر بالجمود وغياب الفن والبناء والادوات العظمية وغير ذلك مـن المبتكرات الجديدة التي عرفت من مناطق اوربـة . ونحن ما زلنـا نجهـل الاسباب الحقيقية لهذا التراجع وهل هو واقع مؤقت سوف تغيره الاكتشافات اللاحقة أم أنه حقيقة ثابتة . واذا كان هذا هو الواقع فلا بد ان نبحث عن الاسباب التي أدت اليـه كالتغييرات المناخية او العرقية . ولكننا نعتقد ان سورية لم تكن مهجورة في هذا العصر الى الدرجة التي ظنها البعض وان الموضوع يتعلق بضعف الدراسات ليس اكثر بدليل وجود بعض المواقع الهامة كملجأ يبرود الثاني والطبقات العليا من جرف العجلة وكهف الدوارة التي دلت على أن الانسان قد سكن المغائر والملاجىء بسبب الظروف المناخية

الباردة التي سادت في حينه ولابد من دراسة المناطق الجبلية السورية وخاصة جبال المنطقة الساحلية التي لا زالت بكرا لنتعرف على حقيقة الامر ، علما بان الابحاث الكثيفة التي تجري في فلسطين اثبتت غنى الارض الفلسطينية باثار الباليوليت الاعلى وليس هناك مايقنع ، علميا ، بتخلف سورية عن فلسطين في زمن شكلت فيه كل هذه المنطقة وحدة جغرافية وحضارية تجلت باشكال مختلفة ومنذ بداية عصور ما قبل التاريخ . كما كشف في المناطق الجبلية الساحلية في لبنان عن مواقع هامة لهذا العصر(٣٦) .

٤ ـ الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمجتمعات العصر الحجري القديم السوري:

ان من اصعب الامور التي تواجه الباحثين في عصور ما قبل التاريخ هو معرفة الواقع الاجتماعي في تلك العصور التي غابت فيها الكتابة ، وغابت معها المعلومات المباشرة حول تنظيم ومعتقدات وافكار هؤلاء الناس . ونحن نحاول استدراك هذا النقص من خلال تفسير الاثار المادية الموجودة بين ايدينا والتكهن بوظائفها ومضامينها ، واجراء المقارنات الاتنوغرافية بين مواقع ما قبل التاريخ وبين المجتمعات البدائية الحالية رغم ما يحمله هذا الموقف من المخاطرة المجانية الحقيقة(٣٧) ومهما تكن درجة الدقة في حكمنا على الدلائل المادية ، التي تعطينا اياها التنقيبات الاثرية ، فان الامور تبقى ذاتية الى حد ما بحيث يكون الموقف الفكري للدارس عنصرا مؤثرا في طبيعة الحكم لان كل منا يحلل منطلقا من موقفه الفلسفي والايديولوجي العام.. وتصبح القضية اكثر صعوبة عندما يتعلق الامر بمجتمعات تفصلنا عنها الاف السنين. ونحن في الواقع نجهل الكثير عن الحياة الاجتماعية والروحية لانسان الباليوليت السوري (في العالم ايضا) ولكننا نستطيع القول انه قد عاش على شكل جماعات صغيرة متنقلا خلف الصيد واللقط ، في المناطق التي توفرت فيها مقومات العيش ، كالماء والحيوان والنبات والصوان . تؤكد ذلك الكميات القليلة للادوات الحجرية الفعلية التي تركتها هذه الجماعات في مناطق اقامتها ، ففي ست مرخو وجدت عشرون أداة فقط ولم يتجاوز عدد الادوات في اللطامنة والقرماشي الاربعمائة ، كما ان مساحة اللطامنة بلغت ٢٧٠م٢ ، مما يشير الى ضآلة الجماعات التي سكنت هذه المواقع . ولكن على الرغم من صغر الجماعة الواحدة فان عدد الجماعات كان كبيرا بدليل كثرة المواقع وتمايزها عن بعضها . كما ان الجماعات البشرية الاولى لم تكن معزولة عن بعضها فكثير من المواقع يتشابه بنسب متفاوتة ، مما يؤكد قيام اتصالات وعلاقات مباشرة أو غير مباشرة بينها ، لقد اقام انسان سورية الاول في السواحل وفي وديان الانهار ثم عرف بناء الاكواخ البسيطة من الخشب والجلد والاغصان والحجر كما في اللطامنة والقرماشي واستخدم المغائر والملاجىء الطبيعية كما كما في يبرود واصطاد حيوانات ضخمة كالفيل ووحيد القرن واستفاد من لحمها وجلدها وعظمها ، وصنع اضافة الى الاسلحة الحجرية الفعالة

الاسلحة والادوات العظمية ولكن لم يصلنا منها الا النذر اليسير بسبب فنائها بمرور الزمن . كما عرف انسان الباليوليت السوري النار منذ زمن باكر يعود الى حوالي نصف مليون سنة خلت (اللطامنة) وحقق منها فائدة قصوى في التدفئة او الانارة والطبخ والدفاع عن النفس وغير ذلك . ولا بد ان الناس في ذلك العصر كانوا منظمين بشكل جماعات على راسها رجل قائد ، اب ، يتبعه الباقون من رجال ونساء واطفال. وهم عرفوا تقسيم العمل حسب الجنس والسن فاشتغل الرجال في الصيد والامور الشاقة الاخرى بينما اهتمت النساء بشؤون البيت (المعسكر) والاطفال اضافة الى التقاط الثمار والنباتات البرية . وقد استهلك الجميع من خيرات الطبيعة الحرة بقدر حاجاتهم فقط ولم يكن بينهم اية فروق في توزيع الغنائم (مشاعية بدائية) وليست لدينا من قطرنا اية دلائل على الطقوس الدينية او المعتقدات الروحية لانسان الباليوليت كما في اوربة ، وقد اظهرت التنقيبات ان سكان ملاجيء يبرود قد اكتشفوا الالوان (المغرة الحمراء) . لكننا لا نستطيع ان نقرر كيف استخدموا هذه الالوان ، هل دهنوا بها جلودهم او ملابسهم ام ادواتهم ، كما لا نعلم اي شيء عن لغة انسان الباليوليت ولا عن كيفية تفاهم هؤلاء الناس مع بعضهم ، لكن الادوات والاسلحة المنوعة ذات الاشكال الثابتة والمحددة تشير الى قيام لغة ما تناقلت بواسطتها الاجيال تجاربها وخبراتها في فن تصنيع الحجر(٣٨) .

رابعا : العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) :

بعد الركود الذي ساد في الباليوليت الاعلى استعادت سورية ، ومنطقة المشرق العربي القديم عموما ، دورها. ففي نهاية البليستوسن اي منذ حوالي ١٢٠٠٠ سنة ق.م تراجع الجليد عن نصف الكرة الشمالي ومال المناخ نحو الدفء واختفت حضارات الباليوليت الاعلى الاوربية وخاصة الحضارة المجدلانية(٣٩) وتبدلت الادوار من جديد، فانتقل مركز النشاط البشري من اوربة الى اسيا وخاصة منطقة جنوب غرب اسيا التي ستصبح منذ الان مسرح التفاعلات الجديدة الهامة التي هيات لعصر جديد وفاصل انتقلت فيه البشرية من حياة التنقل والصيد والالتقاط الى الاستقرار والزراعة والتدجين . ولعبت المنطقة المسماة بالهلال الخصيب ، ومركزها في سورية وفلسطين، دورا حاسما في ذلك العصر(٤٠) فقد ادى التحسن المناخي الذي ساد في هذه المنطقة الى خروج الانسان من المغائر الى السهول المكشوفة التي ظهرت فيها الحبوب والحيوانات البرية التي زرعت ودجنت في العصر اللاحق . لقد تبلورت في الميزوليت الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم واضحة اكثر من اي وقت مضى ، حيث غابت الحضارات العالمية ذات الانتشار الواسع كالاشولية والموستيرية والاورينياسية وظهرت

حضارات اخرى، محلية الاصل والفرع. فالكباريون(٤١) سكنوا في يبرود وجيرود والكوم ووادي الفرات في النصف الاول من الميزوليت (١٢ ـ ١٠ الف سنة ق.م) . وكانوا أول من صنع الادوات الحجرية الصغيرة جدا وذات الاشكال الهندسية Microlithes - géometrique التي ارتبطت ببداية صنع الادوات المركبة حيث ثبتت القطع الحجرية المشذبة بعناية على مقابض عظمية وخشبية لتصبح سكاكين ومناشير ومناجل منوعة . ومع تنامي الالتقاط المكثف للحبوب البرية ، في المناطق الغنية بها ، عرفت الادوات الزراعية الكبيرة من الاحجار البازلتية خاصة، كالمجاريش والاجران والمدقات كما عرف الكباريون البناء البسيط والفنون الاولى لكننا لم نعثر في قطرنا حتى الان ، على دلائل للفن والبناء على غرار تلك التي وجدت في فلسطين . في مطلع الالف العاشر ق.م بدأ عصر مناخي دافيء هو الهولوسن Holocène الذي لايزال مستمرا حتى الان ، ودخلت سورية ، في عصر الحضارة النطوفية(٤٢) التي أتت متطورة عن سابقتها ، الكبارية . وكان النطوفيون أول المجتمعات المستقرة حيث سكنوا في مراحلهم الباكرة في الكوم ويبرود وجيرود وصيدنايا قرب دمشق والطيبة قرب درعا ، وانشأ هؤلاء قرى الصيادين الاولى في حوض الفرات حيث وجدت بيوتهم في السويات الدنيا من مواقع تل المريبط ، وتل أبو هريرة .. وهي بيوت صغيرة محفورة على السفوح المنحدرة في الارض ، جدرانها من الطين وسقوفها من الاغصان والجلود وكانت المنازل متجاورة لكنها غير متلاصقة ، ورغم استقرار النطوفيين النسبي فهم لم يعرفوا الزراعة ولا التدجين بل اعتمدوا في تأمين غذائهم على الصيد والالتقاط البريين اللذين مورسا بكثافة وتخصص عاليين . كما استفادوا من الثروات السمكية في الانهار وبقوا يستخدمون الادوات الميكروليتية الهندسية لكنهم اضافوا أشكالا جديدة كالادوات ذات الشكل الهلالي أو أنصاف الدوائر Lunettes التي شذبوها وجهزوا بها أدواتهم المركبة كالمناجل لالتقاط النباتات البرية، كالقمح والشعير ، والخطاطيف لصيد الاسماك. كما عرفوا الابر والمخارز العظمية ، التي استخدموها في خياطة ملابسهم وجلودهم وأمتعتهم الاخرى ، والادوات الزراعية الثقيلة من الحجر البازلتي ، وهم أول من صنع ، في قطرنا ، مواد الزينة البسيطة كالخرز والقلادات والتمائم وغير ذلك من الانجازات التي تدل على مجتمع انتقل من مرحلة الجماعة الى مرحلة القبيلة وتوضحت سماته الخاصة الى درجة عالية وقامت بين أفراده علاقات اكثر غنى وتنظيما مما كان عليه الحال في عصر الباليوليت(٤٣) .

خامسا : الحضارات الزراعية في العصر الحجري الحديث ((ما قبل الفخار))

في نهاية الالف التاسع وبداية الالف الثامن ق.م وهي المرحلة المسماة بالنيوليت

ما قبل الفخار آ (٤٤) نضجت تحولات العصر السابق وحصل الانعطاف التاريخي الاول والاهم في تاريخ الانسان الذي انتقل تدريجيا ، من الصيد والالتقاط الى الزراعة والتدجين واصبح بذلك منتجا للطعام بعد ان كان جامعا له(٤٥) . لقد عثر على الاثار الاولى والاقدم لهذا الانعطاف الكبير في سورية وفلسطين ، دلت عليه مواقع تل المريبط وتل الشيخ حسن في حوض الفرات وتل اسود في حوضة دمشق ، واريحا في وادي الاردن ، لقد اقام سكان القرى الزراعية الباكرة في مطلع الالف الثامن ق.م في بيوت كبيرة وقوية استخدموا في بنائها اللبن ، لاول مرة ، والحجر والطين والخشب، وجعلوا اشكالها مستطيلة او مربعة اتت متطورة عن البيوت الدائرية الصغيرة التي ميزت العصر النطوفي السابق ، كما اصبحت البيوت متلاصقة مع بعضها ، مما سمح بزيادة عدد غرفها بسهولة كلما ازداد سكانها او دعت الحاجة . لقد انتشرت ،بكثافة، الادوات الزراعية الثقيلة كالرحى والاجران والبلطات كما صنعت المناجل ورؤوس السهام والادوات العظمية والاواني الحجرية . ومارس سكان القرى الزراعية الاولى صيد الحيوانات المختارة كالثور والغزال والحصان البري وقل اعتمادهم على الاسماك والطيور كما اشارت الى ذلك تنقيبات المريبط . ورغم زراعتهم للقمح والشعير الا انهم استمروا ايضا في التقاط هذه الحبوب التي عاشت في وسطهم برية وكثيرة . وفيما يتعلق بحياتهم الفنية والروحية فهم اول من تركوا لنا الفنون الاولى حيث عثر في المريبط، على جدران احد بيوت السوية الثالثة، على خطوط تزيينية سوداء رسمت على خلفية بيضاء يعتقد انها كانت تمثل شكلا هندسيا محصورا بين اطارين من اللون الاحمر، من المؤسف ان التلف اصابها وضاعت معالمها الحقيقية . وصنع السكان من الحجر ومن الطين تماثيل « الربة الام » التي تمثل امرأة عارية ترفع ثدييها بيديها وتبرز انوثتها، وتماثيل اخرى للثور المقدس .

كما دفنوا موتاهم في ارضيات بيوت سكنهم بعد ان فصلوا الجمجمة عن الجسم، كل ذلك يدل على مواقف محددة من قضايا الخصب والموت والحياة ترسخت مع الزمن واستمرت طويلا في معتقدات الشعوب اللاحقة في الوطن العربي القديم(٤٦) .

وفي مطلع الالف السابع ق.م (النيوليت ما قبل الفخار ب) حصلت حركات واسعة لشعوب المنطقة وقامت اتصالات وعلاقات تجارية ، هي الاولى من نوعها ، بين مناطق تبعد عن بعضها مئات الاميال فوصلت الاحجار النادرة ، كالاوبسيديان من الاناضول الى سورية وخامات اخرى من جبال زاغروس وافغانستان . واذا كان الالف الثامن هو عصر ابتكار الزراعة فان الالف السابع ق.م هو عصر ترسيخ هذا الابتكار من جهة واضافة ابتكار جديد اخر هو تدجين الحيوانات من جهة اخرى، تلك الحيوانات

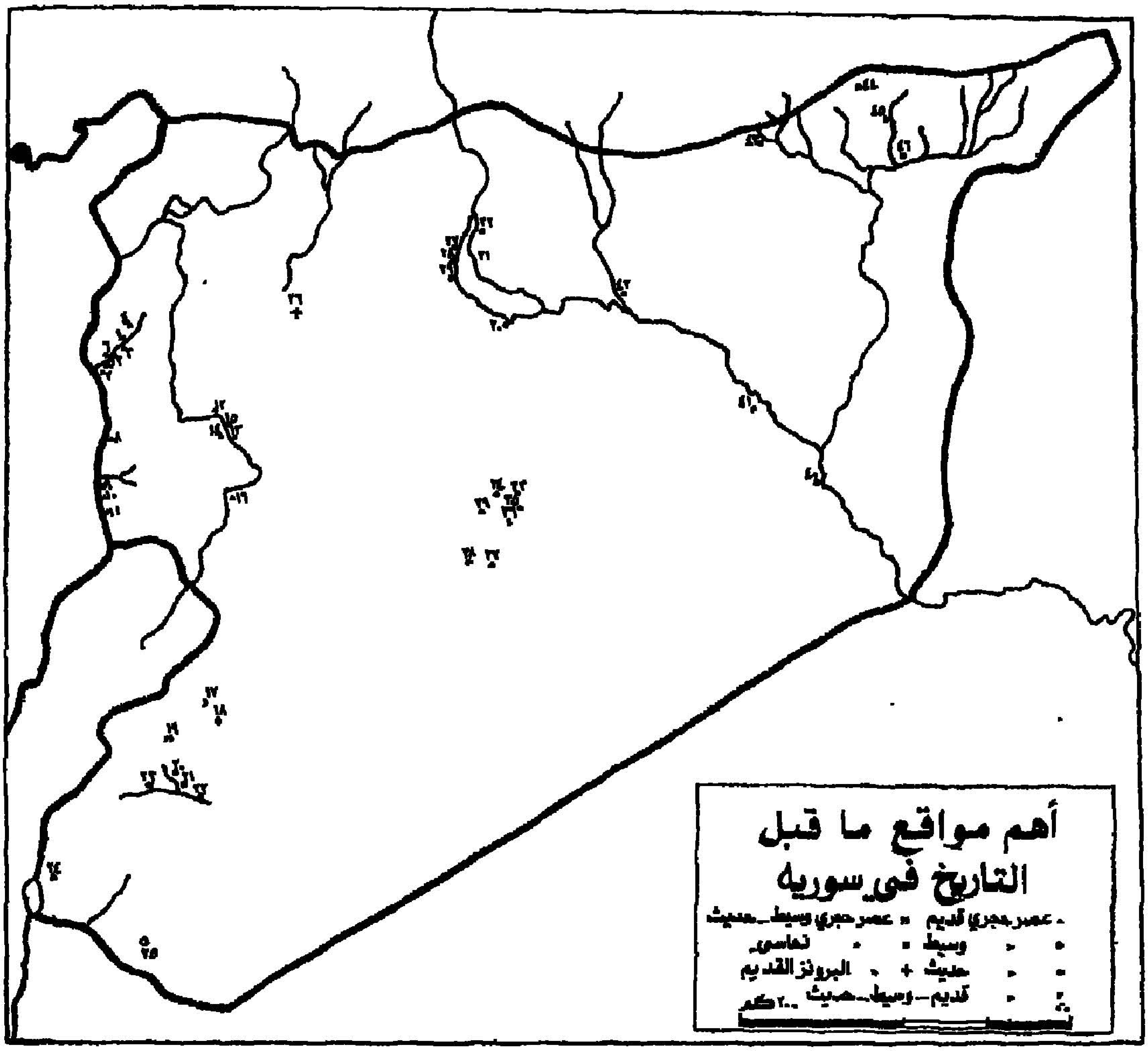
أهم مواقع ما قبل
التاريخ فى سوريه
عصر حجري قديم
عصر حجري وسيط ـ حديث
وسيط
نحاسي
حديث
البرونز القديم
قديم ـ وسيط ـ حديث
٢٠٠ كم

٤ ـ اهم مواقع عصور ما قبل التاريخ كما وردت مرقمة على الخارطة :

١ ـ ست مرخو
٢ ـ الشيخ محمد
٣ ـ المشرفة
٤ ـ مشيرفة الساموك
٥ ـ الشير
٦ ـ بكسا
٧ ـ هنادي
٨ ـ بانياس
٩ ـ تبة الحمام
١٠ـ أرض حمد
١١ـ موقع الحامي
١٢ـ اللطامنة
١٣ـ خطاب
١٤ـ القرماشي
١٥ـ تلول الدفاعي
١٦ـ الرستن
١٧ـ يبرود
١٨ـ جيرود
١٩ـ صيدنايا
٢٠ـ تل العريفة
٢١ـ تل الخزامي
٢٢ـ تل اسود
٢٣ـ تل الرماد
٢٤ـ المجامع
٢٥ـ الطيبة
٢٦ـ تل مرديخ (ابلا)
٢٧ـ جبل عرودة
٢٨ـ حبوبة الكبيرة
٢٩ـ تل قناص
٣٠ـ تل أبو هريرة
٣١ـ تل المريبط
٣٢ـ شمس الدين طنيره
٣٣ـ ام التلال
٣٤ـ الندوية
٣٥ـ بئر الهمل
٣٦ـ الكوم
٣٧ـ كهف الدوارة
٣٨ـ جرف العجلة
٣٩ـ أم قبيبة
٤٠ـ تل بقرص
٤١ـ عين ابو جممة
٤٢ـ شنينة
٤٣ـ تل حلف
٤٤ـ تل عقاب
٤٥ـ شكر بازار
٤٦ـ تل براك

التي كانت الهدف المفضل للصيد في الالف الثامن والتاسع ق.م ، كالغنم والماعز والبقر. ولقد بدات منذ ذلك الحين تتطور ، جنبا الى جنب ، مجتمعات اعتمد بعضها على الزراعة وبعضها الاخر على تربية المواشي ، علما بان هذا التخصص لم يكن حادا كما قد يظن ، لان الكثير من قرى الالف السابع قد مارست الزراعة والتدجين معا رغم تفاوت دور هذه الانشطة من مستوطنة الى اخرى. في نهاية الالف السابع ق.م تجذرت الزراعة والتدجين كاسلوب رئيسي في انتاج الطعام وخرجت القرى الزراعية الاولى من مناطقها التقليدية في الوديان والسفوح المطيرة ، المواتية للزراعة البعلية الى مناطق جديدة امطارها أقل كالبادية (الكوم ، بقرص) او ساحلية لا تنمو فيها الحبوب البرية (راس الشمرة ، تبة الحمام) لقد بني سكان هذه القرى الجديدة منازل اقوى من اللبن ، على اساس من الحجر ، منظمة بشكل افضل من السابق كانت تتصل غرفها مع بعضها بممرات ومجهزة بالمواقد والتنانير وارضها وجدرانها مطلية لاول مرة بالملاط الابيض تفصلها شوارع كبيرة أو صغيرة ويعتقد ان بعض هذه البيوت كان له اكثر من طابق واحد . ويعتبر موقع بقرص ، قرب دير الزور ، أفضل نموذج للبناء المنظم في هذا العصر(٤٧) كما طور الناس أدواتهم واسلحتهم وخاصة رؤوس السهام الحادة والطويلة وصقلوا بعناية بعض هذه الادوات كالبلطات لتصبح اكثر مضاء ، وصنعوا الاواني من الحجر الكلسي الابيض (الاواني البيضاء) التي مهدت الطريق لظهور الاواني الفخارية(٤٨) ، وعرفوا الاواني الرائعة من المرمر التي يعتقد انه كان لها استخدام ديني واجتماعي خاص . وعلى المستوى الروحي استمرت المجتمعات

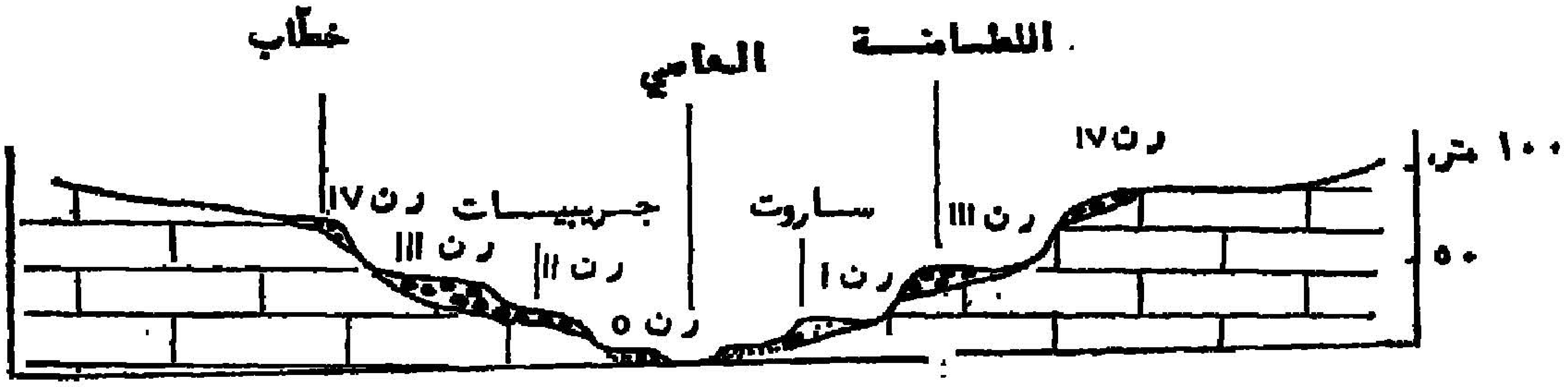

١- مقطع جيومورفولوجي في حوض العاصي

الزراعية الاولى بصنع الدمى الانسانية والحيوانية المختلفة التي ترمز ، كما اشرنا الى عقائد مجتمع زراعي يقدس الخصوبة والامومة (الربة الام) . لكنهم اصبحوا يدفنون موتاهم خارج بيوت سكنهم الا ان الاهتمام بالجماجم قد تزايد فلم يعد يكتفى بدفنها معزولة عن الجسد ، في قبور خاصة ، كما في السابق وانما اصبحت هذه الجماجم تثبت على قواعد طينية وتوضع على امتداد جدران بيوت السكن ، كما ظهر في السوية الرابعة في المريبط . ثم ما لبثت الجماجم ان حنطت حيث كشط لحمها واعيد تكييف معالمها بالكلس ، ووضعت على تماثيل كبيرة من الطين (تل الرماد) ويرى الباحثون في هذا العمل الدليل الاثري الصريح على انتشار عقيدة «عبادة الاجداد » وهي عقيدة مارستها شعوب المنطقة كلها من الفرات وحتى وادي الاردن . وهي تشكل دليلا اخرا على الرباط الروحي الباكر بين سكان هذه المناطق . وفي نهاية عصر النيوليت قبل الفخار ب حققت الفنون تقدما ملحوظا فتنوعت ادوات الزينة كالخرز والخواتم والامشاط والتمائم وظهرت ولاول مرة الاختام المسطحة من الطين والحجر الاخضر (راس الشمرة السوية Vc) والفنون الجميلة التي تدل عليها الرسوم التي نفذت باللون الاحمر على خلفية بيضاء ووجدت على جدران احد بيوت بقرص وهي تمثل طيور النعام ، كما وجدت في نفس الموقع وجوه بشرية كبيرة من الطين عيونها منزلة ، هي الاولى من نوعها في قطرنا .

سادسا : مجتمعات العصر الحجري الحديث الفخاري :

في بداية الالف السادس ق.م تكتمل انجازات انسان العصر الحجري الحديث بالتوصل الى معرفة الاواني الفخارية التي باتت ضرورية لحفظ وتخزين الطعام والشراب في القرى المستقرة(٤٩) . لقد صنعت من الطين الناعم المحضر مختلف انواع الاواني الكبيرة والصغيرة كالجرار والقدور والصحون والطاسات واصبحت الاواني الفخارية ، بعد ان كانت الادوات الحجرية ، من السمات المميزة للشعوب وعلى اساسها يجري تمييز هذه الشعوب وتحديد انتشارها الزماني والمكاني . ان اقدم ظهور واسع للفخار في قطرنا اتى من الجزيرة العليا (موقع تل اسود) وهو يعود الى نهاية الالف السابع وكان من النوع الاسود والمصقول باليد ويعتقد انه من هذه المنطقة انتقلت صناعة الفخار شرقا الى بلاد الرافدين وغربا الى الاناضول وسواحل المتوسط. تلاذلك فخار منطقة العمق، المسمى بالعمق آ Amuq A الذي انتشر في المناطق الغربية من سورية(٥٠) وهو بني اللون او قاتم عموما عليه بعض الحزوز والطبعات الزخرفية البسيطة (السوية VB في راس الشمرة وموقع تل سوكاس) ، وهو يوازي زمنيا فخار العمق آ. وفي مرحلة لاحقة تسمى العمق ب ، انتشر نوع آخر من الفخار الرمادي المصقول ايضا وهو احدث نسبيا (السوية VA في راس الشمرة) وفي هذه المرحلة

انتقلت صناعة الفخار من سورية الى فلسطين جنوبا وسادت في الالف السادس في كل المنطقة المسماة بالهلال الخصيب حضارة كبيرة متجانسة تألفت من مجموعة مراكز محلية أصغر تشابهت مع بعضها بدرجات متفاوتة فكانت الجزيرة السورية أقرب الى بلاد الرافدين الشمالية بينما شكلت السواحل السورية مع الفلسطينية واللبنانية مركزا حضاريا واحدا، في حين كانت مناطق جنوب سورية اشبه بالحضارات الفلسطينية. لقد عاشت مجتمعات النيوليت الفخاري، مثل سابقتها ، على الزراعة والتدجين وبقي القمح والشعير والغنم والماعز أهم ما زرع ودجن في ذلك العصر ، وقد تطورت آنئذ الادوات الزراعية والاسلحة وخاصة رؤوس السهام التي اصبحت اكثر تخصصا (كنبال العمق او نبال جبيل على الساحل اللبناني) وزاد استخدام الحجر المصقول كالفؤوس والبلطات والمقدات ولكن لم يطرأ تغير يذكر على البناء ولا على الحياة الفنية والروحية وان كنا نرى نقصا ملحوظا لا نجد له تفسيرا كافيا في صنع الدمى الانسانية والحيوانية. منذ منتصف الالف السادس ق.م اختلف بشكل واضح وتأثر التطور في قطرنا وبعد ان سارت حتى الان بشكل متواز، فواكبت الجزيرة السورية مناطق شمال الرافدين الذي تسارعت فيها التفاعلات الحضارية ممثلة بالثقافة الحلفية الجديدة(٥١) التي حققت انجازات كثيرة ليس اقلها الفخار الرائع ، بينما بقيت المناطق السورية الجنوبية شديدة الصلة بفلسطين والاردن ، وتعيش معها تقاليد العصر الحجري الحديث.

سابعا : حضارات العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) .

في منتصف الالف السادس ق.م ظهرت ، كما ذكرنا ، في شمال بلاد الرافدين وفي الجزيرة السورية الحضارة الحلفية التي عرفت لاول مرة النحاس واستخدمته ، مطروقا ، في تصنيع بعض الادوات الخفيفة وبدأ دور الحجر بالتراجع لتتصاعد اهمية المعادن ، ومن هنا أطلقت تسمية العصر الحجري النحاسي الذي يمثل المراحل الاخيرة من عصور ما قبل التاريخ . ان من اهم ما يميز الحلفيين هو الاواني الفخارية الرقيقة، جيدة الصنع ، الملونة والمزخرفة باشكال هندسة ونباتية وحيوانية وانسانية غاية في الجمال . لقد انتشر هؤلاء على منطقة واسعة امتدت من شمال الرافدين وحتى سواحل المتوسط مما يشير الى تجانس حضاري شمل أيضا النصف الشمالي من سورية وحتى البقاع جنوبا . لقد انتج الحلفيون السوريون فخارهم الخاص الشديد الشبه بالنوع المستورد من الشمال الرافدي(٥٢) وصنعت هذا الفخار مراكز متخصصة صدرته الى مناطق اخرى بعيدة قامت بينها علاقات وصلات قوية . لقد تطور الحلفيون السوريون بشكل متزامن مع اخوانهم الرافديين وما المواقع السورية الهامة كشاغار بازار، وتل أسود ، وتل عقاب ، وتل حلف ، وتل يونس وغيرها الا المرادف الحضاري لياريم تيه والعربجية في العراق . وكما تطور الحلفيون هناك على مراحل

ثلاث باكرة ومتوسطة واخيرة نلاحظ وجود نفس المراحل التطورية في سورية . لقد سكن الحلفيون في بيوت مستطيلة او مربعة أو دائرية مبنية من اللبن والحجر بعضها بتألف من مدخل مستطيل ينتهي ببيت دائري مقبب(٥٢) ، وصنعوا الادوات الحجرية المنوعة والمصقولة والادوات الاوبسيديانية ، والاختام المسطحة والمواد الفنية كالخرز والدمى وخاصة التي تمثل «الربة الام» . ويدل البيت الصغير فيتل اسود الذي عثر في جداره على جمجمة ثور انه كان معبدا مورست فيه الشعائر الدينية(٥٤) . في النصف الاول منالالف الرابعق.م. ظهرت على انقاض الحلفيينالحضارةالعبيدية(٥٥) ، وان الكثير من المواقع السورية كراس الشمرة وتل عقاب وتل حلف وشاغاو بازار اعطتنا اواني فخارية لها صفات انتقالية مشتركة بين عصري حلف المتأخر وعبيد الباكر معا يحملنا على الاعتقاد بان العبيديين السوريين هم أيضا مثل الحلفيين ، سكان محليون اصلاء وليسوا مهاجرين ولا غزاة قدموا من جنوب بلاد الرافدين كما ظن سابقا ، لقد انتشر العبيديون على نفس المناطق التي عاشت فيها سابقا المجتمعات الحلفية ،٠ اي بقوا في القسم الشمالي من سورية ولم يتجاوزوا حمص جنوبا ، وعرفوا تصنيع الاواني الفخارية ، لكنها كانت اقل جودة من السابق معظمها بلون واحد ، برتقالي فاتح غالبا ونادرا ما صقلوها ، اما زخارفها فكانت هندسية واحيانا طبيعية ، كالنباتات والحيوانات والبشر . ان الابتكار الهام في هذا العصر هو الدولاب البطيء الذي مكنهم من انتاج أوان أكثر تنوعا وانتظاما . وخير ما يمثل الفخار العبيدي هو راس الشمرة السوية III c التي وجد فيها فخار له عدة الوان أو لون واحد ، غالبا أحمر ، وفيه صفات انتقالية بين حلف وعبيد ، والسوية III B حيث ظهرت فيها الاواني العبيدية الخالصة ، كالجرار والقدور ذات المثاعب المزخرفة ببصمات الاصابع وبعضها باشكال هندسية مختلفة . لقد سكن العبيديون في بيوت مستطيلة من الطين والحجر، رصفت ارضها بالحجارة وتوسطتها المواقد ، وصنعوا أدوات زراعية ، وخاصة المناجل والبلطات لقطع النباتات والاخشاب،والقداديم من الاحجار الخضراء ، وعرفوا النسيج وأدوات الزينة من العظم والاوبسيديان والاحجار النادرة الاخرى والدمى الانسانية المختزلة من الطين والحجر والكلس . الى الجنوب من مناطق انتشار الحلفيين والعبيديين ، أي جنوب حمص ،وعلى امتداد الالفين الخامس والرابع ق.م عاشت مجتمعات أقل تطورا تابعت نمط حياة العصر الحجري الحديث ، سكنت في بيوت حجرية كبيرة كما هي الحال في موقع المجامع في منطقة القنيطرة او طينية صغيرة كما هي الحال في تل الخزامى في حوضة دمشق، وصنعت الادوات الزراعية المنوعة وكان لها فنونها ومعتقداتها الخاصة وهي أقرب الى حضارة الغسول الفلسطينية(٥٦) .

ثامنا : نشوء العمران وفجر التاريخ :

في النصف الثاني من الالف الرابع ق.م(٥٧) انطلقت من مدينة الوركاء في جنوب بلاد الرافدين الحضارة السومرية التي ابدعت نظام الكتابة وأسست أول دولة في التاريخ. في هذا العصر بلغ التشابه بل التطابق الحضاري بين سورية وتلك البلاد لدرجة اكبر من اي وقت سبق ، دل على ذلك نمط البناء والفخار والفنون والكتابة التصويرية الاولى وغير ذلك ، لقد انشئت المدن المسورة والمحصنة الاولى في وادي الفرات السوري على امتداد الطريق التجاري الهام بين دولة السومريين في الجنوب وسواحل المتوسط والاناضول في الشمال ، كما أظهرت تنقيبات الانقاذ التي جرت اثناء اقامة سد الفرات(٥٨) وادت الى اكتشاف العديد من المواقع الهامة التي نسبت الى حضارة الوركاء وعلى رأسها حبوبة الكبيرة الجنوبية وتل قناص وجبل عرودة ، اضافة الى تل براك في الجزيرة السورية شمال الحسكة المعروف منذ الاربعينات والذي استؤنف التنقيب فيه في السنوات الاخيرة . ان موقع حبوبه الكبيرة الذي بلغت مساحته حوالي ١٨ هـ، يعطينا افضل فكرة عن نظام بناء المدن في ذلك الحين(٥٩) فلقد شيدت مدينة حبوبة وفق مخطط مسبق ودقيق وزودت بشبكة من الطرق الرئيسية والفرعية والاقنية لتمديد وتصريف المياه .

بنيت المساكن على الطراز السومري المعروف بثلاثي العناصر Tripartite اي باحة كبيرة مركزية مربعة أو مستطيلة في منتصفها موقد أو كثر ويحيط بها من الجانبين صفان من الغرف الصغيرة وهذا نفس النموذج الذي بنيت وفقه المعابد الاولى . وهناك طراز اخر من البناء ، محلي بحت ، اسماه المنقبون بالبيت الشرقي ويتالف من صالة كبيرة واحدة تطل على صحن دار داخلي . لقد انتشرت معظم المساكن حول شارعين رئيسين يوازيان الفرات ويقطعان المدينة من شمالها الى جنوبها ، وقامت بجوار بيوت السكن الابنية الاقتصادية المختلفة كالمشاغل والمستودعات . احاط بالمدينة من كل جهاتها ، عدا الشرق حيث الفرات ، سور مزدوج هو الافضل حفظا من نوعه في المشرق العربي القديم . لقد بني هذا السور من اللبن وبلغ عرضه ثلاثة امتار وطوله ٦٠٠ متر. فيه بوابتان رئيستان وتعلوه ابراج دفاعية مستطيلة وعضادات تدعمه وتعطيه شكلا جميلا . لقد صنع سكان المدينة اواني من الفخار العادي، بعد ان تراجع فخار عصر العبيد الملون ، كالقصعات والجرار والقدور التي طبعت سطوحها بالاختام الاسطوانية التي صنعت لاول مرة في قطرنا ونقشت عليها مواضيع اسطورية وطبيعية تذكر باختام الوركاء. والى الجنوب من تل حبوبة الكبيرة الجنوبية يقوم تل قناص الذي اتضح انه يمثل الجناح الاداري والديني لمدينة حبوبة الكبيرة(٦٠)، حيث كشف عن ثلاثة

معابد مبنية فوق مصطبة مرتفعة وعلى نفس النموذج الثلاثي العناصر الذي بنيت وفقه بيوت السكن ومزودة بمصاطب امامية وادراج ، وجدت في هذه المعابد الجرار الفخارية المزخرفة بالضغط او الحز ، والاواني المرمرية الكبيرة ذات المثاعب ، وأدوات زراعية ومنزلية وصناعات نفيسة واختام واسلحة بل والاهم من كل ذلك اللوحات الطينية التي حملت اشكالا حيوانية بقربها رموز حسابية تمثل الكتابة التصويرية Pictographe التي تعود الى الربع الاخير من الالف الرابع ق.م وتمثل المرحلة الاولى من تاريخ الكتابة(٦١) وعلى هذا العصر يؤرخ جبل عرودة الواقع على بعد بضع كيلو مترات الى الشمال من حبوبة ، لقد شيد السكان على قمة الجبل الذي يرتفع حوالي ٦٠ مترا عن السهل المجاور معبدين كبيرين بنيا على نفس المخطط ثلاثي العناصر ايضا وزينت جدرانهما بالمسامير الطينية الملونة مثل المعابد الرافدية في مدينة الوركاء، في واحد من هذين المعبدين عثر على رقم طينية عليها كتابة تصويرية وطبعات اختام اسطوانية تشبه رقم حبوبة والوركاء وهذا دليل اخر على الوحدة الحضارية للمنطقة . وجدير بالذكر ان لوحات كتابية مشابهة أيضا آتت من موقع تل براك ، في الجزيرة العليا حيث وجد معبد رائع هو « معبد العيون » زين محرابه بالاحجار النادرة والمعادن الثمينة مما اكسبه صفة محلية خالصة (٦٢) ان عدم استمرار الحياة مدة طويلة في مدن الفرات الاوسط ، التي لم تعمر الا حوالي قرن او قرن ونصف من الزمن اذ اودى بهـا حريق كبير ، حمل البعض على اعتبارها محطات تجارية سومرية مؤقتة ربطت بين بلاد الرافدين جنوبا ، حيث ازدهرت ثقافة الوركاء ،وبين الاناضول والمتوسط شمالا. لكننا نظن انهما مراكز استيطان مدني وأصيل تطورت محليا ، بشكل متزامن مع مثيلاتها في بلاد الرافدين مستفيدة من موقعها الجغرافي المناسب. يدعم هذا الراي العثور على اثار عصر الوركاء وخاصة الفخار في مناطق بعيدة عن الفرات وصلت حتى الكوم في البادية السورية والجزيرة العليا حيث يقوم موقع تل براك الذي بقيت الحياة فيه مستمرة بلا انقطاع وحتى العصور التاريخية اللاحقة والذي وجدت فيه كما أشرنا كتابات تصويرية تعود الى نهاية الالف الرابع ق.م. بعد هذه التاريخ غابت الكتابة في قطرنا لمدة طويلة قبل ان تظهر الكتابة المسمارية المتطورة التي دل عليها الارشيف الملكي في ابلا العائد الى الربع الثالث من الالف الثالث ق.م وهو زمن دخلت فيه سورية بالكامل في العصور التاريخية القديمة(٦٣) .

الرباعي في سورية

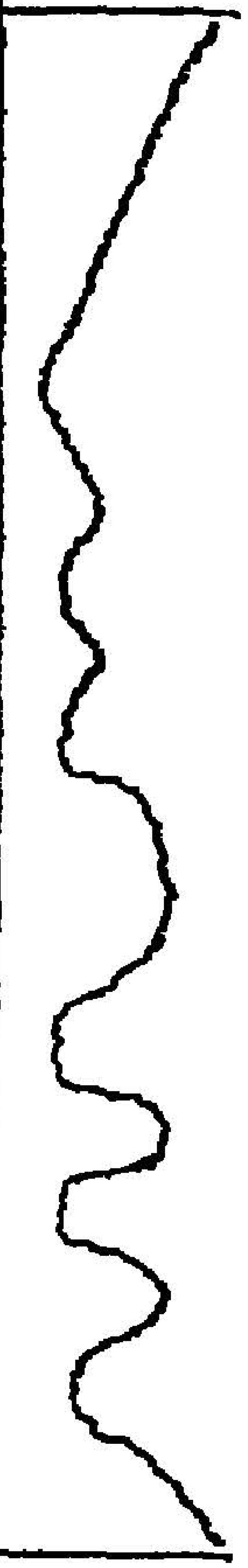

ـشـاخ ـاتي، بارد	أقسام الرباعي	الرباعي السوري	الرباعي الاوروبي	الانسان	العصر	الحضارة	المواقع الهامة	الزمن بالسنين
	الهولوسين	تشكلات الهولوسن	تشكلات الهولوسن	الانسان العاقل	العصر الحجري النحاسي	مجتمعات انتقالية الى العصور التاريخية	تل حلف، تل عقاب، تل براك، تل حبوبة الكبيرة جبل عارودة، شمس الدين طنيرة، شاغار بازار، المجاسع، تل الخزامي .	٣٠٠٠
					العصر الحجري الحديث	مجتمعات الزراعة والتدجين	تل المريبط، تل أبو هريرة، بقرص، تل الرقاد، تل العريقة، رأس الشمرة، لهة الحمام	٥٠٠٠
	البليستوسين – البليستوسين الأعلى	الشـــير	ڤـــرم		العصر الحجري الوسيط	الكبارية النطوفية	الكوم I، الندوية I، المريبط I، صيدنايا، جيرود يبرود III، الطيبة	٨٠٠٠
					العصر الحجري القديم الاعلى	الاورينياسيه	يبرود II والطبقات العليا من كهوف جرف العجلة و الدوارة .	١٢ر٠٠٠
				النياندرتال	العصر الحجري القديم الأوسط	اللفلوازية – الموستيرية	جرف العجلة وكهف الدوارة والطبقات العليا في أكثر مواقع العصر الانتقالي .	٣٥ر٠٠٠
		بانياس	ريس – ڤيرم	الهوموإركتوس	عصر انتقالي	الآشولية الاخيرة، اليبرودية، المطلية، الساموكية، الدفاعية	يبرود I، بئر الهمل، الندوية II، أم التلال، أم قبيبة، عشيرة الساموك، تلول الدفاعي .	١٠٠ر٠٠٠
		عين أبو جمعة	ريس		العصر الحجري القديم الأدنى	التياسية	ست مرخو، الشيخ محمد، خطاب، الرستن، اللطامنة، القرماشي، ارق حمد، موقع الحامي .	٥٠٠ر٠٠٠
	البليستوسين الأوسط	هنادي	مندل – ريس					
		اللطامنة	مندل			الآشولية		
		بكسا	جينز – مندل					
	البليستوسين الأدنى	ست مرخو	جينز	الاوسترالوبيتك				
		الشرفة	دونو – جينز			الابفيلية		١٠٠٠ر٠٠٠

(١) لقد ظهر الانسان الاول منذ ما ينوف على المليوني سنة في جنوب وشرق القارة الافريقية، واخترعت الكتابة التصويرية الاولى في بلاد الرافدين وفي سورية منذ نهاية الالف الرابع ق.م . وعليه فان عصور ما قبل التاريخ تقع بين هذين الحدثين . ويقسم الباحثون هذه العصور الى العصر الحجري القديم الباليوليت Paléolithique الذي بدأ في ازمنة متفاوتة مع ظهور الانسان في مختلف الاماكن وانتهى في نحو ١٢٠٠٠ سنة ق.م . وهو عصر التنقل والصيد والالتقاط، ويقسم بدوره الى الباليوليت الادنى والاوسط والاعلى ، يليه العصر الحجري الوسيط الميزوليت Mésolithique وهو عصر انتقالي استمر من نحو ١٢٠٠٠ حتى نحو ٨٠٠٠ سنة ، ثم العصر الحجري الحديث النيوليت Néolitihiqueوهو عصر الاستقرار والزراعة والتدجين واستمر من نحو ٨٠٠٠ وحتى نحو ٤٠٠٠ سنة ق.م . واخيرا العصر الحجري النحاسي الكالكوليت Chalcolithique ويمثل نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية الانتقال الى العصور التاريخية القديمة وقد استمر على امتداد الالف الرابع ق.م . تقريبا . علما بان هذه الارقام مدورة ونسبية وتتباين من موقع لاخر ومن منطقة لاخرى . وتساعدنا الان طرق التاريخ المخبرية في تحديد سلم زمني ادق لعصور ما قبل التاريخ .

(٢) عثر هذا الفرنسي المتعدد الاهتمامات على هذه الادوات في حوض نهر الســوم في منطقة ابفيل Abbeville ، ونشر بين ١٨٤٧ - ١٨٦٠ ثلاثة مجلدات حاول فيها تأكيد قدم الانسان السحيق جدا عكس ما كان يعتقد ، وفق التوراة ، من ان الانسان يعود الى الالف الرابع ق.م .

(٣) في الوقت نفسه (١٨٥٩) قام السيد غودري A. Gaudry بالحفر من موقع سان اشــول Saint Acheul في حوض نهر السوم ايضا وحصل على المزيد من الاسلحة والادوات الحجرية المتطورة الصنع بينها فؤوس حجرية هي التي تميز ما يسمى الان بالحضارة الاشولية Acheuléen .

(٤) نشر هذا الكتاب The Qrigin of Species في ١٨٥٩ وفيه عالج داروين قضية التطور مؤكدا ان العالمين الحيواني والنباتي قد تطورا عبر زمن طويل في اطار قوانين الاصطفاء الطبيعي وبقاء الافضل . وفي مؤلف اخر عن اصل الانسان The Descent of Man الذي صدر في ١٨٧١ عالج داروين مسالة تطور الانسان نفسه من الرئيسيات وحتى الانسان العاقل . وقد كتب هذا المؤلف في زمن كانت فيه الاكتشافات قليلة ومناهج البحث بسيطة مما جعله يفتقر الى الدقة العلمية التي نلمسها اليوم في مؤلفات اخرى تعالج نفس الموضوع . ومهما يكن فهناك اتفاق عام الان بين الباحثين على قضية التطور وان اختلفوا في الكيفية او التفاصيل ونامل التعرض لهذا الموضوع في بحث مستقل قريبا .

(٥) نذكر من الباحثين الذين عملوا في النصف الاول من القرن العشرين وكان لهم الفضل في ارساء دعائم علم ما قبل التاريخ ، وكلهم فرنسيون : H. Breuil,
H. Christy, E. Lartet, C. de Mortillet, V. Commont, D . Peyrony,
فلا نستغرب ان يقال ان علم ما قبل التاريخ علم فرنسي ، كما ان معظم حضارات ما قبل التاريخ اخذت تسمياتها من المواقع الفرنسية ، ولكن ذلك لا يعني اسبقية فرنسا الحضارية في هذه العصور انها قضية تاريخ البحث ليس الا ، وقد دلت الدراسات الحديثة عدم دقة تطبيق النموذج الفرنسي لعصور ما قبل التاريخ على كل المناطق التي كان لها ميزات مستقلة ولا بد من ايجاد نماذج محلية تعبر عن طبيعة تلك العصور بشكل اكثر علمية وموضوعية وهذا ما يحصل الان في مختلف البلدان .

(٦) تستخدم الان بتصاعد الحواسب الالكترونية وطرق التاريخ والتحاليل المخبرية الفيزيائية ـ الكيميائية الحديثة ، اضافة الى القوانين الرياضية وعلوم اخرى ، وذلك في دراسة بقايا عصور ما قبل التاريخ سواء كانت ادوات اثرية حجرية او عظمية أم مستحاثات نباتية او حيوانية او جيولوجية أم هياكل عظمية بشرية ، وتعطي هذه الطرق المتطورة نتائج مشجعة تتحسن دقتها باستمرار .

(٧) يعتبر الامريكي بينفورد والانكليزي دافيد كلارك رائدي علم الاثار الحديث الذي يتبع المنهج الاستدلالي Deductive الذي يعتمد على طرح نظريات تتعلق بحياة انسان ما قبل التاريخ ثم محاولة التحقق من هذه النظريات من خلال البحث الميداني ،على عكس منهج علم الاثار التقليدي الاستقرائي Inductive الذي يدرس عصور ما قبل التاريخ دون افتراضات مسبقة ، بل كما يظهرها واقع البحث الاثري في الموجه سلفا ومهما يكن فاننا لا نعتقد ان علم الاثار الحديث قد آتى بثماره الكاملة او احدث ثورة في معارفنا عن مجتمعات ما قبل التاريخ ، فكلا المنهجين يلتقيان ويكمل احدهما الاخر ومن اجل المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى المؤلفات التالية :

— R.L. et Sally Binford, 1968, **New Perspective in Archaeology,** Chicago.
— D.L.Clark, 1968, **Analytic Archaeology,** London.
— P. Courbin, 1982, **Qu' est que l'Archeologie,** Payot, Paris.

(٨) لقد قام بالاعمال الاولى حول عصور ما قبل التاريخ رجال دين وضباط فرنسيون جمعوا بعض الادوات الحجرية من مناطق مختلفة في سورية ولبنان، وخاصة من احواض الانهار الرئيسية كالفرات والعاصي والليطاني وقاموا بدراسات اولية لها ، نذكر من هؤلاء الاب زوموفن الذي نشر بعض المؤلفات في مطلع هذا القرن عن ما قبل التاريخ السوري واللبناني ، والضابط برفيه الذي نشر في الاربعينات دراسات اخرى مشابهة عن مواقع ما قبل التاريخ السورية ـ اللبنانية ، ومن اهم المراجع الاولى :

— G. Zumoffen, 1900, **La Phénicie avant Les Phéniciens,** Beyrouth Imp. Catholique.
— Zumoffen, 19o8 « L' Age de la Pierre en Phênicie » **Anthropos,** 3, 431—55 .
— M, Pervés, 1946 — 48 « La Préhistoire de La Syrie et du Liban» **Syria** 9 , 1o9 - 29 .

(٩) قدم السيد روست الى الشرق الاوسط على دراجة عادية مدفوعا بالاكتشافات الانكليزية الهامة لآثار انسان النياندرتال في مناطق جبال الكرمل بفلسطين ، فاستهوته ملاجيء وادي سكفتا في يبرود ونقب منها ثلاثة بين اعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ ونشرها بمنهجية علمية هي الاولى من نوعها .ويعتبر هذا الباحث الاب الحقيقي لما قبل التاريخ السوري . ولكن المؤسف انه اخذ المواد الاثرية معه الى المانيا .

(١٠) اننا نستخدم مصطلح ((حضارة)) Culture لوصف الانجازات المادية او الروحية لمجتمعات ما قبل التاريخ . وفيما يخص عصور ما قبل التاريخ فان هذا المصطلح غالبا ما يقتصر على وصف نمط معين من الادوات الحجرية او العظمية التي كان لها انتشار زماني ومكاني محدد .

(١١) لا زال هذا الملجا محط اهتمام المختصين وقد اعادت التنقيب فيه بعثة امريكية من جامعة كولومبيا بادارة رالف سوليكي وذلك بين أعوام ١٩٦٣ - ١٩٦٥ ، ويتهيا هذا الباحث للرجوع الى يبرود ومتابعة العمل مجددا لتدقيق بعض الامور التي ظهرت اثر تنقيبات الستينات او التي نشرها روست في الثلاثينات وقد نشر السيد سوليكي بالاشتراك مع زوجته تقريرا عن اعماله في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية .

— Solecki, R, L, 1966 « New data from yabroud, Syria, Preliminary Report of the Colombia University Archaeological Investigations. A.A.A.S., 12 (2) 121 - 154 .

(١٢) الكتاب بالالمانية صدر في ١٩٥٠ وهو :

A. Rust, 1950. Die Holenfund Yabrud (Syrien), K. wachholtz Neumunster,.

(١٣) نقب الطاحنة السيد ديزموند كلارك ١٩٦٤ - ١٩٦٥ وسبقه سبر من قبل فان ليرة وعدنان البني ١٩٦٠ ، وتنقيب بسيط في ١٩٦١ - ١٩٦٢ من قبل مودرمان ، واستخدمت لاول مرة طرق الدراسة الكثافية لارضية سكن الموقع بهدف معرفة توزع الاثار وخاصة الادوات الحجرية ومن ثم تحديد طبيعة النشاط الذي مارسه السكان ، مما ساعد على تعيين مناطق لطرق الصوان واخرى للاقامة او القاء الفضلات .

(١٤) استفاد فان ليرة من كونه خبيرا في التربة ولعدة سنوات (١٩٥٥ - ١٩٦٥) لـدى الحكومـة السورية وقد نشر ملخص اعماله في كتاب صغير اسماه ملاحظات عن الرباعي السوري ، اعيد طبعه من قبل المديرية العامة للاثار والمتاحف .

W. J. Van Liere 1960 - 1961, **Observations On The Quaternary of Syria .**

(١٥) نذكر، من البعثات المتميزة، مجموعة العمل المشترك ٤٣٨ R.C.P.438 التابعة لجامعة ليون الثانية بادارة الاستاذ بسول سانلافيل وعضوية كل من : بوزانسون ، اور ، كوبلاند Y. Besançon, F.Hours, L. Copeland وسلطان محيسن كما نذكر البعثة الدائمة العاملة في منطقة الكوم بادارة السيد جاك كوفان العائدة لمركز البحث العلمي الفرنسي والتي يشارك فيها كاتب هذه الدراسة ايضا . وقد ادى نشاط هاتين البعثتين الى اغناء معلوماتنا بصورة كبيرة عن ما قبل التاريخ السوري ، وتجلى ذلك من خلال المؤتمر الدولي الذي عقد في مدينة ليون بفرنسا بين ١٠ - ١٤ حزيران ١٩٨٠ والذي نشرت دراساته في مؤلف كبير ١٩٨١ بعنوان ما قبل التاريخ في الشرق Préhistoire du Levant, C.N.R.S. Paris 1981 كما ان كل البعثات التي عملت او تعمل في قطرنا تنشر تقارير اولية عن نتائج اعمالها في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية التي تصدرها المديرية العامة للاثار والمتاحف بدمشق ، ونجد في كل اعداد هذه المجلة

تقريبا داسات باللغة الاجنبية ، مع ملخص مترجم للعربية حول مواقع عصور ما قبل التاريخ المنقبة علما بان العدد السادس عشر (الجزء الثاني) عام ١٩٦٦ قد خصص كله لما قبل التاريخ.

(١٦) منذ مطلع القرن الحالي استطاع كل من بنك وبروكنر

A, Penck et Bruckner , E., 1908 , Die Alpen in Eiszeitalter, Leipzig Tauchnitz,

تحديد اربعة عصور جليدية هي من الاقدم : جينز ، مندل ، ريس ، فيرم : Guns , Mindel, Riss, wurm. اخذت تسمياتها من روافد فرعية لنهر الدانوب في جنوب Donau المانيا ، وقادت الاعمال اللاحقة الى تحديد عصرين جليديين اخرين هما دونو الذي سبق جينز ،وبيبر Biber وهو العصر الجليدي الاول والاقدم .

(١٧) لقد تبين بانه من غير الدقيق علميا الاستمرار في استخدام التقسيمات والتسميات الاوروبية على مناطق الشرق الاوسط . فقد اثبتت البحوث الاخيرة للجيومورفولوجيين الفرنسيين جاك بوازنسون وبول سانلافيل ، انه كان للتغيرات المناخية الرباعية في هذه المنطقة شكلا مختلفا منه في اوربة لذلك اعطيت العصور المناخية الشرق ـ اوسطية اسماء محلية ماخوذة من المناطق التي وجدت فيها افضل اثارها سواء كانت مصاطب نهرية ام شواطىء بحرية . ونحن نستخدم الترميز والترقيم العالمي لتحديد هذه الاثار فنرمز الى تشكلات عصر الهولوسين : راءنون صفر (ر ن ٠) أي رباعي نهري صفر او راء باء صفر (ر ب ٠) ، أي رباعي بحري صفر

Quaternary Fluviatile Q0 =QFO , Quaternary Marine O=QMO

واما تشكلات البليستوسين فيرمز لها تتابعا رن ١ ، ر ب ١ ، ر ن ٢ ، رب ٢ ، رن ٣،رب٣، رن٤،رب٤ وهكذا .

(١٨) لا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل عملية ظهور الانسان وتطوره البيولوجي لكننا نشير الى ان الدراسات المعمقة في هذا الموضوع قد اظهرت ان الفرع الذي آل الى الانسان قد تطور على امتداد زمن طويل بدءا منذ اكثر من عشرين مليون سنة ، وان الكائن الاول الذي اتفق الباحثون على تسميته بالانسان Homo هو النوع الذي حمل صفات انسانية كالقامة المنتصبة وحجم الدماغ الكبير ، وكان قادرا على التفكير والقيام بالعمليات الذهنية التي مكنته من تصنيع الاداة الاولى هذا الكائن يسمى الاوسترالوبيتك او الهوموهابيل Australopithecus, ou, Homo - Habilis وقد ظهر منذ بداية الرباعي ، تلته ثلاثة انواع اخرى تتدرج في تطورها الفيزيولوجي والحضاري هي الهوموارکتوس ثم النياندتال واخيرا الانسان العاقل ، الجد المباشر للانسان الحالي

Homo - Erectus, Néandertal. Homo - Sapiens .

(١٩) P. Sanlaville, (ed.) 1979, **Quaternaire et Préhistoire du Nahr el Kebir septentrional, les debuts de l'occupation humaine dans la Syrie du Nord et au Levant,** C.N.R.S., Paris.

(٢٠) Hours,F.1980,Paléolithique de la Syrie et du liban, thése de Doctorat d' Etat presentée à L l'Universtié de Paris I (Sorbone).

(٢١) — Clark, D. 1966,«The Middle Acheulian Occupation Site Latamne,

Northern Syria» A.A.A.S. 16 (2) 1-120 .

(٢٢) — Muhesen, S., 1981 « The Upper Acheulian in Syria» Colloque, Prehistoire du levant . 185-191, C.N.R.S. Paris .

(٢٣) نقبت هذا الموقع بعثة سورية ـ فرنسية مشتركة بادراة كل من سلطان محيسن وفرنسيس اور ، وقد نشرت دراسة مفصلة عنه في اوكسفورد اعدها الباحث في جامعة ليون الثانية بفرنسا وهي:

— Muhesen, S., 1985, **L'Acheuleen Recent Evolué de Syrie** B.A.R. International Series 248, Oxford, England.

(٢٤) — Copeland , L . et Hours , F ., 1981 , « La fin de L' Acheuléen et L'Avènement du Paléolithiqne Moyen en Syrie » Colloque **Préhis toire du Levant** 225 - 238 C.N.R.S. Paric.

(٢٥) — Hours, F., 1983| Le yabroudien d'el kowm et sa Place le Paléolithique du Levant » **Paléorient** 9/1 , 21 - 37.

(٢٦) لم نعثر حتى الان في قطرنا على اية هياكل عظمية مباشرة لانسان الهومواركتوس او النياندرتال واقدم ما وجد من هياكل يعود الى الانسان العاقل وقد اتى من السوية الثانية من تل الرميلة المؤرخة في نهاية الالف التاسع ق.م.

(٢٧) تعمل في حوضة الكوم منذ ١٩٧٨ بعثة فرنسية دائمة بادارة جاك كوفان وتنشر نتائج اعمالها في مجلة خاصة تسمى الفرات (Cahiers de L'Euphrate) وقد صدر حتى الان منها اربعة اعداد الاول (١٩٧٨) والثاني (١٩٧٩) والثالث (١٩٨٢) والرابع (١٩٨٦) .

(٢٨) استخدمت لاول مرة طريقة اليورانيوم ثوريوم Ur/Th في تاريخ بعض مواقع الكوم وخاصة بئر الهمل وام قبيبة وام التلال ونشرت النتائج في تقرير مختصر هو :

— Hennig, G.Y et Hours, F., 1982 « Dates pour Le Passage entre L' Acheuléen et Le Paléolithique Moyen à el Kowm (Syrie)» **Paléorient.** 8/1,81-83/ .

(٢٩) — Hours , F ., 1982 « Une nouvelle industrie en Syrie entre L'Acheuléen Superieur et le levalloise - moustérien , Archéologie au levant » **Recueil R. Saidah** 33-46, Lyon, Maison, de L'Orient.

(٣٠) فيما يخص التنوع في اثار الباليوليت يسود الان رايان الاول يمثله الاثاريون وعلى راسهم الفرنسي فرانسوا بورد F.Bordes الذي يعتبر ان تنوع المواقع والاثار يدل على تنوع الجماعات البشرية وتنوع التقاليد والثقافات ، والراي الذي يمثله الانتروبولوجيون وهو يرد هذا التنوع الى اختلاف طبيعة النشاط الاقتصادي للناس حسب المناطق والفصول : انظر :

— Hours, F., 1982, **Les Civilisations du Paleolithique** , Que Sais-je, Paris .

(٣١) هناك دلائل من خارج قطرنا (فرنسا واسبانيا) على ان النياندرتال عرف لاول مـرة المعتقدات والشعائر الدينية فعبد الدب (الجماجم بخاصة) ودفن موتاه في قبور منتظمة ، وعرف طقوس اكل اللحم البشري (الدماغ) . انظر :

— Leroi - Gouhran, A., 1964, Les Religions de La Préhistoire, Paris

(٣٢) نسبـة الى مواقـع Levallois بفرنسا . وتعتمد التقنيـة اللفلوازيـة علـى اختيار نواة بيضوية ورقيقة غالبا ، وتحضيرها بشكل جيد قبل طرق شظية واحدة منها ، امـا التقنية الموستيرية فهي تستخدم نفس النواة ولكن تستخرج منها اكثر من شظية . وقد استخدمت هاتان التقنيتان من قبل انسان النياندرتال بشكل واسع في الباليوليت الاوسط .

(٣٣) لقد طبقت طرق التاريخ بالفحم المشع في جرف العجلة واعطت تاريخا هو حوالي ٤٣,٠٠٠ سنة ق.م . للطبقة التي تعود الى نهاية الباليوليت الاوسط . كما ارخت السويات الدنيا في كهف الدوارة في حوالي ٧٥,٠٠٠ سنة . حول جرف العجلة يمكن الرجوع الى :

— Coon, Ch., 1957, The Seven Caves, New York.

— Shroeder, B.,1966 , « The Lithic Material from jerf Ajle » A.A.A.S, 16(2)200-210.

واما كهف الدوارة فلقد نشرت في المرجع التالي :

— Hanihara, K. et T. Akazawa . (edi) 1978, Palaeolithic Site of The Douara Cave and The Palaeogeography of Palmyra Basin in Syria Pant 1 1 ; Préhistoric Occurence and chronology in Palmyra Basin) University Museum, Bulletin of The University of Tokyo. 16. Tokyo.

(٣٤) — Copeland , L., 1981 « Chronology and Distribution of the Middle Palaeolithic as Known in 1980, in lebanon and Syria » Colloque Préhistoire du levant, 239 - 263 . C.N.R.S.Paris.

(٣٥) ان موضوع اختفاء النياندرتال ، من اوربة خاصة ، وظهور الانسان العاقل في الشرق الاوسط ، من الامور التي تواجه الباحثين بتعقيداتها وغموضها . ومهما يكن فانه من الواضح الان انالنياندرتال الفلسطيني كان الوحيد الذي تابع تطوره الفيزيولوجي والحضاري نحو الانسان العاقل ، رغم ان هذا الواقع لا يروق للبعض من ذوي الخلفيات العنصرية المرفوضة .

(٣٦) يعتقد ان حضارات الباليوليت الاعلى السوري واللبناني قد اختلفت عن حضارات الباليوليت الاعلى الفلسطيني الذي تميز بكثافة مواقعه . وتعتبر هذه المرحلة من عصور ما قبل التاريـخ السوري المرحلة الاكثر غموضا الان . ونامل ان توضح الدراسات في المستقبل اصل حضارات هذا العصر ، ومن ثم كيفية انتقالها الى العصر الذي تلاه .

(٣٧) حتى منتصف القرن الحالي اعتبرت الشعوب البدائية الحالية التي لا زالت تعيشـس في اسيا وافريقيا وامريكا كالبوشمن والاسكيمو والهنود الحمر ، موضوعا للمقارنة مع مجتمعات ما قبـل التاريخ . ولكن بدا يتضح تدريجيا ان مثل هذا القياس الميكانيكي ليس صحيحا دائما ولا بد من

تطبيق مناهج اخرى مختلفة سعيا وراء معرفة الواقع الحقيقي لمجتمعات ما قبل التاريخ التي قد تكون لها تنظيمات ومعتقدات ومفاهيم مختلفة عن تلك التي نعرفها لدى الشعوب البدائية المعاصرة رغم تقارب المستوى الاقتصادي والاجتماعي بينها .

(٣٨) تجري دراسات منوعة لمراكز النطق في الدماغ والفكين ، في الهياكل العظمية العائدة للباليوليت لتحديد درجة تطور لغة ذلك العصر ، ورغم صعوبة التحقق من هذا الامر فهناك مؤشرات على معرفة النطق منذ بداية العصر الحجري القديم دون ان نستطيع تحديد درجة غنى او فقر اللغة ، او اللغات الاولى لذلك الانسان .

(٣٩) نسبة الى موقع مادلين Madeleine في جنوب فرنسا ، وقد عاشت بين ١٥-١٠ الاف سنة ق.م واشتهرت بفنونها الرائعة .

(٤٠) انظر كتاب جاك كوفان عن نشوء القرى الاولى في سوريه وفلسطين في المرجع التالي :
J. Cauvin, 1978, **Les Premiers villages de Syrie - Palestine de IXme au VIIme millenaire av.J.C.**, Lyon.

(٤١) نسبة الى مغارة الكبارة على الساحل الفلسطيني (جبال الكرمل) وهي ثقافة ميزوليتية انتشرت على مساحة واسعة من فلسطين جنوبا وحتى الفرات شمالا وتميزت بالبناء والفنون الاولى خاصة .

(٤٢) نسبة الى وادي النطوف في فلسطين . تميزت الحضارة النطوفية بابتكارات جديدة : البناء ،الفن الادوات الزراعية ، الادوات العظمية ، المقابر .. الخ وقد مر زمن اقتصر فيه وجود هذه الابتكارات على فلسطين مما جعل البعض يعتقد ان النطوفي هو حضارة فلسطينية بحتة ، ولكن المكتشفات الاخيرة من المريبط وابو هريرة في حوض الفرات السوري اثبت ان النطوفين قد عاشوا في سورية ايضا ، وقد انتشر هؤلاء على منطقة واسعة امتدت من دلتا النيل في الغرب وحتى الفرات في الشرق . وما استمرار البعض في رفض الاعتراف بالنطوفي خارج فلسطين الا تعصب وعنصرية لاتقرهما الاوساط العلمية .وقد وصف جاك كوفان موقف هؤلاء بالعنصرية الثقافية. انظر المرجع رقم ٤٠ ص ١١ .

(٤٣) يميز الباحثون وعلى راسهم الامريكي ألمان سرفيس E. Service اربع مراحل اجتماعية ، تطورية المرحلة الاولى ، الجماعة Band وهي تمثل العلاقات الاجتماعية في عصر الصيد واللقط اي الباليوليت ، وجزئيا الميزوليت ، تلتها مرحلة القبيلة Tribe التي تميز مجتمعات الزراعة في العصر الحجري الحديث ، ثم مرحلة الرئاسة Chiefdom التي عرفتها المجتمعات الزراعية المتطورة ، واخيرا مرحلة الدولة State التي نشات مع المجتمعات التاريخية الباكرة في الالف الثالث ق.م . (عصر البرونز القديم) انظر :
— Redman, Ch., L., 1948, **The Rise of Civlization from Early Farmers to Urban Society in The Ancient Near East**, San Francico.

(٤٤) يقسم الباحثون العصر الحجري الحديث (النيوليت) في الشرق الاوسط الى قسمين لكل منهما ميزاته ، الاول النيوليت ما قبل الفخار Pre - Pottery Neolithic ويرمز له P.P.N. وهو بدوره قسمان : ما قبل الفخار ٢ P.P.N.A ويؤرخ من نحو ٨٣٠٠ – ٧٦٠٠ ق.م . يليه ما قبل الفخار ب P.P.N.B ويؤرخ على ٧٦٠٠ – ٦٠٠٠ سنة ق.م . واما القسم الثاني فهو النيوليت Pottery Neolithic ويؤرخ من نحو ٦٠٠٠ – ٤٠٠٠ سنة ق.م تقريبا .

(٤٥) تعتبر الزراعة من اهم ابتكارات انسان النيوليت التي احدثت تحولا جذريا في الواقع الاجتماعي-الاقتصادي حتى أن البعض G,Childe يسمي هذا العصر بالثورة النيوليتية Neolithic Revolution ويشبهها بالثورة الصناعية الحديثة . وتختلف الاراء حول اسباب وعوامل نشوء الزراعة فمنهم من يرد ذلك الى التحسن المناخي الذي ساعد على ظهور الحبوب البرية وبالتالي دفع الانسان الى زراعة هذه الحبوب بعد ان توصل الى تقنيات متطورة R. Braidwood، في حين يعتقد البعض الاخر (بينفورد) ان الزراعة قد نشأت بفعل الضغط السكاني على اطراف المناطق الخصبة التي نمت فيها الحبوب البرية ، ويعالج السيد جاك كوفان هذه القضية على ضوء اكتشافاته في حوض الفرات بسورية في بحث متكامل ، وهو رغم اعترافه باهمية دور البيئة فانه يرد نشوء الزراعة الى عوامل اجتماعية - فكرية دفعت الناس الى تنظيم اقتصادهم بشكل افضل : المراجع رقم ٤٠و ٤٣ اضافة الى التالي:

— Childe , V.G., 1952, **New Light On The Most Ancient East**, New York .

— Mellart, J., 1975, **The Néolithic of The Middle East**, London.

(٤٦) — Cauvin, J., 1972, **Religions néolithiques de Syrie - Palestine**, Paris

(٤٧) — Akkermans,P.A. et Fokken, H.,Waterbolk, H.T.1981, Stratygraphy, Archtecture and Lay-out of Bougras » colloque **Préhistore du Levant**, 485 - 501 , C.N.R.S. Panis.

(٤٨) هي ما تسمى بالاواني البيضاء ، Vaisselles Blanches التي صنعت من الحوار او الحجر الكلسي الابيض بعد حرقه ومزجه وقد سبقت الاواني الفخارية بحوالي قرنين من الزمن ، وعثر عليها في العديد من القرى النيوليتية السورية والفلسطينية .

(٤٩) عثر في السوية الثالثة من المريبط المؤرخة على النصف الاول من الالف الثامن ق.م. على بضع اوان فخارية صغيرة وهي تمثل اقدم فخار عرف في منطقتنا حتى الان لكن هذا الابتكار (الطفرة)لم يستمر لاسباب نجهلها ولم تعاود المنطقة تصنيع الفخار الا في مطلع الالف السادس ق.م.

(٥٠) منذ الثلاثينات من هذا القرن قام المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بادارة روبرت بريدوود بدراسة شاملة لمنطقة سهل العمق وتم تتبع تطور تصنيع الاواني الفخارية بدءا من العصر الحجري الحديث وحتى العصور التاريخية البيزنطية عبر مواقع عديدة أهمها تل الجديدة ، وتل عطشانة وتل طورلو وتل كردو ، وغيرها ، واصبح التطور الستراتغرافي لفخار العمق النموذج الذي يقاس عليه فخار بقية المناطق حتى الان . وقد نشرت عدة دراسات من هذا الموضوع اكثرها تكاملا هي:

The Excavation in the plain of Antioch

من منشورات جامعة شيكاغوا المعهد الشرقي العدد ٦١ عام ١٩٦٠. تاليف روبرت وليندابريدوود.

(٥١) نسبة الى موقع تل حلف في الجزيرة السورية العليا قرب راس العين حيث نقب الالماني ماكس فون اوبنهايم Max Von Oppenheim منذ مطلع القرن الحالي وكشف السويات الحلفية العائدة للالفين السادس والخامس ق.م . تحت انقاض مملكة جوزن الارامية التي قامت في هذه المنطقة في بداية الالف الاول ق.م .

(٥٢) يعاصر الفخار الحلفي السوري فخار العمق (المرحلة د.س) المعروف من غرب سورية .

(٥٣) اطلق على هذا النوع الاسم اليوناني tholos وهي بيوت تشبه خلايا النحل ،وجدت نماذجها في جزر بحر ايجة في الالف الثاني ق.م ، واما النوع الذي يعود للحضارة الحلفية فقد عثر عليه في مواقع العربجية في العراق وتل يونس وتل طورلو في سورية . وهناك جدال حول طبيعة هذه البيوت اذ يعتقد البعض انها كانت معابد تمارس فيها الشعائر الدينية ، في حين يرى

(٥٤) فيها اخرون بيوتا للسكن .

Mallowan, M.E. 1956, **Twenty five years of Mesopotamian discovery,** The British school of Archaeology in Iraq .

(٥٥) نسبة الى موقع تل العبيد في جنوب العراق الذي نقب فيه الانكليزي ليونارد وولي في الربع الاول من هذا القرن.

(٥٦) نسبة الى موقع تليلات الغسول في وادي نهر الاردن الذي نقب على فترات متقطعة منذ الثلاثينات من هذا القرن واعطى احد اغنى نماذج الحضارات الكالكوليتية في بلاد الشام ، انظر :

Perrot, J., 1968, **Préhistoire Palestinienne,** Supplément au Dictionnaire de Bible , Paris.

(٥٧) لهذا العصر تسميات مختلفة مثل : عصر الوركاء ، او فجر التاريخ ، او فجر الكتابة او عصر ما قبل العمران Proto - History, Proto-Literate, Proto - Urban ومهما يكن فهو العصر الانتقالي المباشر بين عصور ما قبل التاريخ وبين العصور التاريخية القديمة ..

(٥٨) ادت الحملة الدولية وعملية المسح والتنقيب في حوض الفرات بين ١٩٦٢-١٩٧٢ الى اكتشاف ٥٦ موقعا اثريا من مختلف العصور مهددة بالغمر ، جرت في ٢٢ موقع منها تنقيبات انقاذ بمشاركة بعثات وطنية واجنبية مختلفة ، اعطت نتائج بالغة الاهمية تتعلق بتاريخ وحضارة سورية القديمة .وقد تضمن معرض الاثار السورية المتجول نماذج هامة من اثار حملة الانقاذ وقد صدر عن هذا المعرض حتى الان اربعة كتب (دليل) ترجم منها الدليل الالماني الى اللغة العربية من قبل الدكتور نايف بلوز ونشرته مؤسسة البريد الدولي للصحافة والنشر في فيينا ١٩٨٥ .

(٥٩) — Strommenger, E., 1980,**Habira Kabira, Eine Stad vor 5000 yahren,** Mainz am Rhein.

(٦٠) — Finet, A., 1988, « Bilan Provisoire des fouilles belges de Tell Kannas » **A.A.S.O.R.** 44 .

(٦١) حتى زمن قريب كان يعتقد بوجود مركز واحد انتشرت منه الكتابة التصويرية هو الوركاء (السوية الرابعة ب) في جنوب العراق ولكن بعد اكتشافات تل براك وتل قناص وعروده اتضح ان سورية ايضا قد عرفت الكتابة الاولى في زمن يعاصر كتابة الوركاء وربما اقدم . انظر دليل الاثار السورية (المرجع رقم ٥٨) والمرجع التالي :

eurtis , J., (ed) 1982, **Fifty Years of Mesopotamian Discovery,** pp. 62-71, British school of Archaeology in Iraq, London.

(٦٢) سمي اصطلاحا بمعبد العيون بسبب العثور فيه على مئات الدمى الصغيرة ذات العيون الجاحظة ويعود هذا المعبد الى زمن احدث نسبيا من معابد الفرات الاوسط ، وهو عصر جمدة نصر ، اي نحو مطلع الالف الثالث ق.م. انظر :

— Mallowan, M. E. L., 1947, « Excavation at Brak and Chagar Bazar » Iraq, 9,pp. 1-2 66.

(٦٢) يؤرخ الارشيف الملكي في ابلا بين ٢٣٥٠ – ٢٢٥٠ ق.م . وهي مرحلة ازدهار مملكة ابلا المسماة تل مرديخ ٢ ب (TM II B)

Abbreviations :

— A.A.A.S : Annales Archéologiques Arabes Syriennes .

مجلة سنوية تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق .

— A.A.S.O.R : The Annual of The American School of The Oriental Research (U ew Haven) .

تنويـه :

وقعت بعض اخطاء في طباعة جداول الاحصاءات العائدة لبحث «البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى» والصواب كما يلي :

الصفحة	السطر	الحقل (من الجداول)	الخطا	الصواب
١٧	٢	٦	٢١ر٧	١٢ر٧
٢٠	٤	٦	٤٣ر٢٠	٣٤ر٢٠
٢٢	٧	٤	٣٨ر٢١	٢٧ر٣١
٢٣	٣	٦	٢٢ر٢٣	٢٢ر٣٣
٢٣	٦	٤	١١ر٨	٠٩ر٤٠
٢٤	١	٤	٤٠ر١٠	٤٢ر١٠
٢٥	٣	٤	٧٨ر١٨	٧٨ر١٧
٢٥	٤	٢	٤٣ر٣	٣٣ر٣٣
٢٥	٦	كل الحقول :		

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
١٢	٠٠ر١٠٠	١٣٥	٠٠ر١٠٠	١٧٠.٢٨	٠٠ر١٠٠

٣٥	٦	٥	٦٩ر١١٤	٧٤ر١١٤

٤٨ السطر الذي يبدأ بكلمة الوسطاني في العينة الخامسة زائد .

٤٨ السطر قبل الاخير : الخطأ : الثالثة والرابعة ، الصواب ، الرابعة والخامسة

٥٨ الحاشية ١٠ ، Thaumin ، الصواب Thoumin

٦٢ الحاشية ٩٨ ، السطر ١١ صوابه كما يلي : العثمانية بموجب العلم والخبر من بطريق خاتة الكتلوك المحفوظ بالمجلس (أي مجلس محكمة
السطر ١٣ من الحاشية : فاضي ، الصواب قاضي

حركة تدوين الانساب
في العصر العباسي الأول

مريم محمد خير الدرع
مرشحة للماجستير

نشطت في العصر العباسي الاول حركة التدوين عند المسلمين وازدهرت ، وذلك لاسباب عديدة ، منها ان الاسلام منذ البداية حض المسلمين على العلم ودفعهم الى البحث عن المعرفة ، فتعمق حب التعلم لديهم ونمت الرغبة العلمية في نفوسهم ، فاصبح حرص الافراد شديدا على معرفة تاريخ امتهم وامجادها وسير ابطالها والوقوف على أخبارها ، بالاضافة الى اهتمامهم بما لدى الامم التي فتحوا بلادها من ثقافات متباينة نقلوها عن طريق ترجمة مؤلفات الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها. ونشأت طائفة من العلماء والادباء الذين نوعوا معارفهم تنويعا واسعا ونهلوا من مختلف الوان المعرفة ، وانتشرت حلقات العلم في المساجد الموزعة وبكثرة في اصقاع(١) بلاد الاسلام المختلفة ، وأصبح مبدأ الرحلة في طلب العلم أمرا لازما وواجبا لكل طالب آنذاك .

وكان لتشجيع الخلفاء والوزراء ورعايتهم العلماء والانعام عليهم بالعطايا والهدايا، الاثر الكبير ايضا في تقدم حركة التاليف والتصنيف . فمثلا ، كان الخليفة المهدي مقصد العلماء يشدون اليه الرحال من كل بلدة(٢) ، وذكر من تكريم الخليفة هارون الرشيد العلماء انه وصل الاصمعي بخمسمائة الف درهم(٣) ، والخليفة المأمون كان كالغيث المنهمر على أهل العلم اذ قيل انه اعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميرا بمرو خمسين ألف درهم ، وكان كل من يترجم كتابا في عهده يأخذ وزنه ذهبا(٤) .

ولم يكن هذا حال الخلفاء وحدهم بل نافسهم في ذلك الوزراء كالبرامكة الذين بالغوا في رعاية العلماء والانفاق عليهم ، فقد روي ان جعفر البرمكي وصل الاصمعي ايضا بخمسمائة ألف درهم(٥) ، وكذلك كان حال القواد ، فقد وصل طاهر بن الحسين القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين الفا ، وأجرى عليه ابنه عبد الله بن طاهر عشرة آلاف درهم كل شهر(٦) .

ولم يقتصر تشجيع الخلفاء والحكام للعلماء على العطايا بل اهتموا ايضا بانشاء المكتبات ودور العلم وأمنوا لوازم كل من يؤمها(٧) .. وكان لاستخدام الورق – الذي بدأ ينتشر بشكل واسع بعد ان انشىء له مصنع في بغداد بعهد هارون الرشيد – الاثر الكبير والمساعد على اتساع حركة التدوين ، فقد كان الناس قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة من ورق البردي في مصر(٨) .

وشجعت كل هذه العوامل وساعدت على وضع اسس التصنيف والتاليف لكل علم من العلوم ففي « هذا العصر وضعت في اللغة العربية اسس كل العلوم – تقريبا – فقل أن نرى علما اسلاميا نشأ بعد ولم يكن قد وضع اساس له في العصر العباسي ، فقد وضع تفسير القرآن وجمع الحديث ووضعت علومه ، ووضع علم النحو وألف فيه سيبويه كتابه الخالد ، ووضعت كتب اللغة ورسم خطها الخليل بن احمد ، كما وضع العروض ، ودونت اشعار العرب في المعلقات التي دونها حماد الرواية والمفضليات التي دونها المفضل الضبي، والاصمعيات التي دونها الاصمعي ، ووضع الجاحظ اساس الكتب الادبية ، وحذا حذوه ابن قتيبة والمبرد وغيرهما ،ودون الفقه على يد الائمة وتلاميذهم ، ودون السيرة ابن اسحق ، والتاريخ الواقدي وامثالهما .. » (٩) .

الا ان حركة التدوين هذه التي ازدهرت في ذلك العصر لم تكن وليدة الصدفة او نتيجة ظروف غير طبيعية ، وانما كانت المرحلة الاخيرة من المراحل التي مر بها التدوين عبر مسيرته الزمنية الطويلة التي انتقلت فيها مادة كل علم من الرواية الشفوية الى التدوين المبسط وغير المرتب في مواضيع متفرقة ، الى مرحلة التصنيف المرتب الجامع الشامل لما سبق أن روي ودون ، وكل هذه العلوم الاسلامية التي أعطت في العصر العباسي الاول بواكير انتاجها الثقافي ،وعلم الانساب واحد منها ،مرت بمراحل ثلاث :

– مرحلة الرواية الشفوية والتدوين البدائي الذي كان بدافع من اهتمام شخصي وضرورة اجتماعية ، واتسم بطابع العفوية والفضول العلمي . وقد امتدت حتى مطلع القرن الثاني الهجري(١٠) ، فدونت بعض الانساب اتفاقا من أفواه رواتها وبأقلام من اهتموا بها من هذه القبيلة او تلك كما فعل الفقعسي الذي كتب مآثر بني أسد (١١).

والى تلك الفترة تعود المحاولات الاولى للانتقال بعلم الانساب من حالة الرواية الشفوية الى المعرفة الكتابية ، وبروز الصحف والمدونات التي سجلت لمساعدة الذاكرة .

ثم تأتي المرحلة الثانية التي امتدت على القرن الثاني كله تقريبا وفيهاكان التدوين والاهتمام موجها الى جمع المادة من افواه الرواة وترتيب كل موضوع فيها على حدة في كتاب خاص يحمل عنوانا منفردا ، فكتب النسابون انساب القبائل كافة ولكن في كتب منفصلة ايضا وفي محاولة لاستقصائها جميعها وتدوينها(١٢) . ومن أهم هؤلاء محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ الذي قام بدراسات في الانساب والاخبار ؛ وتشير دراساته هذه الى محاولة لجمع الروايات القبلية معتمدا كما قال على افضل نسابة في كل قبيلة مصنفا انساب كل قبيلة على حدة . وبالرغم من ان ابنه هشاما قد كتب (النسب الكبير) جامعا فيه كل الانساب الا انه افرد داخل الكتاب مجموعة من الكتب للانساب مفردة مستفيدا مما جمعه والده من روايات في هذا المجال ، ومن هذه الكتب : نسب قريش ، ولد العباس ، نسب بني عبد شمس ، كتاب بني محارب وغيرها (١٣) .

وممن كتب على هذا النسق نفسه ابو اليقظان النسابة المتوفى ١٩٠ هـ وله كتاب اخبار تميم وكتاب خندف واخبارها(١٤) ، ولم يصلنا من اثاره الا مقتطفات في كتب تالية ولكنها تمثل مرحلة جمع الانساب من الروايات القبلية بالدرجة الاولى ، فابو اليقظان النسابة واحد من نسابي القرن الثاني الهجري الذي عنوا بانساب اكثر من قبيلة في فترة جمع الروايات . وكتب على الطريقة نفسها ايضا عبد الرحمن بن عبدة حيث نقرأ في ثبت كتبه كتاب نسب بني فقعس ، كتاب نسب كنانة ، اشراف بكر وتغلب ، نسب ولد ابي صفرة(١٥) .

اما المرحلة الثالثة للتدوين فكانت على اساس جمع المواد والموضوعات في كتاب واحد مع مراعاة وحدة التسلسل الزمني . ويعود ذلك الى تعمق مفهوم وحدة تاريخ البشرية من خلال سلسلة الانبياء ووحدة التاريخ الاسلامي في نفوس المؤلفين والمصنفين وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري(١٦) حيث استقرت وتوطدت حركة التدوين وتم وضع الاصول والقواعد الاساسية لتصنيف كل علم من العلوم وخاصة الانساب ، الذي بلغ غاية التطور والنضج على يد البلاذري المتوفى ٢٧٩ هـ في كتابه المعروف « أنساب الاشراف » .

وقد اورد الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » نصا هاما حدد فيه السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية والاسلامية بأنها سنة ١٤٣ هـ ، وقد نقل عنه ابن تغري بردي والسيوطي هذا النص واورداه في كتبهما ، اذ يقول : «في سنة ثلاث واربعين ومائة شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنف ابن

جريج بمكة ، ومالك بن انس الموطأ بالمدينة ، والاوزاعي بالشام ، وابن ابي عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن ، وسفيان بالكوفة ، وصنف ابن اسحق المغازي ، وصنف ابو حنيفة رحمه الله الفقه والراي . ثم بعد يسير صنف هشيم والليث بن سعد وابن لهيعة ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب .. وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وايام الناس . وقبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »(١٧) .. ولدى مطالعة هذا النص نستخلص منه أمورا هامة وحقائق عديدة تتعلق بنشاة العلوم الاسلامية وأول هذه الامور هو تعيين أواسط القرن الثاني الهجري وبالتحديد ١٤٣ هـ كبداية للانتقال من مرحلة التسجيل « غير المرتب » للعلوم الى مرحلة التصنيف المبوب والمتخصص لكل فرع من العلوم الاسلامية ، وازدهار حركة التدوين في مختلف البقاع الاسلامية في آن واحد .

ونستنتج ايضا امرين هامين اولهما التاكيد على أن تدوين وتسجيل العلوم كان موجودا ومعروفا قبل هذا التاريخ في قوله « قبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم او يروون العلم من صحف غير مرتبة » . وهذا ما يؤكد على ان التدوين والتصنيف لم يبدأ في العصر العباسي حسبما ظن بعض الدارسين الذين هدفوا الى جعل قضية الثقافة والتأليف عند العرب كأنها فرع من الثقافة الفارسية وليست عربية المنبع ، فالتدوين كان موجودا عند العرب منذ العهد الاسلامي الباكر ، فقد ورد ذكر اسماء لعدة مدونات كانت موجودة في الصدر الاول للاسلام(١٨) . الا ان عامل الضياع الذي تعرضت له الكتب التي دونت في هذا العصر المبكر ساعد على جعل صورة التدوين الاولى عند العرب غير واضحة المعالم لكنها ثابتة في الاصول التي وصلت الينا ، فهي تحوي العديد من النصوص المنقولة عن المدونين الاوائل ، ولكن ذلك بقي في نطاق محدود ، وموجة التأليف التي تقدمت في عهد العباسيين لم تكن الا الحصاد لما بذر سابقا والثمار لغراس ثابتة الجذور ، وهذه سنة النشوء يبدأ الشيء صغيرا ثم يتدرج مع الايام نموا ، وكلما مرت الايام كانت خطوات التقدم أوسع من ذي قبل .

أما الامر الثاني الهام الذي نستنتجه من نص الذهبي فهو انه لم يذكر علم الانساب كعلم مستقل في موضوعه بين العلوم التي ذكرها كالحديث والفقه والتفسير والعربية والتاريخ وأيام الناس مما يدل على أن علم الانساب ، حتى ذلك التاريخ ، كان مرتبطا بعلوم اخرى بصلة وثيقة مثل علم السيرة والمغازي ، اذ نلاحظ لدى مراجعة الكتب التي صنفت في موضوعها أنه ما من كتاب الف في هذا المجال الا وكان فيه فصل خاص للحديث عن أنساب القبائل العربية وخاصة قريش وبالتحديد بني هاشم ، اذ اليهم يرجع نسب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(١٩) . وارتبط علم النسب ايضا ارتباطا وثيقا بكتابة التاريخ وايام الناس والاخبار ، وغالبا ما كان

النسابة يعرف بانه عالم بالاخبار وايام العرب والاشعارمثل الشرقي بن القطامي ودغفل السدوسي الذهلي وزهير بن ميمون القرقبي، وكثيرا ما كان الاخباري يوصف بالنسابة مثل عوانة بن الحكم والمدائني ، ونلاحظ اقتران الانساب بالاخبار كذلك في اسماء الكتب التي ورد ذكرها في المصادر ، فقد ذكر النديم لخراش بن اسماعيل الشيباني شيخ محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ عنوانه « كتاب اخبار ربيعة وانسابها »(٢٠) وكتاب « نسب خندف واخبارها لابي اليقظان النسابة »(٢١) وايضا « كتاب الاخبار والانساب والسير » لابي العباس بن سلام المكاولي(٢٢) ، وكتاب « الانساب والاخبار » لابي الحسن النسابة(٢٣) .

وربما كان الطابع المزدوج لهذه الكتب السبب الرئيسي الذي دفع اسحق الموصلي الى ان يصف « كتاب الانساب » الذي الفه صديقه الزبير بن بكار بانه « كتاب الاخبار »(٢٤) . ونلاحظ ايضا أن الكتب التي تحدثت عن اخبار اليمن ذكرت الى جانبها انساب القبائل فيها ، مثل الكتب التي دونت عن روايات عبيد بن شرية الجرهمي ووهب بن منبه ودغفل النسابة . وبناء على ذلك نجد ان علم الانساب قد تأثر تأثيرا كبيرا بالمدارس التاريخية التي برزت آنذاك ، وباتجاهات كل منها ، لذلك يتوجب علينا ان نتابع اثر كل مدرسة من هذه المدارس في علم الانساب وتطوره مثل مدرسة المدينة والشام ومدرسة العراق ومدرسة اليمن .

مدرسة المدينة والشام :

لما كانت المدينة المركز الجغرافي الهام في عصر الرسالة منها انتشر الاسلام وفيها توطن الرسول والصحابة الكبار ، فقد اختصت عاصمة الرسول والخلفاء الراشدين بجمع احاديث الرسول والكتابة في المغازي والسير ونشأت فيها مدرسة قوية الاركان عملها رواية وتسجيل كل ما يتعلق بذلك من أحداث . وعندما انتقلت الخلافة مع بني امية الى الشام استقدم الخلفاء العارفين بأمر السيرة وأحداثها والفتوح وأخبارها، والقبائل وعلاقاتها وانسابها وأخبار العرب في الجاهلية ، فتجمع في الشام من يروي للامويين كل ذلك ، وكانت مدرسة الشام وسطا في هذه المواد بين المدرستين المدنية والعراقية ، اذ اهتمت بعدة موضوعات ولم تتوقف عند جزء منها كالسيرة والمغازي فقط ، أو التاريخ الجاهلي ، او الانساب ، بل اهتمت بكل هذه المواد معا(٢٥) .

أول من يمثل هذه المدرسة **الامام الزهري** (ت ١٢٤ هـ) وكانت له منزلته الكبيرة كمحدث وفقيه ومؤرخ ، وقد لخص الطبري دور الزهري كعالم بقوله : « كان محمد بن مسلم الزهري مقدما في العلم بمغازي رسول الله (ص) وأخبار قريش والانصار ، راوية لاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم »(٢٦) . ولم يصل الينا من « مغازي » الزهري الا مقتطفات جمعت في كتاب « المغازي النبوية »وهو يحوي اخبارا متفرقة عن سيرة الرسول (ص) ومغازيه ، بالاضافة لبعض اخبار الخلفاء

الراشدين (٢٧) . كما وردت ايضا قطع منه في سيرة ابن اسحق والواقدي والطبري والبلاذري وابن سيد الناس .

كان الزهري اول من اعطى اطارا واضحا للسيرة ورسم خطوطها بجلاء واقترنت تلك الخطة بذكر نسب الرسول (ص) في بداية الحديث عن السيرة النبوية دائما ، وعلى هذا المنهج سار ابن اسحق وابن هشام وغيرهما ممن كتب في السيرة .

ولم يكن الزهري محدثا وفقيها ومؤرخا فقط بل كان عالما بالانساب أيضا(٢٨). وقد سأله خالد القسري ان يكتب انساب العرب فبدأ بانساب مضر ولكنه لم يتم ذلك(٢٩) . واخذ عنه مصعب الزبيري في كتابه « نسب قريش »(٣٠) ، وهذا يعزز قول قره بن عبدالرحمن بأنه كتب كتابا في نسب قومه (أي قريش) (٣١).

واذا كان الزهري قد أجاد في مجال التصنيف بالانساب فهذا ليس بغريب ، فقد انصرف في مطلع حياته العلمية الى دراسة الانساب ، ولنستمع اليه يحدثنا عن ذلك بقوله : « نشأت وانا غلام لا مال لي ، منقطعا في الديوان وكنت أتعلم نسب قومي من عبد اللهبنثعلبة بن صغير العدوي ، وكان عالما بنسب قومي»(٣٢) وتابع الزهري تحصيله العلمي للانساب شأنه في ذلك شأن كل عالم وفقيه في ذلك العصر . وكان من ابرز تلاميذه الذي قرن السيرة بالانساب أيضا ابن اسحق المتوفى ١٥١ هـ الذي وسع حدود العلم الاول من أهل الكتاب ، ولم يدقق كثيرا في مصادر الاخبار والانساب . لذلك قال عنه ياقوت الحموي انه اخطأ في كثير من النسب الذي اورده في كتابه(٣٣) .

ومن علماء هذه المدرسة أيضا **الضحاك بن عثمان بن الضحاك القرشي** ، علامة المدينة المنورة المتضلع بأخبار العرب وأيامها وأنسابها . كان من اصحاب مالك عينه هارون الرشيد واليا على المدينة وتوفي بمكة ١٨٠ هـ ، لا تعرف اسماء كتبه ولكن توجد نقولعنه في كتب الواقدي والطبري وابن سعد وفي كتاب الاغاني ايضا(٣٤) .

ابو البختري (ت ٢٠٠ هـ) ، وهو ابو البختري وهب بن وهب بن كبير ، قرشي ولد في المدينة كان محدثا ضعيفا لكنه كان من العالمين بالانساب والاخبار ، تولى قضاء المدينة في عهد الخليفة هارون الرشيد (٣٥) ، وذكر له صاحب الفهرست الكتبالتالية:

كتاب صفة النبي ، كتاب فضائل الانصار ، كتاب الفضائل الكبير ، كتاب نسب ولد اسماعيل ، كتاب طسم وجديس ، كتاب الرايات(٣٦) .

العقيقي (ت ٢٧٧ هـ) ، وهو ابو الحسن يحيى بن الحسن بن جعفر الحجة

العقيقي ، أصله من المدينة ومولده بها ٢١٤هـ ، الف عددا من الكتب منها : كتاب اخبار المدينة وكتاب نسب آل ابي طالب ... وقد افاد الاصبهاني في كتابه مقاتل الطالبيين من كتاب العقيقي الاخيرة . وقد ذكر فؤاد سزكين اماكن وجود مخطوطات هذا الكتاب وما نقل منه(٣٧) .

مدرسة العراق :

من أشهر مراكزها الثقافية البصرة والكوفة اللتان تميزتا بدراسة الاحداث الاسلامية والانساب خاصة ، نتيجة لطبيعة الصراع الحزبي والاقليمي والقبلي والشعوبي الذي ساد في فترة صدر الاسلام . ففي القرن الثاني للهجرة نسمع بوجود شيوخ ورواة متضلعين بأنساب قبائلهم وماثرها ، وبوجود كتب تحوي أنسابا وشعرا واخبارا لبعض القبائل ، ومن المحتمل ان هذه الكتب كانت قد جمعت من قبل بعض الرواة ولكنها كانت تعتبر ملكا مشتركا للقبيلة فالشاعر الطرماح المتوفى ١٠٥ هـ يشير الى كتاب تميم ، وحماد الرواية المتوفى ١٥٦ هـ كانت لديه كتب قريش وثقيف(٣٨) وعن هؤلاء وامثالهم من الرواة ومن هذه الكتب توفرت مادة هامة افاد منها اخباريون ونسابون علماء خلفوا في منتصف القرن الثاني الهجري مؤلفات وثروة من الروايات المدونة. وكانت تلك الفترة فترة علماء روادفي مختلف الحقول وعلى الاخص في الانساب، اذ جمعت مواد عن الانساب العربية من رواة القبائل وممن كتبها بالدرجة الاولى حيث استعان هؤلاء العلماء بالكتابة لحفظ بعض انتاجهم . وفي هذه الفترة نرى تحول اهتمام النسابين من حدود القبيلة الواحدة في تصنيفهم الى القبائل العربية بشكل عام اذ اصبحت الامة لا القبيلة محور اهتمامهم ، فاتجهوا الى جمع روايات تتعلق بموضوع واحد ووضعوها بكتاب مفرد ، كما فعل النسابة محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ وابو اليقظان النسابة المتوفى ١٩٠هـ .

وقد خدم النسابون الدراسات التاريخية باعطاء الانساب مع بعض المعلومات عن حياة الشخصيات (كما عند مصعب الزبيري) وعن اهم الاحداث التاريخية التي شاركوا بها . وكانت الحاجات الاجتماعية والمنازعات القبلية والانقسامات السياسية بين القبائل والمناقشات والصراع الثقافي مع الشعوبية دافعا وحافزا للنسابين على زيادة الاهتمام بهذا العلم والتوسع في دراسته ، وانعكست كل هذه الامور على كتابات المؤلفين وانتاجهم، فنلاحظ مثلا شيئا من الميل العلويين لدى علي بن محمد المدائني(٣٩)، وميلا للشعوبية عند ابي عبيدة اللغوي(٤٠) الذي شارك في الكتابة عن مثالب العرب ، وميلا للتعصب للعرب عند خالد بن طليق والاصمعي والجهمي (٤١) وهكذا تنوعت كتب المؤلفين في موضوعاتها بين المفاخر والمآثر والفضائل وبين المثالب واخبار القبائل .

وفي مطلع القرن الثالث الهجري وصلت الانساب الى مرحلة ادت الى ظهور النسابين الكبار الذين رسموا في الكتب التي الفوها اطار دراسة شملت مختلف جوانب هذا العلم ، اذ تطور اتجاه دراسة الانساب الى اتجاه تاريخي ضمن اطار النسب كما في كتاب (نسب قريش) للزبيري المتوفى ٢٣٦ هـ ، الا ان هشام بن الكلبي قبله قد أوضح خطة الكتابة في هذا العلم واصوله وقواعده وكل النسابين الذين جاؤوا بعده ، وهم عيال عليه ، قد ساروا على منهجه نفسه . وكان هشام قد بدأ بكتابة انساب الانبياء وقبائل العرب الشمالية والجنوبية بفروعها قبل الاسلام وبعده ، فوضع سجلات نسب لامة بكاملها ، واتجه نحو الافادة من المصادر المكتوبة القديمة والمتداولة في عصره الى جانب الروايات الشفوية . وبذلك يكون هشام ووالده محمد بن السائب الكلبي مدرسة متخصصة في النسب قائمة بذاتها أرست قواعد هذا العلم واصوله واثرت في اجيال النسابين الذين جاؤوا فيما بعد ، فساروا على نهجها وقواعدها .

ومما سبق ذكره يمكن ان نستنتج عدة ملاحظات هامة عن واقع المدرسة العراقية ، اولها أن نوعا من النظرة الكلية كانت تحكم رجال هذه المدرسة ، فقد تجاوز النسابون في اهتمامهم القبيلة الواحدة الى مجموع القبائل(٤٢) ، واصبح محور اهتمام الاخباريين والرواة والنسابين اخبار وانساب الامة لا القبيلة ، وخلق ذلك نوعا بالشعور بالامة الواحدة افقيا ، واكد على استمرارية الوحدة الثقافية بين الماضي والحاضر .

وثانيها ان النسابين لم يقتصروا على رواية قطر معين او قبيلة معينة ، بل جمعوا كل ما وقع تحت ايديهم من معلومات شفوية وسجلات قديمة وكتب مدونة ، وسجلوا المعلومات بشكل مترابط مع التسلسل الزمني .

وثالثها أن النسابين قدموا معلومات تاريخية هامة مع الانساب التي دونوها ، وتوسعوا في معلوماتهم تحت ضغط التيار الشعوبي مما أعطى العصبية القبلية واشراف القبائل مادة هامة (٤٣) .

ومن أشهر النسابين في هذه المدرسة **خالد بن طليق** ، وهو اقدم علماء الانساب في العصر العباسي ، عينه الخليفة المهدي قاضيا على البصرة في عام ١٦٦ هـ . وذكر له النديم الكتب التالية : كتاب المآثر ، كتاب المتزوجات ، كتاب المنافرات ، كتاب البرهان(٤٤) .

ولم يصلنا شيء من هذه الكتب ولكن نقل الطبري عنه في تاريخه مرتين(٤٥) .

وابو اليقظان النسابة (١٩٠هـ) وكان مولى لبني تميم(٤٦) ، واشتهر بعلمه بالانساب والاخبار والمآثر والمثالب ويتميز بانه كان أول من ألف في الانساب عامة نقلاً

عن الروايات القبلية وله من الكتب « النسب الكبير » الذي يحتوي على نسب اياد ، وكنانة وأسد وابن خزيمة والهون بن خزيمة وهذيل بن مدركة وقريش بن طابخة ، وقيس عيلان وربيعة بن نزار وتيم بن مرة ، وله ايضا اخبار تميم وكتاب نسب خندف واخبارها(٤٧). وكل هذه الكتب ضاعت ولا يوجد منها الا مقتطفات متفرقة منقولة في كتب الاخرين الذين اخذوا عنه مثل المدائني والبلاذري وابن خياط والطبري وابن قتيبة(٤٨).

ولقيط المحاربي (ت ١٩٠ هـ) وهو ابو هلال لقيط بن بكير بن النضر المحاربي من اهل الكوفة ، كان عالما بانساب واخبار العرب واشعارها ذكر له النديم من كتبه كتاب النساء ، كتاب الحراب واللصوص . توجد مقتبسات عنه في كتاب الاغاني للاصفهاني وفي معجم الادباء لياقوت الحموي(٤٩) .

وعبد الرحمن بن عبدة : من النسابين الثقاة حسن المعرفة بالمآثر وأيام العرب الف على مثال ابن الكلبي كتاب « النسب الكبير » ويحوي انساب القبائل ، وله ايضا احد عشر كتابا اخر في الانساب المختلفة ذكرها النديم بالتفصيل ، وهي كتاب مختصر اسماء القبائل وكتاب الكافي في النسب وكتاب مناكح آل المهلب وكتاب نسب المهلب بن ابي صفرة وولده وكتاب معد بن عدنان وقحطان وكتاب مناقب قريش ، كتاب نسب بني فقعس بن طريف بن اسد بن خزيمة وكتاب ابي جعفر المنصور وكتاب اشراف بكر وتغلب وفرسانهم وايامهم وأحلافهم ومناقبهم(٥٠) .

ومؤرخ بن عمرو السدوسي (ت١٩٥هـ) ولد في البصرة وينتهي نسبه الى بني سدوس ابن شيبان ، من شيوخه الخليل بن احمد وابي زيد الانصاري(٥١) ، كان معاصرا لحماد بن سلمة والنضر بن شميل وسيبويه واليزيدي وغيرهم ، جمع بين اللغة والشعر والنحو والانساب والف الكتب في كل موضوع منها ، أما كتابه الشهير في النسب فهو « حذف من نسب قريش » والحذف يعني القطع من الطرف ، أراد فيه ان يتكلم عن نسب قريش من اطرافه فأوجز ولم يستوعبه كله مفصلا قال عنه ابن خلكان « اختصر نسب قريش في مجلد لطيف سماه حذف من نسب قريش » ويعتبر هذا الكتاب أقدم مؤلف وصل الينا عما صنف في الانساب عند العرب(٥٢) .

وعمارة بن القداح (ت ٢٠٠ هـ) : وهو ابو محمد عبد الله بن محمد بن عمارة بن القداح الانصاري النسابة ، اصله من المدينة ، استقر في بغداد وكان من كبار علماء النسب في عصره ، من تلاميذه مصعب الزبيري وابن سعد وعمر بن شبة ، ومن أشهر كتبه كتاب « نسب الانصار » ، نقل عنه ابن سعد في طبقاته ، وابن حجر في كتابه الاصابة والطبري في تاريخه(٥٣) .

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) وهو ابو المنذر هشام بن محمد

ابن السائب الكلبي ، كان عالما بانساب واخبار العرب وايامها ومثالبها ووقائعها ورث الاهتمام بتاريخ العرب القديم والانساب عن والده محمد الذي كان من علماء الكوفة المشهورين ، غزير العلم بالانساب يتلقاها عمن عرفها من أهلها كما ورد في قول النديم عنه انه اخذ نسب قريش عن ابي صالح وأخذه ابو صالح عن عقيل بن ابي طالب .وأخذ نسب كنده عن ابي الكناس الكندي ، وأخذ نسب معد بن عدنان عن النخار بن أوس العدواني . . الخ(٥٤) .

اعتمد هشام بالدرجة الاولى على ما الفه والده أو رواه في الانساب ، أما فيماكتبه عن تاريخ الفرس فقد اعتمد على الكتب المترجمة عن الفارسية على النحو الذي كان معروفا في عصره ، وعند كتابته عن تاريخ الامويين استخدم كتبا كثيرة منها ما الفه عوانة بن الحكم وكذلك استفاد من نقوش كنائس الحيرة للتعرف على تاريخ اللخميين(٥٥) ، وكان هذا المنهج غير المألوف في البحث آنذاك سببا في اثارة التهم وتوجيه المطاعن اليه من قبل معاصريه ، فاتهم بالوضع وقال فيه احمد بن حنبل « من يحدث عنه ؟ انما هو صاحب نسب وسمر ، ما ظننت ان احدا يحدث عنه »(٥٦) . وقال فيه صاحب الاغاني بعد ان نقل عنه أخبارا عن دريد بن الصمة « هذه الاخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها ، وفي اسفاره وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات وهذا من اكاذيب ابن الكلبي، وانما ذكرته على مافيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه »(٥٧) .

أما في مجال الانساب فكان عالما متخصصا لا يشق له غبار في ميدانه ومكانته كواسطة العقد بالنسبة للنسابين ، وكل الذين جلؤوا بعده عيال عليه ، ومؤلفاته خير دليل على مقدرته العظيمة ، وعندما ذكرها النديم قسمها الى أقسام حسب موضوعاتها : كتب في الاحلاف وكتب في المآثر والبيوتات والمفاخر ، والموءودات ، وكتب في أخبار الاوائل وكتب في اخبار البلدان ، وكتب في اخبار الشعراء وأيام العرب ، وفي الاخبار والاسمار ، وكتب في نسب اليمن وفي انساب اخرى ، وكتب في موضوعات شتى ، ويبلغ عدد الكتب التي عدها له مائة واربعين كتابا(٥٨) ، وصلنانقول عنها في كتب مشهورة مثل الطبري ، ومعجمي ياقوت الحموي ، وكتاب شرح الانباري للمفضليات وكتاب الاغاني والعقد الفريد وغيرها من الكتب التي اخذت عن مؤلفات ابي المنذر . اما كتبه التي وصلت الينا فهي : كتاب نسب فحول الخيل في الجاهلية ، وكتاب الاصنام اللذان طبعا في مصر . واشهر كتبه في النسب (الجمهرة) تم تحقيقه مؤخرا في دمشق من قبل محمود فردوس العظم ، ويعد مصدرا هاما للنسابين انذاك، ولا يزال هاما،وقد نقل عنه البلاذري اكثر مادته في كتابه عن الانساب(٥٩) ، وكان أيضا مصدرا للهمداني نسابة اليمن الشهير في كتابه « الاكليل » الا انه اعتبره ناقصا في انساب قبائل اليمن(٦٠)

وهناك من العلماء من لم يكتف بالنقل عنه بل تناول هذا الكتاب بالاختصار والتهذيب ، وقد ذكر سزكين في كتابه « تاريخ التراث العربي » هذه المختصرات : المقتضب في كتاب جمهرة النسب لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . ومختصر قال سزكين انه من تأليف المبارك بن ابي بكر بن احمد ابن الشعار الموصلي المتوفى ٦٥٤ هـ . ومختصر اعده مجهول في مكتبة جامعة برنستون (٢٤٨٨) أعاد كاسكل ترتيبه وقدم له وعلق عليه وسماه جمهرة النسب(٦١) ..

وذكر بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » ان الجزء الاول من هذا الكتاب موجود في المتحف البريطاني وذكر ان كرنكو قال : ان هذه النسخة هي من تأليف ابن الكلبي بتنقيح محمد بن حبيب مع زيادات له(٦٢) .

وللفقيه اللغوي القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ ، كتاب في النسب اعتمد فيه أيضا على مؤلف هشام بن الكلبي ، لا بل تناوله بالتلخيص والاختصار والتهذيب ، فقد جاء على الصفحة الاولى من مخطوطة كتابه مايلي : « قال ابو سعيد : دفع الينا ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد السكري كتابا ذكر انه أصل علي بن عبد العزيز البغوي ، وخطيده ، فنظرنا فيه فاذا هو جمهرة الانساب لهشام بن محمد الكلبي ، واذا على ظهره بخط علي بن عبد العزيز : كتاب النسب ، وذكر من فيالجماهر من تسمية الصحابة والتابعين والشعراء في الجاهلية مما الفهابو عبيد القاسم بنسلام، وعرضه عليه : علي بن المغيرة ابو الحسن الاثرم ونسخته من نسخة الاثرم فنسب تأليف هذا الكتاب الى ابي عبيد »(٦٣) . وكتاب جمهرة النسب لهشام في الانساب هو نفسه كتاب « النسب الكبير(٦٤) »الذي ذكره النديم ويحتوي على نسب مضر ، كنانة ابن خزيمة ، أسد بن خزيمة ، هذيل بن زيد ، مناة بن تيم ، تيم الرباب عكل، عدى ، ثور ، أطحل ، مزنية ضبه ، قيس عيلان ، غطفان ، باهلة ، غنى ، سليم ، عامر بن صعصعة ، مرة بن صعصعة ، الحارث بن ربيعة ؛ نضر بن معاوية ، سعد بن بكر ، ثقيف ، محارب بن خصفه ، فهم ، عدوان ربيعة بن عامر ، اياد ، عك وعكي ، ثم يعدد قبائل اليمن قبيلة قبيلة الى ان ينتهي الى جهينة وفهد ابن زيد(٦٥) .

كما أورد في النسب الكبير ايضا كتبا لانساب مفردة مثل كتاب نسب قريش وكتاب نسب معد بن عدنان وكتاب نسب ولد العباس كتاب نسب آل أبي طالب وكتاب نسب بني عبد شمس بن عبد مناف وكتاب بني نوفل بن عبد مناف وكتاب أسد بن عبد عبد العزى بن قصي وكتاب نسببني عبد الدار بنقصي(٦٦) .. وغيرهم

ولابي المنذر ايضا كتاب ثان في النسب هو « المنزل » وهو أكبر من الجمهرة ، وثالث هو « الفريد » صنعه للمأمون في الانساب ، وكتاب رابع هو « الملوكي » صنعه

لجعفر البرمكي(٦٧) . واضاف حاجي خليفة ذكر كتاب خامس هو « الوجيز » ويسميه ياقوت الموجز(٦٨) . وكتب ابن الكلبي ليست قيمتها في كثرتها ، وانما تقع اهميتها في موضوعاتهاولو وصلتالينا جميعها لاسهمت اسهاما ايجابيا عمليا في اثراء العقل العربي المعاصر ووضحت جوانب عديدة من الحضارة العربية قبل الاسلام وبعده ، فهي عطاء مبكر وفير في فجر التأليف العربي ؛ فقد غطت أكثر فروع المعرفة في ذلك الزمان من تاريخ وأخبار وانساب وادب وعلوم دينية .

المدائني ابو الحسن (ت ٢٢٥ هـ) هو علي بن محمد بن عبد الله بن ابي سيف مولى سمرة بن جندب ،كان اخباريا ومؤرخا وعالما بالانساب ، ومن اشهر شيوخ المدرسة العراقية ومؤسسيها ، وكتبه في مجال الانساب تدل على سعة اطلاعه وتضلعه في هذا العلم . ذكر له النديم عددا من المواضيع التي الف فيها كتبه في اخبار النبي (ص)، وفي أخبار ونسب قريش ،وكتبه فيأخبار مناكح الاشراف واخبار النساء، وله كتب مفردة في النسب مثل كتاب اشراف عبد قيس ، وكتابمن نسب الىامه، وكتاب فضائل قريش(٦٩) .

ومن أشهر تلاميذ المدائني الذين اخذوا العلم عنه وتتلمذوا على يديه احمد ابن الحارث الخراز المتوفى ٢٥٨ هـ أورد له صاحب الفهرست اسماء عدة كتب في النسب منها كتاب القبائل وكتاب الاشراف وكتاب ابناء السراري ، وكتاب مختصر كتاب البطون وكتاب جمهرة ولد الحارث بن كعب واخبارهم في الجاهلية ، وكتاب النسب(٧٠) .

مصعب الزبيري (ت ٢٣٣ هـ او ٢٣٦ هـ) وهو من سلالة ابن الزبير ولد بالمدينة ١٥٦ هـ ودرس على يد الامام مالك وغيره ثم رحل الى بغداد واقام فيها الى ان توفي، كان شاعرا وعالما بالايام والانساب ، له في النسب كتابان معروفان كتاب « النسب الكبير » وكتاب « نسب قريش »(٧١) وقد وصل الينا الكتاب الثاني الذي يعتبر من أفضل كتب النسب المتخصصة في نسب قريش وتدل خطته على ان المؤلف اتبع اطارا ثابتا الكتابة اتبعه ابن الكلبي من قبل والبلاذري فيما بعد ، وهو يشير في كتابه الى اعتماده على روايات ومدونات الزهري الى جانب اخذه عن أهل النسب وبعض الرواة ، ويعطي انطباعا انه رجع الى مختلف الروايات الشفوية ، والكتاب يلقي ضوءا خاصا على التحولات في الروابط القبلية وعلى التبدلات في خطوة الانساب . ويورد الزبيري ، اضافة الى سلسلة الانساب ، اخبارا بعضها مفصل عن بعض الشخصيات المهمة في العصر الجاهلي والاسلامي حتى زمنه ، ويورد بعض الشعر(٧٢) وخاصة في الفترة الاولى ، ويستشهد ببعض الايات القرآنية ، وأورد أيضا معلومات هامة عن احداث تاريخية حصلت في صدر الاسلام ، وبصورة عامة يبين هذا الكتاب قيمة دراسات الانساب في كتابه التاريخ .

ويعتبر هذا المؤلف من اهم المصادر في المكتبة العربية الاسلامية فهو كتاب معارف اسلامية يحتوي على معلومات ادبية وتاريخية ودينية وسير وتراجم هامة ، ويدل على الارتباط الوثيق بين علم الانساب وهذه العلوم .

ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)، كان مولى لبني العباس بن محمد وكانت امه حبيب مولاة لهم ايضا . قال عنه محمد بن اسحق انه كان من علماء بغداد بالانساب والاخبار واللغة والشعروالقبائل ، وكان مؤدبا وكتبه صحيحة . روى عن ابي عبيدة وقطرب وتتلمذ على يد أبي اليقظان النسابة ، أورد له النديم اسماء عدة كتب بلغت ثلاثة وثلاثين كتابا منهافي الانساب : كتاب النسب، وكتاب العمائر والربائل في النسب وكتاب المؤتلف والمختلف وكتاب المحبر(٧٣)، وصل الينا منها كتاب« المؤتلف والمختلف » ولعله أقدم ما صنف في هذا الفن، طبع بعناية المستشرق وستفلد ١٨٥٠م، وكتاب « المحبر » الذي طبع بعناية المستشرقة شتيتر في بيروت ويحوي هذا الكتاب على خلاصات تاريخية هامة ، كما طبع له في ١٩٨٥ كتاب عن قريش واخبارها اسمه (المنمق) حققه خورشيد احمد فاروق ، وتوجد من كتبه مخطوطتان في دار الكتب بمصر لكتاب من نسب الى امه ، وقد طبعت ضمن نوادر والرسائل ، وكتاب المقتالين. وذكر النديم انه رأى في القرن الرابع الهجري كتاب ابن حبيب الضخم « كتاب القبائل الكبير والايام » الذي كتبه للفتح بن خاقان في اربعين جزءا كل جزء في مائتي ورقة ، ووضع له فهرسا في ١٥ ورقة(٧٤) .

الجهمي : وهو ابو عبد الله احمد بن محمد بن حميد بن سليمان بن عبد الله بن ابي جهم بن حذيفة العدوي ، عاش في عصر الخليفة المتوكل وكان اديبا وراوية وشاعرا متفننا ، يذكر النسب والمثالب ، له كتاب انساب قريش واخبارها وكتاب المثالب وكتاب فضائل مضر ، وكتاب الانتصار في الرد على الشعوبية(٧٥) .

ابن النطاح (ت ٢٥٢ هـ) هو ابو عبد الله محمد بن صالح بن مهران ، بصري الاصل لكنه عاش في بغداد ، وهو راوية ومحدث ومؤرخ ونسابة ، ذكر له النديم عددا من الكتب منها في النسب ، كتاب افخاذ العرب وكتاب انساب أزد عمان ، وكتاب البيوتات ، وقد نقل عنه صاحب الاغاني في مواضع كثيرة ، وكذلك الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد(٧٦) .

الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ، من أهل المدينة ، اقام في بغداد ثم تولى قضاء مكة في ٢٤٢هـ الى ان توفى فيها ، له كتب عديدة في الاخبار والشعراء والعصر الجاهلي والنسب ، لكن أبرز كتبه في النسب كتاب بقي لنا هو كتاب (نسب قريش واخبارها) وهو يختلف في ترتيبه ومضمونه عن كتب النسب الاخرى، اقتبس منه صاحب الاغاني في كافة فصول كتابه تقريبا ، وتوجد مخطوطات لبعض اقسامه في استانبول ، حقق

الجزء الاول منه محمود محمد شاكر وطبع في القاهرة سنة ١٩٦١ هـ ، كما وصلنامن كتبه « الموفقيات » وطبع ، وهو كتاب عام في الاخبار . وله كتب اخرى له في النسب لم تصلنا ذكرها صاحب الفهرست منها كتاب اخبار العرب وأيامها وكتاب نوادراخبار النسب وكتاب الاحلاف وكتاب اخبار الاوس والخزرج(٧٧) .

احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٣٧٧هـ) المكنى بأبي الحسن من اهل بغداد وعلمائها المشهورين ، له في النسب كتاب هام هو « انساب الاشراف(٧٨) »وهو كتاب عام للتاريخ في اطار الانساب ، يمثل مزيجا فذا من الخطة في الكتابة والمادة والموضوع ، فخطته تجمع بين اساليب كتابة كتب الطبقات والتراجم وكتب الاخبار وكتب الانساب ، حيث تشمل سيرة كل خليفة الاحداث التي وقعت في عهده بما في ذلك فعاليات الاحزاب السياسية مع عناوين فرعية للحوادث المهمة تشبه عناوين كتب الاخباريين ، وهو يراعي التسلسل التاريخي عادة مع وجود بعض الاستثناءات التي تفرضها ضرورة تسلسل النسب (عندما يرد الكلام مثلا عن يزيد قبل عثمان بن عفان(٧٩)) .واكثر ما يتضح أسلوب كتابة التراجم لديه عندما يورد تراجم مطولة لبعض الاعلام الذين اشتهروا من حكام وعلماء وادباء ، فقد ترجم لابي بكر في ٢٠ صفحة ولعمر بن الخطاب في ٧٢ صفحة ولعلي وبنيه في أكثر من ٣٠٠صفحة ، وترجم لجرير في ١٥ صفحة وللفرزدق في ٢٠ صفحة وللحجاج بن يوسف الثقفي في ٤١ صفحة (٨٠) .

امتاز البلاذري أيضا بانه ينتقد مصادره قبل الاخذ عنها ، وينتقي مادته التاريخية من الرويات التي تعود للمنطقة التي وقع فيها الحادث ومن روايات اخرى حول الموضوع نفسه ، كما أفاد من المؤلفات المدونة أيضا(٨١) . ويستعمل البلاذري الاسناد عادة في بعض الروايات التي تتعلق بحوادث المدينة زمن الراشدين ، وفي غير ذلك يكتفي بذكر سلسلة اسناد ، وكثيرا ما يستعمل الاسناد الجمعي ليدل على الاتفاق على المعلومات الاساسية . وقد عبر البلاذري في كتابة هذا عن فكرة وحدة الامة واتصال خبراتها في التاريخ الاسلامي . وصلت الينا نسخة كاملة من انساب الاشراف مخطوطة في اسطنبول وقام الاستاذ محمد حميد الله بنشر الجزء الاول منه في سلسلة ذخائر العرب (عدد ٢٧) . ويبدا البلاذري فيه بذكر نسب نوح عليه السلام حتى يصل الى عدنان ، ويتدرج بعد ذلك نزولا الى ذكر اخبار الرسول وسيرته حتى وفاته(٨٢) ، ثم ينتقل الى الحديث عن ابي طالب واولاده ويخص بالحديث علي ابن ابي طالب فيذكر وقائعه وحروبه ويروي سير اولاده ، ثم يتحدث عن ابي العباس السفاح وابي جعفر والخلفاء من بني العباس حتى هارون الرشيد ، ويعود مرة ثانية لاستكمال رواية انساب القرشيين امثال بني نوفل وبني أمية وبني زهرة وبني تميم بن مرة وبني هصيص بن كعب . وينتهي من نسب قريش في المجلد الرابع فيتتبع

نسب كنانة بن خزيمه بن مدركـه وينتهي منه في المجلد ١٢ ليبدأ بعد ذلك بنسب قيس ولد الياس بن نصر حتى يصل الى ثقيف .. ويبدو انه توفي قبل ان ينتهي من بقية قبائل قيس(٨٣) . .

نشر من كتاب الانساب هذا : جزء السيرة ، جزء علي بن ابي طالب ، الجزء الرابع ، معاوية ، الجزء العباسي .

مدرسـة اليمن :

اراد أهل اليمن مضاهاة عرب الشمال بتاريخهم العريق فكانت لهم مدرستهم التي اختصت برواية التاريخ اليمني وانساب قبائله ، وكان من اسباب ظهور هذه المدرسة التنافس القديم بين عرب الجنوب أصحاب الحضارة العريقة وعرب الشمال الذين صاروا بعد الاسلام ذوي مجد وسلطة ، لذلك انبروا يقارنوها بانساب اليمن القديمة وعراقتها واصالتها ، وساعد على ظهور المدرسة ايضا العصبية القبلية التي سادت في العصر الاموي اذ حاول عرب الجنوب اثبات الوجود اليمني الى جانب الوجود القيسي ، مما ساعد على زيادة الاهتمام بالانساب والحرص عليها ، لذلك كانت اهتمامات هـذه المدرسة موجهة نحو رواية تاريخ اليمن القديم وقصص الانبياء وأنساب القبائل العربية (٨٤) ، ولعل اشهر نسابي اليمن انذاك كان دغفل بن حنظلة السدوسي المخضرم الذي عاش في أواخر العصر الجاهلي وفي صدر الاسلام وأدرك معاوية الذي استقدمه من اليمن وعينه معلما لابنه يزيد(٨٥) ، وظل أشـهر نسابة تناقل تلاميذه في اليمن معلوماته جيلين على الاقل او ثلاثة ، ومن ابرز هؤلاء التلاميذ في أواخر القرن الثاني الهجري هو عمرو بن مالك الشحري الذي يروى ان الرشيد استدعاه من اليمن ليسمع منه وطلب اليه تسجيل « السيرة » التي رواها دغفل ، وفي مكتبة الامبروزيانا في ايطاليا تحت رقم ٣ مخطوطة من ٦٦ ورقة بعنوان « السيرة برواية الشحري » يروي في مطلعها قصة استدعاء الخليفة هارون الرشيد له وسماعه منه وتسجيله لها بناء على طلبه ، ويحوي ذلك الكتاب على قصص اخبار العرب القديمة وحروبها وأمر عـاد وثمـود وعدنان وقحطان ومن خلفه من الابناء والملوك في بلاد اليمن(٨٦) .

الحنبصي ، وهو ابو نصر محمد بن عبد الله بن سعيد الحنبصي وصفه الهمداني بانه أكبر نسابة ومؤرخ للتاريخ الحميري القديم ، أفاد من نقوش وكتب عربية جاهلية مدحه شاعر معاصر له بأنه فاق كل النسابين العرب(٨٧) . كان يعيش حتى ٢٩٥ هـ في قصر حنبص في اليمن ومن كتبه : نسب حمير وكان اهم مصادر الهمداني في كتابه الاكليل ، ذكره ابن ماكولا في كتابه الاكمال(٨٨) ..

أما الذي وضع الاسس الصحيحة لمدرسة اليمن وكون بشخصه مدرسة خاصة

قائمة في النسب وتاريخ اليمن فهو **الهمداني المشهور بابن الحائك ابي محمد بن احمد ابن يعقوب** من قبيلة همدان اليمنية المعروفة ، ولد في اواخر القرن الثالث الهجري وتوفي في صنعاء بعد عام ٣٤٠(٨٩) ، وله مؤلفات زاخرة اثرت الثقافة العربية بعطائها وبخاصة « الاكليل » الذي لا يستغني عنه اي دارس في تاريخ اليمن وانسابها ويعتبر ركنا اساسيا في مكتبة التاريخ العربي ولبنة هامة في بنائه الشامخ .

يتالف كتاب الاكليل هذا من عشرة اجزاء وصلنا منها الى الان اربعة ، عرفنا من خلالها الموضوعات التى بحثها الهمداني في كتبه العشرة وهي :

مختصر من المبتدا واصول الانساب ، نسب ولد الهميسع بن حمير ، في فضائل قحطان ، في السيرة القديمة وعهد تبع ابي كرب ، في السيرة الوسطى من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي نواس ، في السيرة الاخرة الى الاسلام ، في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومرائي حمير والقبوريات ، في امثال حمير وحكمها واللسان وضروب المسند ، في معارف همدان وانسابها وعيون اخبارها(٩٠) .

اما الاجزاء الاربعة التي وصلتنا من هذا الكتاب فهي الجزء الاول والثاني حققهما ونشرهما كاملين الاستاذ محمد بن علي الاكوع الجوالي في القاهرة عام ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، والجزء الثامن من هذا الكتاب نشره الاب انستساس الكرملي في بغداد ١٩٣١ ونشر الجزء العاشر الاستاذ محب الدين الخطيب في القاهرة عام ١٩٦٤ .

ومن مراجعة موضوعات اجزاء الكتاب العشرة نجد ان الجزء الاول والثاني والعاشر اختصوا بالانساب ، ففي الجزء الاول نجد مقدمتين الاولى لمحمد بن نشوان ابن سعيد الحميري(٩١) يقدم فيها كتاب الاكليل بعد ان نقحه ، والمقدمة الثانية للهمداني صاحب الكتاب وهي المقدمة الاصلية وفيها يبين الهمداني ان غرضه العناية بنسب الهميسع بن حمير الذي اهمله النسابة الكلبيون من ولد مالك بن حمير والذي لم يذكره محمد بن اسحق الا في خمسة اسطر . ويذكر الهمداني اهم مصادره في أنساب اليمن وهو الشيخ ابو نصر محمد بن عبد الله « شيخ حمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها » ومرجعه الهام الثاني هو ابو نصر الحنبصي (اوردنا ذكره سابقا) الذي كان يقرأ الكتابة الحميرية القديمة والمساند الدهرية ، علامة زمنه بالانساب . واعتمد الهمداني ايضا على الروايات الشفوية التي اخذها عن رجال حمير وكهلان واستفاد من سجل خولان القديم بصعدة(٩٢) . والى جانب هؤلاء نجد من أهم مراجع الهمداني في الانساب محمد بن اسحق وهشام الكلبي ، الا أنه في كثير من الاحيان يشير الى نقص معلومات الكلبيين في أنساب اليمن ، فهم وان كانوا يمنيين في الاصل الا انهم لم يرحلوا الى اليمن ليتعرفوا عن كثب على انساب من قطن فيها وانما اخذوا

انسابها من اعتاب من ارتحل ايام الفتوحات ، حيث انساح من اليمنيين مالا يحصى عدده . وانجبوا هناك، وهذا ما جعلهم يجهلون الكثير من المعلومات عن انسابها اذ يقول « لما قلت رحلتهم الى من قطن منهم باليمن ولم يلقوا بنهوجهم من ذوي معرفتهم غير أعقاب من ظعن ... أتوا من انسابها بعنق يختلف عنها بدنها وكذلك (فعل) غيرهم من النساب(٩٣) » .

بدا الهمداني موضوع الجزء الاول بالحديث عن اخبار آدم وبنيه ، ثم نوح والطوفان وأبناء نوح سام وحام ويافث ، وسرد انساب العرب العاربة وبعض أخبارها مثل عاد وثمود ، ثم انساب قحطان وحمير بن سبأ ، وانساب قضاعة ومهرة وخولان. ومن خلال ذلك نجد اشارات الى طبقات العرب(٩٤) وأسماء الايام المشهورة عندهم قديما .

اما في الجزء الثاني من الاكليل فيستمر بسرد انساب القبائل اليمنية الى العصور الاسلامية وحتى القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه ، يعالج في ثنايا الانساب بعض القضايا التاريخية في القديم وفي الاسلام ، فيتكلم عن الحارث الرائش افريقيش باني افريقية ، كما يعرض نتفا من تاريخ فارس وعلاقته بتاريخ اليمن والعرب قبل غزو بختنصر(٩٥) ، ويعالج أيضا نقاطا في تاريخ العلويين في اليمن مثل قدوم ابراهيم بن موسى بن جعفر الى صعدة وصنعاء(٩٦) ، كما يشير الى بعض المفاخرات بين اليمن ومضر أيام الامويين وفي ذلك اشارات الى ما امتازت به القبائل اليمنية من الفروسية والشرف والعز والملك والفصاحة والخير والمنعة(٩٧) . والجزء الثامن من الاكليل الذي وصلنا يتخصص موضوعه بذكر آثار اليمن الشهيرة وقصورها وكنوزها ودفائنها ، والبحث في هذا الجزء لا يدخل ضمن دراسة الانساب كما هو واضح ، ولكن الجزء العاشر من الاكليل متخصص بمعارف همدان وأنسابها واخبارها ، واعتمد في ذكر الانساب وتفاصيلها على الروايات الشفوية والكتب المدونة والزبر التي كانت في أيدي شيوخ القبائل ، وعندما يتحدث عن نسب المرانيين وآل ذي المشعار يقارن ما لديه بما رواه نساب العرب وينقدهم ايضا بقوله « ان نساب العراق والشام يقصرون انساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهئوا بها الاباء من ولد اسماعيل عليه السلام ، وامتنعت عليهم انساب ولد الهميسع اذ كانت مزبرة في خزائن حمير ، وكذلك انساب الملوك من ولد عمرو بن همدان فاهملوها كي لا يقاس بها انساب باقي همدان وكذلك خالفوا في أصل من نسب ناعط ، والمرانيون باليمن ينكرون هذا التدريج ويعملون على ما قيده آباؤهم في نسبهم وحفظوه كابرا عن كابر »(٩٨) .

ويورد أيضا بين ثنايا الانساب نتفا من المعلومات التاريخية فيتحدث مثلا عن الامام الهادي الى الحق(٩٩) وعن القرامطة ومعركة يوم عرق(١٠٠) ، وغزو قيس لقبائل خولان ووصولهم الى صعدة (١٠١) .

ونتيجه لما نقدم عرضه نلاحظ ان مدارس التاريخ الكبرى ساهمت في اسراء وتطور علم الانساب باعتباره كان طريقة من طرق تدوين مادة التاريخ ، وبفضل ازدهار الحركة العلمية ونشاط التدوين ـ ايضا ـ اصبح علما قائما بذاته له أسس وقواعد واصول مما ادى لظهور مصنفات كبيرة بالنسب اضحت ركنا هاما في المكتبة العربية الاسلامية لا يمكن الاستغناء عنه .

حصلت المرشحة من كلية الاداب بجامعة دمشق على شهادة الماجستير في التاريخ برسالتها « كتاب النسب لابي عبيد القاسم بن سلام ، ١٥٤ ـ ٢٢٤ هـ ، دراسة وتحقيق » باشراف الدكتور سهيل زكار .

(١) العصر العباسي الاول ، شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ص٩٨، ١٠١ .

(٢) انباه الرواة على انباه النحاة ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، القاهرة ١٩٥٥، ٣٤/٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، ابن جرير الطبري (طبعة مصورة) بيروت ، ٥٤١/٦ .

(٤) انباه الرواة ، ٣٤٩/٢ .

(٥) المصدر السابق ١٩٩/٢–٢٠١ .

(٦) المصدر نفسه ١٦/٣ .

(٧) العصر العباسي الاول ص١٠٢ .

(٨) دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الاسلام ، صالح العلي ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣، ص ٥٨ – ٥٩ .

(٩) ضحى الاسلام ، احمد امين ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط ١٠ ، ١٣/٢.

(١٠) التاريخ العربي والمؤرخون ، شاكر مصطفى ، دار العلم بيروت ، ٩٣/١ ،

(١١) الفهرست ، النديم ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ ، ص ٥٥ ، وقد ادرك القعسي المنصور

(١٢) التاريخ العربي والمؤرخون ٩٦/١– ٩٨.

(١٣) انظر التفاصيل لهذه المؤلفات في كتاب الفهرست ص ١١٥ .

(١٤) المصدر السابق ص ١٠٧.

(١٥) المصدر السابق ص ١١٨ .

(١٦) التاريخ العربي والمؤرخون ٩٩/١ .

(١٧) تذكرة الحفاظ ، لابي عبد الله شمس الدين الذهبي ، دار الفكر العربي بيروت ، ١٥١/١ ، ٢٢٩ . النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي ، القاهرة ١٩٥٦ ، ٣٥١/١ . تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، بيروت ٩٨٣ ، ص ٣٦١.

(١٨) راجع : تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية – الرياض ١٩٨٣ المجلد الاول ، الجزء الثاني ، ص ١٢.

(١٩) مثال : كتاب المغازي والسير لمحمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ ، اورد فيه فصلا خاصا للنسب النبوي الترشـ ي، وعلى ذلك النهج سار مصنفو السيرة فيما بعد .

(٢٠) الفهرست ص ١٠٨ .

(٢١) المصدر السابق ص١٠٧ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٢٦

(٢٣) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٢٤) تاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ٤٦٩/٨.

(٢٥) التاريخ العربي والمؤرخون شاكر مصطفى ١١٧/١–١١٩ .

(٢٦) المنتخب من كتاب ذيل المذيل – الطبري ، المطبعة الحسينية ، ص ٩٧ .

(٢٧) انظر كتاب المغازي النبوية للزهري ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١.
(٢٨) حلية الاولياء ٣٦١/٣ ، سيرة ابن هشام ٨/١ .
(٢٩) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، طبعة مصورة عن طبعة مصر ، بيروت ، ٥٩/١٩.
(٣٠) نسب قريش ، المصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف القاهرة ، ص٣ .
(٣١) الذهبي تراجم ص ٦٨: قال قرة بن عبد الرحمن : (لم يكن للزهري الا كتاب نسب قومه) .
(٣٢) المغازي النبوية ص ٢٦.
(٣٣) معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، دار احياء التراث بيروت ٨/١٨ .
(٣٤) تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، م١،ح١، ص ٤٦.
(٣٥) معجم الادباء ،٢٣٢/٧ - ٢٣٣ ، المعارف لابن قتيبة دار المعارف القاهرة ط٢ سنة١٩٦٩،ص٢٥٨.
(٣٦) الفهرست ص ١٠٠ .
(٣٧) تاريخ التراث العربي ، م١ ، جـ١ ص ٦١.
(٣٨) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، عبد العزيز الدوري ، المطبعة الكاثوليكية بيروت،ص١٢٠.
(٣٩) له كتاب فضائل محمد بن الحنفية ، كتاب فضائل جعفر بن ابي طالب ، كتاب فضائل عبد الله ابن جعفر ، راجع الفهرست ص ١١٤ .
(٤٠) له كتاب مثالب باهلة ، وكتاب ادعياء العرب ، انظر المصدر السابق ص٥٩.
(٤١) لخالد بن طليق كتاب المآثر ذكره صاحب الفهرست ص١٠٧ ، والاصمعي له كتاب النسب انظر المصدر السابق ص ٦١ والجهمي له كتاب الانتصار في الرد على الشعوبية ذكره النديم ١٢٤ .
(٤٢) التاريخ العربي والمؤرخون ١٧١/١.
(٤٣) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .
(٤٤) الفهرست ص ١٠٧ ، تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ،م١، جـ٢، ص٥٠.
(٤٥) تاريخ الطبري ، ٥٠٦/٣ ، ٥١٨.
(٤٦) المصدر السابق ٤٤٩/٤.
(٤٧) الفهرست ص ١٠٧ ، الاشتقاق لابن دريد الازدي ،دار المسيرة ،بيروت، ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٤ معجم الادباء ، ٢٣٦/٤ .
(٤٨) تاريخ التراث العربي، م١ ، جـ٢ ، ص ٤٧.
(٤٩) المصدر السابق ، م١، جـ٢ ، ص٤٨ .
(٥٠) الفهرست ص ١١٨.
(٥١) المصدر السابق ص ٥٤.
(٥٢) كتاب حذف من نسب قريش ، تاليف مرج بن عمرو السوسي ، تحقيق صلاح الدين المنجد بيروت ١٩٧٦ ، لمزيد من المعلومات راجع مقدمة المحقق لهذا الكتاب .
(٥٣) تاريخ التراث العربي ، م١، جـ٢ ، ص ٥٥.
(٥٤) الفهرست ص ١٠٨.

(٥٥) تاريخ التراث العربي ،م١،ج٢،ص٥١.

(٥٦) تاريخ بغداد ، ابن الخطيب البغدادي ، ٤٦/١٤.

(٥٧) الاغاني ، الاصبهاني ، ١٩/٩ .

(٥٨) الفهرست ص ١٠٨–١١٠.

(٥٩) مقدمة كتاب انساب الاشراف للبلاذري ، الجزء الاول ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٦ .

(٦٠) الاكليل – للهمداني تحقيقمحمد علي الاكوع ، القاهرة ١٩٦٤، ٨٤/١ .

(٦١) انظر تاريخ التراث العربي ،م١، ج٢،ص٥ .

(٦٢) تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ط٤ ،٣١/٣.

(٦٣) الورقة الاولى من مخطوطة كتاب النسب لابي عبيد ، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة مغنيسا بالاناضول محفوظة فيها برقم (٦٥٩٤) .

(٦٤) سماه ياقوت (جمهرة الانساب) وذكر ان ابن سعد رواها عنه، انظر معجم الادباء ٢٩١/١٩ .

(٦٥) انظر الفهرست ص ١١٠ .

(٦٦) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .

(٦٧) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ٨٣/٦ ، معجم الادباء ٢٩٢/١٩.

(٦٨) انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، بغداد ، ١٧٩/١ ، معجم الادباء ٢٩٢/١٩ .

(٦٩) الفهرست ص ١١٣–١١٤ ، معجم الادباء ، ١٣٦/١٤ تاريخ بغداد ، ٢٥٧/٥–٢٥٨.

(٧٠) الفهرست ص ١١٧، معجم الادباء ٨/٣ .

(٧١) تاريخ التراث العربي ،م١،ج٢، ص ٥٨، الفهرست ص ١٢٣، تاريخ بغداد ١١٢/١٣–١١٤.

(٧٢) كتاب نسب قريش ، مصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ص٥ ، ٧ ٢٩٩، ٢٤٦. –٢٤٦ .

(٧٣) الفهرست ص ١١٩ .

(٧٤) الفهرست ص ١١٩.

(٧٥) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٧٦) المصدر السابق ص١٢٠ ، الاغاني ٢٩٨/٣ – ٣٠١ ، ٥١/٨ – ٨٨، ٦٢/١٠–٢٥١ تاريخ بغداد ٢٥٧/٥ – ٥٨ ٢.

(٧٧) الفهرستص ١٢٣ ، اخبار وكيع بن الجراح ، دار صادر بيروت ،٢٦٩/١، معجم الادباء ١٦١/١١

(٧٨) الفهرست ص ١٢٥–١٢٦ .

(٧٩) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، عبد العزيز الدوري ص ٤٩.

(٨٠) المدخل الى التاريخ ، نور الدين حاطوم ، واخرون ، مطبعة الهلال ،دمشق ١٩٨٢ ص ٣٦٢ .

(٨١) التاريخ العربي والمؤرخون – شاكر مصطفى ٢٤٤/١–٢٤٥ .

(٨٢) بدأ الحديث عن مولد الرسول (ص) في صفحة ٤١ من المجلد الاول واستغرق الحديث عن السيرة النبوية ٢٣٧ صفحة .

(٨٣) التاريخ والمؤرخون العرب ، السيد عبد العزيز السالم ، دار النهضة العربية بيروت ص١٧٨.

(٨٤) التاريخ العربي والمؤرخون ١/١٣٥.

(٨٥) المحبر ، ابو جعفر محمد بن حبيب ، دار الافاق الجديدة بيروت ص ٤٧٨.

(٨٦) التاريخ العربي والمؤرخون ١/١٣٦ .

(٨٧) انظر الاكليل ،الهمداني ١/٥ـ٦ .

(٨٨) راجع كتاب تاريخ التراث العربي ، م١،ج٢ ص٦٢.

(٨٩) انظر مقدمة كتاب الاكليل الجزء الاول محمد بن علي الاكوع دار الحرية بغداد ١٩٧٧ .

(٩٠) كتاب الاكليل ، الهمداني ، الجزء العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب القاهرة راجع الصفحة الخامسة من مقدمة المحقق ، التي اورد فيها ترجمة وافيه عن حياة الهمداني انظر ايضا كتاب الهمداني في مصادره وافاقه العلمية ، محمود ابراهيم الصغيري ، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ، حيث وردت له ترجمة مفصلة عن حياته ومؤلفاته ص ٣٠ .

(٩١) عاش محمد بن نشوان بن سعيد الحميري ، في الربع الثاني من القرن السادس الهجري وقد اورد محقق الكتاب ترجمة عن حياته في ص ٧٩ .

(٩٢) من مقدمة الهمداني في كتاب الاكليل ١/٨٧ـ٨٩ .

(٩٣) الاكليل ١/٨٤.

(٩٤) المصدر السابق ١/٩٧ ـ ٩٨.

(٩٥) المصدر السابق ٢/٨٦ ٢.

(٩٦) الاكليل ٢/١٣١.

(٩٧) المصدر السابق ٢/٢٢٠ـ٢٢٩.

(٩٨) المصدر السابق ١٠/٣٠ .

(٩٩) المصدر السابق ١٠/٦٧، ١١٨ .

(١٠٠) المصدر السابق ١٠/١٨٢ .

(١٠١) المصدر السابق ١٠/٢٢٢.

ذيول مؤرخي الصابئة
على تاريخ الطبري

ثابت بن سنان ، هلال بن المحسن ، غرس النعمة محمد بن هلال

سميحة أبو الفضل
مرشحة للماجستير

ليس من السهل الحديث عن تاريخ الصابئة والوقوف على مافيه ، نظرا لقدم هذا التاريخ ، وقلة المصادر الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها ، ولضياع بعض كتابات القدماء ، أن لم يكن معظمها ، بسبب تلف المواد التي كتبت عليها من رق واوراق بردي بالحروب والغزوات والفتن ، أو لانها اهملت كمخطوطات لتعذر من يجيد قراءتها . اضف الى هذا انه نتيجة للصراعات الدينية التي سادت كلا من بلاد الرافدين والشام، عمدت بعض المجموعات الدينية الى اخفاء كتاباتها والتكتم على معتقداتها وطقوسها . ولا شك ان هذه الاحوال جميعا قادت الى نقص في المعلومات واخطاء في التفصيل مغايرة للحقيقة .

وينطبق هذا كل الانطباق على تاريخ الصابئة الذين هم قوم من اصحاب احدى الديانات الشرقية القديمة . واذا كان لا يعنينا هنا الحديث عن ديانة الصابئة فيكفي أن نشير ان العادة جرت على تقسيم الصابئة الى قسمين : قسم عراقي ،وآخر شامي جزري . ويعرف الشامي الجزري عادة باسم صائبة حران ، وقد انقرضوا ولم يبق منهم احد ، أما القسم الاخر فقد عاش في جنوب العراق على ضفاف نهر الفرات وتشعباته ، ويبدو ان خلافاعقائديا ميز الحرانيين عن العراقيين . وما زال في العراق وايران ما يزيد على الاربعين ألفا من الصابئة يعرفون الان باسم المندعين اوالمندائيين(١).

وتذكر المصادر العربية ان اسم الصابئة اطلق على الحرانيين في ايام الخليفة العباسي المأمون(٢) ومن ثم شهروا بهذه التسمية وعم استخدامها ليشمل الطرفين ، وعلى العموم كان لعقيدة الصابئة تأثيراتها على عقائد الشرق القديم السماوية وغير السماوية . كما ان افكارا من هذه العقيدة تغلغلت الى افكار وعقائد بعض الفرق

الاسلامية والحركات الصوفية(٣) .

تكلم صابئة حران اللغة الارامية ثم السريانية ، وأجادوا مع السريانية اللغة الاغريقية ، وشغلوا لهذا دورا كبيرا في تطور الفكر اللاهوتي المسيحي وتميزوا دائما بدور الوسيط بين الاداب الارامية والسريانية من جهة والاغريقية من جهة ثانية ؛ وقاموا أحيانا بالدور نفسه بين اللغات التي سادت اراضي الامبراطوريات الفارسية المتعاقبة .

وبعد قيام الفتوحات الاسلامية ظلت مدينة حران تتمتع بمكانة عالية ، ولعل هذه المكانة كانت سببا من الاسباب التي دفعت مروان بن محمد الى اتخاذها عاصمة له،وبعده أيضا عبد الله بن علي القائد العباسي المشهور(٤) . وشغل بعض الحرانيين ادوارا في الادارة والترجمة في العصر الاموي، لكن هذه الادوار عظمت في العصر العباسي(٥). فالحرانيون كان لديهم تراثهم الفكري الخاص وهو تراث غني،وامتلكوا تراثا مترجما عن الاغريقية ولغات فارس ،وعلى هذا الاساس شهروا منذ فترة مبكرة بالتنجيم والطب والفلسفة والقدرة على الترجمة . وفي بغداد الخلفاء العباسيين الاوائل قام الحرانيون بالدور الرئيسي في حركة الترجمة الى العربية،ودفع هذا عددا منهم ، لا بل عددا من أسر الحرانيين البارزة الى الهجرة الى بغداد والاستقرار بها ، حتى غدوا جالية متعاضدة متعاونة ، شهر على رأسها اسرتان هما آل زهرون وآل قرة، اللتان جمعت اواصر الصداقة والقرابة بينهما . وحافظ الحرانيون في البداية على عقائدهم لكن بعد مضي وقت لم يكن بالقصير دخلوا في الاسلام ، وهذا ما اقتضته الاحوال وأوجبته الظروف، ومع ذلك نسجت حكايات طريفة ومثيرة حول دخول بعضهم في الاسلام ، اخترنا منها الحكاية التي تعلقت بهلال بن المحسن لصلة هلال المباشرة بدراستنا هذه . اسلم هلال في أواسط عمره وحسن اسلامه ، وكان أول من دخل الاسلام من آل زهرون ، وبعد اسلام هلال أقبل أفراد هذه الاسرة على الدخول بالاسلام حتى اصبحت اعداد المسلمين من الصابئة تفوق اعداد الذين حافظوا على ديانتهم القديمة .

روى المؤرخون عن هلال قوله : « رأيت في المنام سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا قد وافى موضع مقامه ، والزمان شتاء والبرد شديد والماء متجمد ، فاقعدني ، فارتعدت حين رأيته ، فقال لا ترتعد فاني رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحملني الى بالوعة في الدار عليها دورق خزف وقال توضأ وضوء الصلاة ، فادخلت يدي في الدورق فاذا الماء جامد فكسرته وتناولت منه ما مررت به على وجهي وذراعي وقدمي ، ووقف الرسول في صفي وجذبني الى جانبه وقرأ « اذا جاء نصر الله والفتح » وركع وسجد وانا افعل مثله ، وقام ثانية وقرأ سورة لم أعرفها ، ثم سلم واقبل علي ، وقال : انت رجل عاقل والله يريد بك خيرا

فلم تدع الاسلام الذي قامت عليه الدلائل والبراهين ، وتقيم على ما انت عليه . هات يدك فأعطيته يدي وصافحني وقال لي : قل جئت بالبينات والهدى ، فقلت ذلك . ونهض فرأيت نفسي قائما في الصفه فصحت صياح المرتاع ، فانتبه اهلي وجاؤوا بعد ان سمعوا صياحي ، ومنهم أبي فقال ما بك وأوقدنا المصباح ، وقصصت للجميع قصتي فوجموا الا أبي فانه ابتسم ، وقال : ارجع الى فراشك وأجل الحديث للصباح، وتأملنا الدورق المنكسر بفعل العمل، وقال ابي : يابني هذا منام صحيح وبشرى محمودة ، الا أن اظهار هذا الامر فجاة ، والانتقال من شريعة الى شريعة ، يحتاج الى وقت ، وأعتقد بما أوحيت به فانني معتقد مثله ، وتصرف في صلاتك ودعائك وفق أحكامه ، وشاع الحديث . وبعد مدة رايت رسول الله ثانية في منامي على نهر دجلة في باب البستان ،(وقد عرف هذا البستان بالزاهر ، الذي ابتاعه له جده أبو اسحاق الصابيء لسكناه) فقال: ما فعلت شيئا مما وافقتني عليه وقدرته معي ، فقلت بلى يا رسول الله اعتقدت بما أمرتني به ، وتصرفت في صلاتي بموجبه ، فقال له : لقد بقيت في صلاتك شبهة، فقال : وحملني الى باب المسجد الذي بالمشرعة ، وكان امامه رجل خراساني نائم مصاب بالاستسقاء ، ورم جسمه ، فمر الرسول يده على بطنه وقرأ عليه فقام الرجل صحيحا معافى .

فقلت صلى الله عليك يا رسول الله فما احسن تصديق امرك واعجز فعلك» . واثر هذا اشهر اسلامه(٦) .

لا شك أن هلال بن المحسن الصابيء اسلم لان الظروف اقتضت ذلك، فأسلافه جاؤوا فيما مضى الى بغداد ليعملوا بالترجمة ، اما هو وطبقته فلم تعد الترجمة ميدان عملهم بل صاروا من كبار موظفي ادارة الخلافة في بغداد ، بعضهم صار كاتبا ، وعمل آخر بوظيفة تعدل وظيفة الوزارة ، وافترضت قوانين الدولة واعرافها ان يكون أصحاب هذه الوظائف من المسلمين لذلك كان لا بد من الدخول في الاسلام . واستدعى الحال اختراع قصة كالتي أثبتناها .

وتزوج هلال اثر اشهاره لاسلامه امراة مسلمة وهي التي أنجبت له ابنه محمد، محور دراستنا هذه وموضوعها الاساسي . وقبل الحديث عن محمد من المفيد أن نذكر ان زوجة هلال المسلمة شكت باسلامه ، وذلك لانه لم يقطع صلاته بأهله وذويه من الصابئة ، وهنا جاءها هي الاخرى الامام علي كرم الله وجهه في المنام فطمأنها(٧) .

ولنلاحظ ان العصر الذي أعلن فيه هلال اسلامه كان هو العصر البويهي ، والاسرة البويهية شيعية ، لذلك اقتضى الحال تكملة قصة اسلام هلال ، التي تمت بمعجزة نبوية ، بقصة بطلها الامام علي بين أبي طالب .

اهتم عدد من رجالات آل الصابىء بتدوين التاريخ ، وبرز من بين صفوفهم عدد من كبار المؤرخين .

يقول القفطي في كتابه أخبار الحكماء: « واذا اردت التاريخ متصلا فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري رضي الله عنه، فانهمن اول العالم والى سنة تسع وثلاثمائة. ومتى شئت أن تقرن به كتاب احمد بن ابي طاهر وولده عبيد الله فنعم ما تفعل لأنهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية وأتيا من شرح الاحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة ، والطبري أزيد منهما قليلا ، ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فانه يداخل الطبري في بعض السنين ، ويبلغ الى بعض سنة ثلاث (الاصح خمس) وستين وثلاثمائة . فان قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله ، فان في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الاماكن . ثم كتاب هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء فانه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه الى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولم يتعرض أحد في مدته الى ما تعرض له من أحكام الامور والاطلاع على أسرار الدول وذلك أنه أخذ ذلك عن جده ، لانه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع فاستعان بعلم الاخبار الواردة على ما جمعه ، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال وهو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين وأربعمائة »(٨) .

نستدل من هذا النص البالغ الاهمية أن الاهتمامات التاريخية لآل الصابىء برزت في العصر البويهي ، وفي الحقيقة كان الذين اعتنوا بالتاريخ من آل الصابىء قد أوقفوا جهودهم تقريبا على التاريخ للعصر البويهي، لكن كتاباتهم تعتبر بحكم المفقودة لسوء الحظ .

كان ثابت بن سنان اول من أهتم بكتابة التاريخ من آل الصابىء ، فهو متخصص اصلا في الطب ، تعلق بخدمة الخليفة الراضي (٣٢٢– ٣٢٩ / ٩٤٣ – ٩٤٠) وتولى تدبير المارستان في بغداد ، وخدم عددا من الخلفاء بعد الراضي . وذكر بعض الذين ترجموا لثابت انه توفي سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣ – ٧٤م ، وهذا وهم اصح منه أن وفاته حدثت في عام ٣٦٥/ ٩٧٥–٧٦. وهذا ما تثبته مخطوطة تاريخ أخبار القرامطة المنتزعة من كتابه ، وما نقله ياقوت عن ابن أخت ثابت(٩) هلال بن المحسن الصابىء .

اهتم ثابت الى جانب الطب بالتاريخ وتدوين اخباره فكتب عددا من المصنفات التاريخية ، اشهرها كتاب في التاريخ كبير رتبه حسب حوادث السنين على طريقة الحوليات وذيل به على تاريخ الطبري لكن بشيء من التداخل ، فقد بدأ ثابت تاريخه هذا بعهد الخليفة المقتدر (٢٩٥هـ – ٩٠٨/٣٢٠–٩٣٢) وتوقف عن متابعة الكتابة فيه قبيل وفاته بأيام ، ولثابت تاريخ « مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد » ، وله كتاب آخر دون فيه « وفاءات من توفي في كل سنة من سنة ثلاث مائة الى السنة التي مات فيها »(١٠) أي سنة ٣٦٥ .

ووصلنا كتاب مخطوط صغير جاء بمثابة مختصر لتاريخ ثابت بن سنان ضمنه مختصر ما حواه تاريخ ثابت من اخبار القرامطة ، وهذا المخطوط في حوزة المستشرق برنارد لويس ، وقد نشره سهيل زكار ضمن نصوص كتابه أخبار القرامطة ، ومن تحليل مواد هذا المخطوط نجد مايلي:

يمكن من حيث المبدأ تقسيم المعلومات التي يتضمنها الى قسمين : القسم الاول وقد وردت معظم رواياته في تاريخ الطبري ، والقسم الاخر وقعت احداث رواياته بعد وفاة الطبري ، فقام ثابت كما هو مفترض بتدوين أخبار هذه الاحداث.

وجل الاخبار في هذا القسم من عصر ثابت ، وعندما نقرأ هذا القسم نلاحظ امرا مدهشا حيث ان الكتاب يروي أخبار القرامطة ابتداء من « سنة مائتين وثمان وسبعين من الهجرة » حتى « سنة تسع وثلاث مائة » بشكل كامل التسلسل سنة تلو اخرى ثم يقفز فيبدأ بأخبار « سنة ستين وثلاث مائة » .

لا نعرف سبب هذا بالتأكيد ، لكن لدى قراءة المواد الاخيرة ومقارنتها بالمواد الاولى يحصل لدينا انطباع أن المواد الاولى تهتم بقرامطة البحرين والعراق بشكل رئيسي ، في حين ان المواد الاخيرة موقوفة الى أبعد الحدود على نشاط القرامطة في الشام وصراعاتهم مع الخلافة الفاطمية في الشام ومصر ، ان هذا يدفعنا الى الافتراض ان الذي جمع مواد مخطوطة المستشرق لويس جمعها من كتابين لعلهما كانا في مجلد مجموع واحد ، هما : تاريخ ثابت بن سنان الذي ذيل به على تاريخ الطبري ، وكتابه الاخر الذي أوقفه على تاريخ الشام ومصر ، ويرجح ان الكتاب الاول كان مبتورا فهو بالاصل (مسودة المؤلف)(١١) والذي تولى عملية الاختصار لم ينتبه لا الى الخرم الكبير ولا الى طبيعة المواد المروية ولا الى الاختلاف الذي لحقها ، ولعله تنبه ولكنه لم يخبرنا . ومهما يكن الحال فان المواد المتاخرة من مخطوطة المستشرق لويس تتوافق، بل تتطابق تماما مع محتويات تاريخ دمشق او المذيل على تاريخ دمشق لابن القلانسي.

وقد صرح ابن القلانسي بأنه صنع « مذيلا على تاريخ دمشق ». وكما هي العادة ينبني المذيل على ذيل، والذيل يأتي بمثابة ملحق بكتاب اساسي . وبدأ ابن القلانسي مذيلة بحوادث سنة ٤٤٨ للهجرة .

ولنتذكر ما حكاه القفطي عن ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، فثابت كتب فيما كتبه كتابا اوقفه على اخبار مصر والشام ، ووقف به مع احداث سنة وفاته وهي سنة ٣٦٥ هـ ، ومن بعده جاء هلال بن المحسن فكتب مذيلا على تاريخ ثابت تداخلت بعض حولياته ، حيث بداه بحوادث سنة ٣٦٠ ، ووقف به مع نهاية سنة ٤٤٧ هـ .

ولعله سيكون من المفيد قبل الاستطراد في هذا الحديث الوقوف قليلا مع هلال بن المحسن ، وقد كان القفطي وصفه قبل قليل انه كان ابـن اخت ثابت ، وفي الحقيقة جاء هذا التحديد تجاوزا حيث ان ابراهيم جد هلال هو ابن اخت ثابت.

لقد اوردنا قبل قليل مسالة اسلام هلال والمكان هنا للحديث عن انه ولي ديوان الانشاء في بغداد وعاش فترة تاريخية هامة جدا عاصر احداثها، وعرف أخبارها وعاشر ابطالها ، فكتب ما توصل اليه وما عرفه من اخبار بشكل يمكن وصفه بالوثائقية ، وقد اودع ذلك في عدد من الكتب ، مفردة مثل كتابه في تاريخ الوزراء وهو مطبوع واسع الاهمية(١٢) . أو ذيل على ما كتبه ثابت بن سنان ، أي أنه كتب الذيل للطبري . كما ذيل على كتاب ثابت الاخر الذي اوقفه على تاريخ بلاد الشام ومصر ، وهذا ما أكده القفطي في نصه الذي نقلناه انفا ، وما بينه سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان(١٣) : « وكان هلال من كبار العلمـاء والادباء وله التاريـخ الذي ذيلـه على تاريـخ ثابت ابن سنان وبدأ من سنة احدى وستين وثلاث مائة الى سنة سبع وأربعين وأربـع مائة » . في الحقيقة ابتدأ هلال بن المحسن كتابه الذي ذيل به على تاريخ ثابت بحوادث سنة ٣٦٠ هـ وأنهاه باخبار سنة ٤٤٧ هـ ، فهذا ما قاله ابنه غرس النعمة محمد بن هلال في مقدمة كتابه(١٤) ، وبذلك تداخلت مواد هلال مع مواد ثابت مثلما تداخلت من قبل مواد ثابت مع مواد الطبري .

لسوء الحظ أن معظم مواد التراث التاريخي لاسـرة آل الصابيء هي بحكـم المفقودة وقد أكثر سبط ابن الجوزي النقل من تواريخ كل من ثابت وهـلال كما ان المستشرق اندروز عثر على قطعة من تاريخ هلال حوت أخبار خمس سنين اولها سنة ٣٨٩ هـ وآخرها سنة ٣٩٣ ، وقد الحق مارجليوث هذه القطعة بكتاب تجارب الامم لمسكويه ، وذلك بعد ذيل ابي شجاع ، وطبعها في القاهرة سنة ١٩١٩ .

ونعود الان الى ابن القلانسي فنجد انه لم يصرح في كتابـه باعتماده على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن او على واحد منهما على الاقل ، وكل ما هنالك انـه قال في سياق الحديث عن ولاية حيدرة بن مفلح لدمشق وهو احد الـولاة الفاطميـين « واستمرت عليه الايام في الولاية الى سنة ثمان واربعين واربع مائة التي يبنى هذا المذيل عليها ، وعادت سياقة الحوادث منها ايراد ما فيها وتجدد بعدها »(١٥) .

والبحث التاريخي المقارن هو الذي قاد الى الافتراض ان ابن القلانسي بنى مذيله على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، او على واحد منهما ، اذ انه من المؤكد الى حد ما أن مصنف ابن القلانسي بشطريه « الاساسي » و « المذيل » يبدأ بحوادث سنة ٣٦٠ هـ . وبهذه السنة بدأ هلال كتابه ، ومن المسلم به أن ما كتبه هلال عـن

اخبار السنوات (٣٦٠ — ٣٦٥ هـ) ، وهي السنوات التي تداخل بها كتابه مع كتاب ثابت ، هناك تطابق بالمواد، مع احتمال بعض الفوارق في التفاصيل ، فهذا ما نلاحظه حينما نقارن مواد السنوات المتداخلة بين مواد تاريخ ثابت بن سنان وتاريخ الطبري. لهذا ليس من المستبعد أيضا ان يكون ابن القلانسي اعتمد على تاريخ هلال ابن المحسن دون سواه . وتبقى القضية في حدود الفرضية فتاريخ هلال بن المحسن لم يصلنا كاملا ، ومصنف ابن القلانسي وصلتنا منه نسخة خطية واحدة(١٦) قد بتر من اولها مقدار اربع عشرة ورقة ،ولا شك ان هذه الاوراق قد حوت خطبة الكتاب مع بعض المواد الاخبارية .

واذا صحت هذه الاجتهادات فهذا يعني انه مع وفاة هلال بن المحسن تم صنع مذيلين على كتابه أحدهما شامي دمشقي صنعه ابن القلانسي ، والاخر عراقي بغدادي صنعه محمد بن هلال بن المحسن ، الذي شهر بلقب غرس النعمة ، وهو بالاصل موضوع هذه الدراسة ، فلنحاول التعرف الى حياته ونتاجه :

تزوج هلال بن المحسن اكثر من مرة قبل اسلامه وبعده ، وانجب عددا من الاولاد شهر منهم من زوجته المسلمة ابنه محمد غرس النعمة ، ويرجح أن محمدا هذا ولد سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، على ان بعض كتب التراجم تجعل مولده قبل ذلك بسنة أو سنتين(١٧) .

نشا غرس النعمة في كنف أبيه الذي رعاه فاعتنى بثقافته وتعليمه ، فعلى ابيه تخرج في صناعة الانشاء والكتابة والادب . وقد سمع أ يضا من ابي علي بن شاذان ، ولم تذكر المصادر من شيوخ غرس النعمة غير هذا الشيخ مع أبيه(١٨) . لكن لنا ان نفترض انه بحكم مكانة هلال بن المحسن لا بد ان ابنه قد لقي شيوخ بغداد وعلماء الخلافة العباسية في القرن الخامس واخذ عليهم وتثقف ، فهو قدنهض فيما بعد بأعمال ديوان الانشاء ايام الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ — ١٠٧٥ م) ونهوضه بهذا العمل مع ماخلفه من مصنفات في التاريخ والادب يدل على ان الرجل قد استوعب معارف عصره استيعابا جيدا ، ومع هذا يرجح ان المؤثر الاكبر في ثقافته وتكوين شخصيته من كافة الجوانب هو أبوه هلال ابن المحسن ، فهو الذي طلب منه التذييل على كتابه بالتاريخ ، وقبل ذلك دفعه بعد تخريجه في طريق التاليف في الادب وغيره ، فهو في مؤلفاته الادبية ياتي على ذكر أبيه بشكل مستمر وينقل عنه ويحيطه اثناء حديثه عنه بهالة عظيمة من الاجلال والتقدير .

ففي كتابه « الهفوات النادرة » يقول في أحد الامكنة : « وحدثني الرئيس الاجل ابو الحسين والدي قال » . وفي مكان اخر « وحدثني الرئيس والدي ابو الحسين

رضي الله عنه نال » ، ووصف في كتابه في التاريخ اسلوب ابيه بالسحر الحلال والعذب الزلال والصادر عن أوحد دهره وفريد عصره(١٩) .

كان غرس النعمة في حوالي الثلاثين من عمره عندما توفي والده وقد ورث عنه مكانته مع ثروة كبيرة « واملاكا نفيسة على نهر عيسى »(٢٠) وامنت له الثروة الموروثة والحظوة سبل العيش بهناء وسعادة ، ويبدو انه قد عكف على تثمير ثروته وزيادتها ولم يتورط في مؤامرات عصره التي كانت كثيرة وشديدة اضطرب بها القرن الخامس، وابتعاده عن التورط بالمشاكل السياسية ابقاه « محترما عند الخلفاء والملوك والوزراء »(٢١).

استمر غرس النعمة في اهتماماته الثقافية والادبية ، ووصف انه كان كريما صاحب صدقات كبيرة ذلك أنه كما يبدو كان ينفق على بعض العلماء كما ان الذين ترجموا له قد ذكروا في جملة مآثره انه اوقف دارا ، شحنها بالكتب من مختلف الانواع على الناس ، ويروي ابن الجوزي في كتابه المنتظم انه « في رجب من سنة ٤٥٢ وقف ابو الحسن محمد بن هلال الصابىء دار كتب بشارع ابن أبي عوف من غربي دار السلام ونقل اليها نحو الف كتاب ، وكان السبب ان الدار التي اوقفها سابور الوزير بين السورين احترقت ونهب أكثر ما فيها فبعثه الخوف على ذهاب العلم ان وقف هذه الكتب »(٢٢). وغدت هذه الدار منتدى العلماءوملتقى الباحثين والدارسين والمتناظرين، ومن المرجح ان غرس النعمة كان يشرف شخصيا على تسيير امور هذه الدار ويحضر ندوات العلماء ويشارك فيها ، مما كان له ابعد الاثار على نمو ثقافته وارتفاع مكانته اجتماعيا ، كما ان ذلك شجعه على التصنيف فيالاداب ومكنه من سبل النجاح وزوده بمواد غنية جدا وهذا واضح كل الوضوح في كتابه الهفوات النادرة « أو البادرة ».

وكان غرس النعمة اخر المشاهير من قومه من آل الصابىء فبوفاته انتهى مجد الاسرة ، هذه الاسرة التي عاشت العصر البويهي ، الذي شهد غرس النعمة نهايته ، ورأى بغداد وديار العرب والمسلمين تدين بالطاعة البداة التركمان ، الذين جلبوا معهم الى بغداد نمطا من الادارةالجديدة وعقلية سياسية ودينية جديدة، ولهذا لا عجب ان انتهى مجد اسر بغداد السياسية والادارية التي شهرت في العصر البويهي .

في ذي القعدة من سنة ثمانين واربع مائة (١٠٨٧م) مات غرس النعمة عن عمر نيف على الستين ، وقد خلف ثروة قدرت بسبعين الف دينار ودفن أولا في داره في بغداد ، ثم نقل فيما بعد الى مشهد علي بالكوفة(٢٣) .

صنف غرس النعمة عددا من المصنفات ، وذكرت له كتب التراجم عناوين ثلاثة كتب منها ، هي : كتاب في التاريخ ، وكتاب الربيع ، وكتاب الهفوات . ولم يصلنا من

هذه الكتب بشكل مباشر غير كتابه الهفوات وقد نشر ، وسنتحدث عن هذا الكتاب وعن كتاب الربيع ثم نخلص للحديث عن كتاب التاريخ الذي وصلنا بشكل غير مباشر. يروى ان كتاب الربيع صنفه غرس النعمة بمثابة ذيل على كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي(٢٤) .ويبدو أن غرس النعمة كان معجبا بكتاب التنوخي ودليلنا على ذلك كثرة النقول عنه في كتاب الهفوات ، فقد احصى صالح الاشتر محقق كتاب الهفوات قرابة اربعين خبرا منقولا عن القاضي ابي علي التنوخي تصريحا او تلميحا وهذا يعني ان طبيعة كتاب الربيع شابهت طبيعة نشوار المحاضرة ، ومعروف ان كتاب نشوار المحاضرة كتاب رائد في طريقة تدوين الاخبار والحكايات المستطرفة ، املاها التنوخي من ذاكرته وحكى في غالبيتها اخبار من عرفهم وعاصرهم في حياته من وزراء وقضاة وكبار موظفي الدولة من الكتاب والعمال ، ومن هنا يعد كتاب نشوار المحاضرة مصدرا اساسيا في الدراسات الاجتماعية لتاريخ العصر العباسي ، واذا صح وشابه كتاب الربيع كتاب نشوار المحاضرة ففيه دليل على شدة اهتمام غرس النعمة باخبار مجتمعه ونجد ذلك جليا في كتابه الهفوات وفي ثنايا التفاصيل العديدة من اخبار الحوادث التي اتى على ذكرها في كتاب التاريخ وهذا ما سنمر به بعد قليل .

ولا شك أن المكانة الاجتماعية والرسمية لاسرة غرس النعمة ، ولغرس النعمة نفسه قد مكنته من جمع مواد اخبارية اجتماعية لم تتوافر لسواه . ولم يصلنا كتابه الربيع ، وجل ما وصلنا منه بعض النقول القصيرة في بعض كتب التراجم(٢٦) .

أما الاثر الوحيد من اثار غرس النعمة الذيوصلنا كاملا وبشكل مباشر فهو كتاب الهفوات النادرة (او البادرة) ويتضمن مجموعة من الاخبار الطريفة والحكايات المسلية والنوادر الممتعة ، أبطالها رجالات الدولة العباسية وسواهم من ذوي المكانة، جاءت بمثابة سقطات على ألسن المتحفظين والمتحرزين من رجالات السلطة والقضاء والادارة ، ولهذا يرجح ان اسم الكتاب كان الهفوات البادرة .

يقول صالح الاشتر محقق كتاب الهفوات « موضوع الهفواتالنادرة اذن هذا اللون الممتع من أدب الاسمار والحكايات والطرائف والملح ، ويبدو ان هذا اللون من التاليف الادبي اصاب ازدهارا في المجتمعات الاسلامية منذ القرن الهجري الرابع ، ففي الحكاية والسمر مؤانسة وامتاع ، وفيها تنفيس عما كان المجتمع يعانية من كبت ومرارة وحرمان وفيها عرض لجوانب من الحياة : حياة اناس من جميع الطبقات من ساكني القصور الى الساعين وراء لقمة العيش الشحيحة ساكني الاكواخ »(٢٧) .

وقد أوضح غرس النعمة في فاتحة كتابه « الهفوات » الاسباب التي دفعته الى جمع مادته والغاية من تاليفه ، فقد اراد ان يقدم لقرائه نوادر مستطرفة تسليهم

وتحمل اليهم الوانا من الفكاهة والمتعة ، ويرجح انه كان يدون خلاصة الاخبار التي كان تتداولها المجالس التي كانت تعقد في دار كتبه ، وعلى هذا يمكن القول ان تصنيف كتاب الهفوات اقتضى وقتا طويلا(٢٨) .

ويحوي كتاب الهفوات ما يزيد على اربع مائة حكاية عرضت بلغة جيدة ، لكن هذه الحكايات لم تسق حسب موضوعاتها وأبطالها ، وانما جاءت هكذا بلا ترتيب ولا تنسيق ، ومرد هذا كما بينا قبل قليل الى ان المؤلف كان يدون ما يجتمع لديه من مواد فترة تلو الاخرى ، وبعض هذه المواد المدونة في الهفوات وصل الى غرس النعمة عن طريق الرواية الشفوية او المشاهدة وبعضها الاخر نقله من بطون العديد من المصادر التي كان يطلع عليها .

وأسلوب غرس النعمة في الهفوات اسلوب نثري راق ، اسلوب مدرسة الجاحظ ، وهو اسلوب أصيل يمكن التعامل معه بيسر وسهولة ، ويحوي كتاب الهفوات موادا اخبارية هو مصدرها الوحيد ولهذا غدت مكانة الكتاب عالية جدا(٢٩) .

ومهما علت مكانة « الهفوات » فان شهرة غرس النعمة نبعت من كتاب التاريخ ، فغالبا ما يشار اليه من قبل المترجمين باسم صاحب التاريخ ، وكتاب التاريخ لم يصلنا منه نسخة خطية بشكل مباشر ، لكنه وصلنا بشكل غير مباشر عن طريق سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان ، فقد كتب سبط ابن الجوزي مصنفه مرآة الزمان اكثر من مرة ، وكان في كل مرة يهذب او يزيد ، ويبدو انه عثر في دمشق على مجموعة من الكتب كان من بينها مصنفات آل الصابىء ، فقام باقتباس بعض مواد هذه المصنفات ، واودع في احدى المراتب تاريخ غرس النعمة في متن كتابه بالكامل ، وفي العالم الان عدد كبير من النسخ المخطوطة لكتاب مرآة الزمان ، وفقط نجد نص تاريخ غرس النعمة في نسختين خطيتين احداهن في مكتبة احمد الثالث في اسطانبول برقم ٢٩٠٧ب والثانية في المكتبة الوطنية بباريس برقم عربي ١٥٠٦ .

ان مكانة تاريخ غرس النعمة تتجلى لنا واضحة من خلال الفترة التي ارخ لها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى من خلال المادة الاخبارية التي حواها من حيث التفصيل ودرجة الموثوقية والتفرد .

لقد ارخ غرس النعمة لحوادث السنوات الواقعة ما بين ٤٤٧ هـ/١٠٥٥م و ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وهي سنة وفاته .وشهدت هذه الفترة بالنسبة لديار الخلافة العباسية إنهيار الحكم البويهي في العراق وغيره ، وتأسيس السلطنة السلجوقية ، وفي الوقت نفسه اجتياح قبائل الغز والتركمان للعراق والجزيرة والشام وارمينية واسية الصغرى بعد اجتياحهم خراسان وسواها في المشرق . ويعد تأسيس السلطنة

السلجوقية وامتداد حكمها نحو بلاد الشام والجزيرة واسية الصغرى من اهم احداث تاريخ العرب والاسلام واعمقها تاثيرا ، سواء على الصعيد الديني أم الاجتماعي أم الاقتصادي وحتى البشري والعرقي . ومصدرنا الاول والاساسي حول هذه الفترة والذي يرقى الى الدرجة الوثائقية هو تاريخ غرس النعمة ، ومنه نستخلص ان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة الحادي عشرة للميلاد قد حفل بالاحداث الكثيرة والهامة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والسياسية.

هذا ويلاحظ انه على الرغم من ان غرس النعمة كتب تاريخه بناء على وصية ابيه وجعله ذيلا على تاريخ هذا الاخير ، اعطاه عنوانا خاصا به هو « عيون التواريخ » وبذلك سبق في اختيار هذا العنوان ابن شاكر الكتبي بسنوات طوال .

وغطى غرس النعمة كشاهد عيان ومشارك في احداث ، اخبار الصراعات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي رافقت سقوط الحكم البويهي ، وذلك على مستوى الكتل والقبائل والافراد والطوائف ، واهتم بما شهده العراق اولا اثناء قيام السلطنة السلجوقية واتساع رقعة سلطانها ، واولى اخبار الجزيرة من الاهتمام ما جاء بالترتيب تاليا لاخبار العراق ، ثم تعرض بعض الشيء لاخبار بلاد الشام واسية الصغرى ، واحيانا الى اخبار مصر والشمال الافريقي ، ونادرا ما اتى على ذكر وقائع بلدان العرب والاسلام الاخرى ، ومع ذلك يلاحظ ان هذا النادر واسع الاهمية الفردية (*) .

---

* حصلت الباحثة على شهادة الماجستير في التاريخ من كلية الاداب بجامعة دمشق ،برسالتها«عيون التواريخ لغرس النعمة محمد بن هلال الصابيء ، دراسة وتحقيق» باشراف الدكتور سهيل زكار .

ثبت باهم المصـادر والمراجـع

١ ــ احمد بن خلكان ، وفيات الاعيان ، باريس ١٨٢٨ .

٢ ــ احمد بن يحيى ، المنية والامل في شرح الملل والنحل ، بيروت ١٩٧٩ .

٣ ــ الليدي أ. دراوور ، الصابئة المندائيون ، بغداد ١٩٦٩ .

٤ ــ حمزة بن اسد بن القلانسي ، تاريـخ دمشق ، دمشق ١٩٨٣ .

٥ ــ سهيل زكار ، اخبار القرامطة ، دمشق ١٩٨٣

٦ ــ سهيل زكار ، ماني والمانوية ، دمشق ١٩٨٥ .

٧ ــ عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة مصورة بيروت .

٨ ــ عبد الرزاق الحسني ، الصابئون ، بيروت ١٩٨٣ .

٩ ــ عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ .

١٠ــ عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر .

١١ــ علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ، ط . بيروت دار المعرفة .

١٢ــ علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزغ ١٣٢٠هـ .

١٣ــ غضبان رومي عكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٣ .

١٤ــ محمد بن اسحق النديم . الفهرس ــ طهران ١٩٧١ .

١٥ــ محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البـر والبحـر ، لايبزغ ١٩٢٣ .

١٦ــ محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .

١٧ــ محمد بن علي بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، مكتبة المثنى بغداد .

١٨ــ محمد بن هلال الصابيء ، الهفوات النادرة ، دمشق ١٩٦٧ .

١٩ــ هلال بن المحسن الصابيء ، تحف الامراء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٠ــ يوسف بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ط . مصـورة وزارة الثقافة ــ القاهرة .

٢١ــ يوسف بن قز اوغلي (سبط ابن الجوزي) ــ مرآة الزمان ــ مخطوطة احمد الثالث رقم (٢٩٠٧ ب) .

٢٢ــ ياقوت الحموي ، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، القاهرة ١٩٠٩ .

(١) قضبان رومي عكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٢ ص ١٠-٢٥ . عبد الرزاق الحسني ، الصابئون، بيروت ١٩٨٣ ص ١٤-٤٦ . عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ ص ٢٦-٣٥ . سهيل زكار ، ماني والمانوية م. دمشق ١٩٨٥ ص ٢٥٨-٢٨٦ . الليدي دراوور ، الصابئة المندائيون بغداد ١٩٦٩ ص ٨-٢٣ .

(٢) محمد بن اسحق النديم ، الفهرس ، طهران ١٩٧١ ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ، بيروت ، دار المعرفة ، ج ١ص ٢٢٢-٢٢٣ ، ج٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ . محمد بن علي بن حزم، المفصل في الملل والنحل ، مكتبة المثنى بغداد ص ٩٤-١٠٣ ، محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لا يبزغ ١٩٢٣ ص ١٩١ - ١٩٢ ، ٢١٤ -٢١٨. احمد بن يحيى ، المنية والامل في شرح الملل والنحل بيروت ١٩٧٩ ص ٧-٦٨ .

(٣) ماني والمانوية ، ص ١٨-١١ ، ١٤٢ - ١٦٩ .

(٤) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ج ٧ ص٤٧٤-٤٧٩.

(٥) الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، ١٦٥ - ١٧٨ .

(٦) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم . بيروت ج٨/١٧٦-١٧٩ . ابن أبي اصيبعة ، ط . بيروت ج٢ ص ١٦٢ - ٢١٧ . ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهـر في محاسـن اهل العصر ، القاهرة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج٢ ، ص ٢٤٢ -٢٦٢ .

(٧) ابن الجوزي المصدر نفسه ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ص ٨٥-٨٧ .

(٨) جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزغ ١٣٢٠ هـ ص ١٠٩-١١١، احمد بن خلكان ،وفيات الاعيان باريس ١٨٢٨ : ١/١٤٨ ، ياقوت الحموي ، ارشادالاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) حققه د.س : مرجليوث ، القاهرة ١٩٠٩ : ٢/٢٩٧.

(٩) نشر هذه المخطوطة سهيل زكار ضمن نصوص كتابه اخبار القرامطة . معجم الادباء :٢/٢٩٧.

(١٠) اخبار القرامطة : ٥١-٥٢ .

(١١) اخبار القرامطة ص ٧٠ .

(١٢) نشر كتابه ((تحفة الامراء في تاريخ الوزراء)) في القاهرة عام ١٩٥٨ محققا من قبل عبد الستـار احمد فراج .

(١٣) مرآة الزمان ، مخطوطة احمد الثالث ٢٩٠٧ ، المجلد الثاني عشر حوادث سنة ٤٤٧هـ .

(١٤) المصدر نفسه .

(١٥) انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ، دمشق ١٩٨٣ ص ١٤٠.

(١٦) محفوظ في مكتبة البودليان في اكسفورد برقم ١٢٥ .

(١٧) لغرس النعمة ترجمة في المصادر التالية :

- المنتظم لابن الجوزي : ٧/١٥٧ ، ٨/١٨٨ ، ٢١٦ ، ٩/٤٢ - ٤٣ .

- الكامل بالتاريخ لابن الاثير حوادث سنة ٤٨٠ .

- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ((نهاية المخطوط الذي نحققه)).

- البداية الزاهرة لابن كثير ١٢/١٣٤ .

ـ النجوم لابن تغري بردي ١٢٦/٥ في ١٣٢ .

ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣٦/٥ ، ١٣٢ .

ـ كشف الظنون لحاجي خليفة ٢٩٩/١ .

ـ وورد ذكره في معجم الادباء لياقوت (ط . مرجليوث) ١٧٠/١ ، ١٩٤،١٦٣/٥ ،٢٠٤، ٢٥١/٦.

وذكره ابن خلكان في ترجمة ابيه هلال بن المحسن ، وابن الفوطي في كتابه تلخيص مجمع الاداب ١١٦٣/٢/٤ ـ ١١٦٤ ، كما تحدث عنه ميخائيل عواد في مقدمة رسوم دار الخلافة : ٢٥/٢١ ودرس حياته صالح الاشتر في مقدمة كتاب الهفوات النادرة .

(١٨) انظر المنتظم ٤٢/٩ تلخيص مجمع الاداب ١١٦٣/٢/٤ ، البداية والنهاية ١٣٤/١٢ .

(١٩) انظر الهفوات النادرة دمشق ١٩٦٧ : ١٤، ١٤١ ، ٢٧١ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ .

(٢٠) المنتظم : ١٠١/٨ .

(٢١) تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٢٦ .

٢٢) المنتظم ٢١٦/٨ .

(٢٣) المنتظم ٤٢/٩ ، البداية والنهاية ١٣٤/٢.

(٢٤) انظر معجم البلدان ٩٢/١٧.

(٢٥) انظر مقدمة المحقق ص ٢٨.

(٢٦) انظر معجم الادباء ٢٥٥/٧ــ٢٥٦ . تاريخ الحكماء للقفطي ٢٩٤.

(٢٧) مقدمة المحقق ص ٣٢ .

(٢٨) مقدمة المحقق ٣٣ــ٣٤ و ص ٣ــ٤ من نص الكتاب المحقق .

(٣٠) انظر مقدمة المحقق ٩ــ٤١ ، وانظر ايضا بحث ((من العربية العباسية استقراء في الهفوات النادرة)) للدكتور ابراهيم السامرائي في مجلة الناشر العربي العدد الرابع ، ابريل ١٩٨٥ ص ٣٦ ـ ٣٢ .